اسمي أقصى

اسمي أقصى

رواية

رضوى حامد

تصميم الغلاف : عمرو الحوّ

رقم الإيداع : ٢٠١٣/١١٨٣٩

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-٢٢٦-٥

دار اكتب للنشر والتوزيع

الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨

E – mail :daroktob١@yahoo.com

Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، ٢٠١٣م

©جميع الحقوق محفوظة

دار اكتب للنشر والتوزيع

اسمي أقصى

رضوى حامد

رواية

دار اكتب للنشر والتوزيع

عن أبي عبد السلام، عن ثوبان، قال قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم:- « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال: « بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن » فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن ؟ قال: « حب الدنيا، وكراهية الموت » .

أخرجه أبو داود في سننه (٢/٢١٠) والروياني في مسنده (ج ٢/١٣٤/٢٥) من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عنه ، ورجاله ثقات كلهم غير أبي عبد السلام هذا فهو مجهول ، لكنه لم يتفرد به بل توبع - كما يأتي - فالحديث صحيح .

الفصل الأول
وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي

اسمي أقصى ...سمتني أمي أقصى....عمري الآن لا يهم، و لكني أتذكر عندما كنت صغيرًا و سألتني معلمتي « ما اسمك ؟ »

حينها أجبتها بقوة يملؤها اعتزاز : أقصى ... اسمي أقصى . لا أعلم لماذا ؟ و لكن ضحك الأولاد من حولي، و قالوا وهم يتغامزون بينهم باستغراب: « أقصى ...!! و ماذا تعني أقصى ؟ ! » . في تلك اللحظة لم ألتفت لضحكاهم فلم أكن أرى داعيًا لذلك ربما لأني كنت بداخلي أعلم عن يقين أن أمي تحبني كثيرًا فلن تسميني أبدًا باسم يقلل من شأني أو يصغر منها ؛ لذلك لم أكترث لهم ، و قلت لمعلمتي بقوة أكبر متحديًا الجميع أن اسمي هو " أقصى يوسف عبد الله".

حينها ابتسمت لي المعلمة بفخر و قالت و هي تشير بيدها إلي: « مرحبًا بك يا أقصى بيننا ».

انتهى الدوام الدراسي بعد أن قضيته و أنا أدافع الأفكار التي غزت رأسي فكانت كثيرة و عميقة فعندما دق الجرس جمعت أشيائي و استقللت الحافلة عائدًا إلى منزلي... عائدًا إلى أمي و كان كل نفس بداخلي يتسابق في شوق يريد بشدة الوصول إليها.. يريد أن يسألها.. يريد أن يسمع إجابتها.

و عندما صرت هناك لا أعلم ماذا حدث و لكن انطفأت تلك الحماسة فجأة و حل محلها برود و سكون رهيب فعندما فتحت أمي لي باب المنزل وقفت أنظر إليها بحيرة لا أعلم من أين أبدأ، و ماذا يجب أن أقول و بدون

أن أنطق بكلمة وجدت نفسي أجري إليها و أرتمي بين أحضانها ، و ظللت متعلقًا بها وكأني خائف أن أتركها، أو ربما لأني كنت خائف أن تتـــركني هي.

و بعد صمت قصير سألتني أمي و هي تربت على ظهري بحنان محاولـــة أن تخفي فزعها عني :

« ما بك يا حبيبي ؟ هل حدث شــيء أزعجـــك في المدرســـة ؟ »
لم تعلق في ذهني كلمة سوي حبيبي ، و قلت متسائلًا بنبرة شك ... أمي هل تحبينني حقًا ؟

أطلقتني أمي من ذراعيها و نظرت إلي عيني و كان بداخل عينها دموع تجمدت، و قالت و كانت أناملها تلامس كل شيء في وجهي:

– «ماذا تقول ؟ و تسألني ..!! إنّكَ روحي يا أقصى ، روحـــي .. أيـــستطيع أحـــد أن يعـــيش بعيـــدًا عـــن روحـــه ؟! »
و بعدها ابتسمت لي ، و أخذتني بين أحضانها مرةً أخرى . فقلت لها وأنـــا متمسك بها وألعب بخصلات شعرها المتهدل:

– آسف، أعلم أنّكِ تحبينني، و لكن... لا أعلم للحظـــة شـــعرت بالخوف، شعرت بأنّكِ لا تحبينني .

قالت أمي و كأنها شعرت أن أمرًا ما قد أهمني: « ماذا حـــدث يـــا أقصى؟» .

قلت باندفاع ولد يريد أن يعرف...

لماذا سميتني أقصى ؟

و ماذا تعني أقصى ؟!

هزت رأسها و كأنها توقعت ما حدث معي، و بدون أن تقول شـــيئًا تركتني و ذهبت إلى حجرة نومها حيث غابت هناك لدقائق قليلة، و عندما عادت كانت تحمل بين يدها كتاب...

أثار ذلك فضولي فهل لهذا الكتاب أن يجيب على ما أبحث عنه ؟ هل له أن يسكت ذلك الناقوس الذي يرن بداخلي ؟

توقفت عن سؤال نفسي فقد جاءت أمي و جلست بجواري و بدون أن تقول شيئًا فتحت صفحات الكتاب، و عند صفحة ما توقفت و بعـــدها أعطت الكتاب لي، و قالت و هي تشير بعينها على الصورة الـــتي بتلـــك الصفحة:

- هذا هو..الأقصى !!

تركَت الكتاب بين يدي و ذهبَت..

جلستُ أطالع صورته و أنا منبهر بجمال هذا المسجد العتيق و أحجاره الصخرية الشريفة فكان بناءً عظيمًا يحيطه أربع مآذن لا تقل روعة عنه فقد نقشت أحجاره بمهارة بالغة فقدها الزمن ، و كان يجاوره مـــسجد آخـــر يتوسطه قبة صخرية ذات بريق ذهبي يلمع، ويطلق عليها (قبة الصخرة) و يقال أنها أعلى بقعة في المسجد الأقصى.

مضى الليل و أنا لا أفكر في شيء إلا في صور هذا المسجد العتيق فقد أخذني جماله، و لكن تملكني سؤال.. لماذا الأقصى بالتحديد ؟!

نعم إنه رائع.. بديع الصنع و الجمال هذا حقيقية لا أنكرها ، و لكن بالتأكيد يوجد مثله الكثير ، فما الشئ المميز به حتى سميت باسمه؟

شغلني السؤال فقررت عندما أستيقظ أن أذهب إلى أمـــي وأســـألها.. لذلك أغمضتُ عيني ثم استسلمت بعدها للنوم، و كان الأقصى آخر ما رأيت.

استيقظت في الصباح و ساعدتني أمي في ارتداء ملابسي ، و كنت كلما أريد أن أسألها السؤال الذي بتُّ ليلتي عليه كانت تذهب و تجهز لي الفطور فتذهب لتجلب شيئًا قد نسيته من المطبخ ، و كلما كنت أحاول أن أتحدث و أفتح فمي كانت تطلب مني أكمال فطوري ثم تناولي كوب الحليب وتبتسم لي و تقول :

- « اشرب يا أقصى حتى تكبر و تذهب للأقصى» .

اكتفيت لسنوات بجواب أمي هذا فأدركت هي بذكائها ما كنت أبحث عنه،فقد تركت معي هذا الكتاب و بقيت لمدة طويلة محتفظًا به معي فعندما كنت أفتحه لم أكن أنظر إلا على هذه الصورة.. صورة المسجد الأقصى .

كبرت و كلما أكبر كانت رغبتي لمعرفة إجابات أكثر تزداد بداخلي، وفي يوم و أنا أقلب صفحات الكتاب توقفت عند صفحته الأخيرة ووقعت عيني على آخر جملة و كانت مكتوبة في آخر سطر.

« إلى العروبة التي تدب في كل عربي أدعوكم إلى القدس فهي تستنجد بكم، إلى قبلة الدين أدعوكم، إلى حرب العزة التي تقتلع الظلم و تزهق روح صهيوني أناديكم، هيا بنا لنرفع علم فلسطين الحر عاليًا في سماء الكون و نحرر أرض الأنبياء و الأجداد ».

شعرت بالدماء المسالة في القدس قبل أن أراها فباتت رغبتي في معرفه حقيقة ما حدث و ما يحدث أمر ملح طغى على تفكيري فبدأت أبحث بداخل أي كتاب مجرد أن اسمه فيه فلسطين ، و عندما أدركت أن عقلي أصغر من أن يستوعب تلك الكلمات التي التصقت بجوار بعضها البعض معلنة عن جمل رأيتها صماء ... حينها قررت أن أتخلى عن الكتب و أذهب لمعلم التاريخ و أسأله .

فكان يومًا لا ينسى فعندما خرجت كلمة فلسطين من شفتي ظهر على وجه معلمي الاستغراب و سألني: ماذا تعني بفلسطين ؟؟

أجبته بنفس نبره الاستغراب : أعني فلسطين ... الأقصى !!

قال : ماذا عنهما ؟

سألته : ماذا حل بهما ؟

حينها أطبق معلمي شفتيه و أنزل النظارة ذات الزجاج السميك من عينيه و نظر لي نظرة حزينة ثم أشار لي بأن أتبعه ... وصلنا إلى مكتبة المدرسة و بداخل دولاب قبع في ركن بعيد أخرج لي دفترًا كبيرًا تكوم عليه أتربة مسحها معلمي بيده ثم جلس و جلست بجواره و عندما فتح الدفتر كشف عن قصاص ورق جرائد ،وهنا و لأول مره شعرت بالعجز فرأيت آلاف الصور..

صور عن أطفال موتى، و نساء تبكي، و منازل مهدّمة، وسلاح مرفوع أمام وجوه صامدة ليست بخائفة ، ووسط ذلك كله الأقصى هناك واقف شامخ شموخ الدهر ينتظر محرره فهو يعلم أنه كان مطمعًا عبر التاريخ، ولكنه يعلم أيضًا أنه مادام ينبض فيه قلب واحد سيعود حرًّا كما كان.

حينها فقط أدركت أن اسمي لم تسمه أمي لي هباءً ، ولكنه كان وراءه تاريخ ماضٍ، و أرادت هي أن أصنع أنا ذلك التاريخ القادم .. وبإصرار وحلم طفلٍ قلت في نفسي، انتظريني سأرتحل إليكِ يا قدس.

***

مضت السنوات و أنا أراقب ما يحدث من حصار و قتل وأَسْرٍ و كان ذلك يغذّي قلبي و عقلي لتحقيق حلمي، و عندما أنظر إلى العربِ تدمع عيناي على ما أراه عرب يبحثون عن حريتهم فنسوا أقصاهم.. نسوا جارهم التي تعيش في ظلام يحيط به دماء مواطنيها.

الآن..

أنا طالب في كلية الطب أنتظر نتيجة تخرجي و إذا سألني أحد لماذا اخترت الطب ؟ سأقول لأني أردت أن أعالج جروح فلسطين.. أردت أن أذهب إليها و بيدي دواؤها.

نجحت...

و مضت السنوات أتعلم أكثر و أستعد لليوم الذي سمتني أمي لأجله أقصي، و لكن قبل أن يأتي هذا اليوم كانت هناك قصص، قصص كثيرة وراءها قصص، حياة بداخل حياة، عالم يبحث بداخل عالم، وكان أول عالم أتعرف عليه كان أبي..

هل عرفت أبي ؟

لا ..

مع الأسف لا .. فلم أعرف من أبي فقد كنت صغيرًا عندما سمعت كلمة أبي، فسألت أمي من يكون أبي؟

قالت وهي تحتضن صورته بين يدها:« هذا هو والدك يا أقصي» .

فسألتها و قد اشتاقت نفسي إليه بالفعل« و لكن أين هو ؟ »

اضطربت عيناها و انحدرت منهما دمعة دون قصد منها، و قالت و هي تتطلع بعيدًا و كأنها تبحث عنه « :

– لقد ذهب هناك إلى فلسطين.. ذهب و لكنه لم يعد ففي يوم كان يهاتفني وفجأة انقطع صوته وسط صراخ و تفجير هائل ومن تلك اللحظة فقدته» .

كان أبي محررًا في جريدة كبرى حلم بأقصى حر فكانت القضية تكبر في أعماقه كل يوم و عندما حانت له الفرصة ، و استطاع الذهاب نظر إلى أمي و أنا بين أحضانها فكنت ابن عامين و قال لها :

« قد لا أعود يا ريهام فأخبري أقصى عني ، أخبريه عن فلسطين و عن الأقصى ، و قولي له هناك ستلتقي مع أبيك و سيتجمع الشمل من جديد».

هل تردد ؟

لا أعلم، و لكنه ضمنا إليه بقوة هكذا أخبرتني أمي..

فيومها بكت أمي بحرقة ..

بكت أمي كثيرًا، و لكنها لم تستطع أن توقفه، فلم تكن تملك غير أن تودعه فودعته بعين تعلم أنها قد لا تراه مرةً أخرى، ثم نظرت إلي و أنا بين أحضانها و قالت لي: « يا أقصى متى تكبر و تذهب إلي الأقصى ؟»

عمري الآن لا يهم ، و لكني مستعد .. أصبحت مستعدًا للذهاب تطلعت نحو السماء و كان صوت بداخلي يقول « انتظريني يا قدس ستتحرر أرضك قريبًا، ستعيشين مرة أخرى، و تتنفسين من جديد.. أعدك بذلك».

***

فشلت محاولاتي الكثيرة و لم يسمعني أحد، ووقفت الدموع العاجزة أمامي تحيطني من الجميع، و قالوا لي بلهجة غاضبة جادة:

« أمجنون أنت ... !! هل تريد أن تموت ؟ هل تريد أن تذهب هناك لمصير مجهول؟ ماذا تستطيع أن تصنع ؟ فهل تعالج جثة ميتة بالفعل ؟ »

كان الجميع ينظر إلي أبي طبيب ماهر و إنسان طيب، ولكن عندما أتحدث مع أحد عن حلمي يبتسم لي ابتسامة صفراء و لا أعلم ماذا يريد أن يقول بهذه الابتسامة ؟ و لكنه فقد يتمتم بكلمات لا أفهم معظمها فكأنه يهمس لنفسه، ثم يربت بيده علي ذراعي و يقول «ربنا يهديك و يبارك لك في والدتك» .

مضت السنوات و لم أيأس و أنا أحاول و أحاول، و لكن الجميع كان يقف أمامي إما معارضا أو مستهزئا؛ فلم يفهمني أو يصدقني أحد و كـان الشيء الوحيد الذي أسمعه هو الدعاء.

لا أستطيع أن أنكر أن هناك فئة قليلة منهم كانت عندما أكلمهم وأصف لهم شعوري كان حماسهم يفور و يعتريهم إحساس عظيم و رغبة صادقة للجهاد و التغيير، و لكنهم مثلي لا حول لهم و لا قـوة فالشيء الوحيد الذي كانوا يقدرون عليه هو الدعاء فكانوا يرفعون أياديهم عالية نحو السماء و يطلقون ألسنتهم بكلمات الرجاء و الالتجاء لمن له الحكم، ولكن لم يكن الدعاء وحده يكفي ، و لن يكفي أفلا يعلم الناس أن الله سننًا في كونه فإن أرادوا أن تتحرر القدس فلن يحتاج إلينا إنما سيقول لها كـن فيكون؛ ولكن ما نعيشه إنما هو من أنفسنا ومن تخاذلنا.

وفي يوم سمعت عن قوافل تضم جميع الجنسيات تذهب و تمد يد العون إلى غزة و أهل فلسطين ، سعيت كثيرًا لأتواصل مع أحدها حتى جاء اليوم الذي تلقيت فيه دعوة لمؤتمر طبي يعقد في إسطنبول و أثناء وجودي هناك وجدت طبيبًا تركيًا اسمه " توفيق " أخبرني عن قافلـة تتجهـز بالفعـل للذهاب.

كانت السعادة تغمرني فلأول مرة بعد سنوات طويلـة اسـتطعت أن أحجز لنفسي مكانًا متجهًا إلى غزة، متجهًا نحو أول طريق إلى حلمي.

و قبل أن أذهب التفت نحوها كانت واقفة عيونهـا مليئـة بالـدموع اقتربت منها و أمسكت يدها التي كانت ترتعش لأستشعر حنانها لأخر مرة ثم أخبرتها:

- « أمي سأذهب».

أخذت يدها المرتعشة تمسح على رأسي و جسدي قالت وهي تنظر إلي و دموعها حاجز يقف أمام عيونها:

- « ربنا يحفظك يا ولدي.. ربنا يحميك يا أقصى .»

ضمتني إليها بقوة، وكأنها أصبحت أنا ، أصبحت هذا الطفل الخائف الذي يخشى أن يفقد ما يحب، و بنبرة لم أعلم ملامحها قالت:

- لا تذهب ..

- أرجوك لا تذهب ..

بكيت بين أحضانها الدافئة ، و قلت لها:

- أنا أقصى يا أمي .. أنا هذا الولد الذي ربيته ليذهب للأقصى، ليقابل أباه هناك.. ليكون يدًا تمتد بالعون لكل من يطلبها.. (أنا ولد اسمه أقصى).. ألا تذكرين يا أمي.

قالت بأسى :

- أذكر.. نعم أذكر جيدًا، و لكن أنت الآن لم تعد ولدًا قد أصبحت رجلًا فتمنيت أن أراك في عرسك بجوارك زوجتك، تمنيت أن أحمل أولادك و أحكي لهم عن أبيك، و بنبرة أمل قالت: « تمنيت ... قد تمنيت أن أموت قبل أن يأتي يوم أراك فيه تلتفت و تذهب»

تناولت يدها وقبلتها بقوة، و وضعتها على صدري الذي كان يحترق لم يجد الكلام طريقه عبر فمي فواصلت الدموع تخرج من عيني فكانت هي من تعبر عني.

مسحت يدها دموعي ، و أمسكتني من ذراعي، و قالت باستسلام : « يا أقصى قد حان وقت ذهابك إلى الأقصى » .

ودعت أمي بعين مُلئت من ملامحها فقد حفظت بداخلي ابتسامتها العذبة وعيونها الزرقاء و شعرها الذي مزج بين لون الكبر و لون الشباب .. احتفظت بلمسة يدها الناعمة ، و حضنها الدافئ العميق .. ودعتها ثم أغلقت الباب ورائي ..

الباب الذي كنت دائمًا متلهفًا لتفتحه لي و تأخذني بين أحضانها.

باب منزلي ..

باب الأمان لي ..

أغلقته و ذهبت.

***

أبحرت القافلة سالكة طريقها إلى غزة وهى تحمل مساعدات ومواد غذائية وأدوية ، و كان على متنها ناشطون وسياسيون وبرلمانيون وشخصيات عامة من عشر دول مختلفة ، و بينهم أطفال و نساء و شيوخ و رجال ، و كان للكل هدف واحد .. وغاية واحدة .

كنت أرى الحماسة في العيون؛ فرغم التهديدات التى أعلنتها القوات الإسرائيلية من التصدي للقافلة و منعها من دخول غزة واعتقال من عليها ومصادرة ما تحمله ؛ إلا أن هذا زادنا جميعًا تماسكًا و إصرارًا لإنهاء ذلك الحصار الظالم الباغي على أهل غزة.

و كان بين الحلم أميال قليلة حيث كان الأطفال يلهون على ظهر الباخرة ، و أصوات و صيحات الطفولة البريئة تعلو و تنطلق في الأرجاء بين الجموع ، و إذا بصوت أعلى يطغى على أصواتهم فكانت الطائرات المروحية فوق رؤوسنا ، وتجمعت أربعة قوارب حربية بالإضافة إلى ستة عشر زورقًا كلٌ منهم يحمل ثمانية من رجال الكوماندوز البحرية.

و بحركات سريعة صادمة بدأت الطائرات تُنزل علينا عددًا لا حصر له من الجنود المدججين بالسلاح ، وأطلقوا علينا الرصاص الحي وقنابل صوتية وقنابل دخان غازية وأسلحة صوبوها فوق رؤوسنا سلطت علينا نوعًا من أشعة الليزر، وإضافةً إلى ذلك بدءوا يجرون عددًا من الناشطين الأتراك ويلقون بهم على الأرض ويضعون أحذيتهم فوق أعناقهم بوحشية ثم يصوبون الأجهزة نحو رؤوسهم ويقتلونهم بدم بارد أمام الجميع ؛ إلى أن

قتلوا أربعة عشر تركيًا وأصابوا عددًا آخر بعضهم بإصابات خطيرة أدت إلى استشهادهم ، حيث لم يتمكن أحدٌ منا إسعافهم بإمكانيات السفينة المحدودة.

أصبح ظهر السفينة بركة من الدماء لدرجة أن قوات الاحتلال كانوا يتعثرون عليها ويقعون فوق بعض من شدة وكثافة الدم فأخذوا ملابسنا ليضعوها على الأرض حتى يتمكنوا من الحركة على ظهر السفينة. ثم اقتحموا القاعات التي كانت تحتمي بها النساء وصوبوا الأسلحة فوق رؤوسهن، كما صوبوها على رجال الدين المسيحي والإسلامي دون مراعاة للزي الديني، وبعد ذلك كبلوا الجميع حتى العجائز والحوامل والمرضى في إهانة شديدة، وألقوا بهم على سطح السفينة منذ بروز خيوط الصبح إلي أن انتصفت الشمس في كبد السماء و رغم محاولاتنا للصمود إلا أن الجوع والعطش قتلنا.

عدت إلى بلادي و الدماء تحيطني من كل جانب، دمائى و دماء من ماتوا هناك. كان قلبي يترف و روحي دمرها الحزن..

عدت و كانت كل متعلقاتي سرقت..

عدت وأنا أشعر بأني وحيد ضعيف ...

سألت نفسي كيف تصنعين يا غزة ؟! و ماذا يفعل أهلك، و كيف يطيقون هذا الظلم ؟

جريت إلى منزلي أبحث عن حضن أمي لكي أرتمي فيه وأبكي.. طرقت الباب الذي ظل مغلقًا لا يفتح، و لكن فتح لي باب آخر و خرج منه عم " نبيل " في البداية نظر لي ووجه كانت تعلوه ابتسامة، ثم سيطرت عليه كآبة فجأة.

قال « أهلاً و سهلاً لقد رجعت يا ابني ».

اقترب مني و ضمني إليه برفق و حب ثم التفت بعينه بعيدًا، و في لحظة بدون أي مقدمات قال« البقاء لله ».

طار عقلي فماذا كان يعني ؟

لم أصدق لم أكن أحتمل لأصدق هذا؛ أغلقـــت أذني عـــن كلامـــه وتوجهت لباب منزلي و طرقته بقوة أكبر و كنت أطرق و أطرق و أنادي أمي وأقول لقد عدت يا أمي افتحي لي الباب، أنا هنا لقد عدت.. أمي.. أمي.. أمي.....!!!

كان عم نبيل يحاول أن يوقف يدي التي أوشكت أن تنكسر من الطرق على الباب، و قال بنبرة أيقظتني.. قال بنبرة استسلام .. « يا أقصى هذا قدر الله . »

شعرت بالوهن يدب في جسدي..

شيئًا.. فشيئًا..

حتى لم يعد جسدي يتحمل أكثر من ذلك، فسقطت علي الباب و أنا أبكي..

و أبكي ..

و أبكي ..

استسلمت للبكاء ، و غاب عني كل شيء .

كنت أذهب إلى عملي وأنا أشعر أني في عالم آخر؛ كنت أتعامل مـــع الناس وكأني لست موجودًا بينهم صحيح قد أفجعتهم تلك المجزرة الـــتي حدثت ، و لكن قبل أن يظهروا لي مشاعرهم الحزينة تبدأ كلمات الوعظ تظهر .

و يقولون لي:

– « ألم نقل لك، ألم ننصحك، قلنا لك إنه حلم يا أقصى و ها أنتم حتى من قبل أن تتمكن قدمكم من الوصول للبر قتلوهم، و كنت ستموت معهم.. فماذا كان سيحل بك إذا وصلت ؟ »

لم ألتفت إليهم فكنت غائبًا بروحي عنهم، و عقلي كان في مكان آخر.. يبحث، فكنت أفكر بشخص آخر و أحلم به. كان هذا الشخص هو أمي.

مضي وقت طويل لا أعرف مقداره قبل أن أستطيع أن أذهب إلى قبرها و أقف أمامه، كنت أشعر بأني خذلتها.

فكيف أنسى أنهم خونة لا أمان لهم ؟

كيف تركتهم يقتلوننا ، و لم أصنع شيئًا ؟

لماذا عدت ؟

لماذا ؟

لماذا لم أمت معهم هناك؟

جلست بجوارها و أمسكت حفنة من التراب قربتها نحو أنفي كنت أبحث فيها عن رائحة أمي.. قربتها من صدري ، و قلت و أنا أنظر إلى قبرها ، و كأني أراها « ارقدي بسلام يا أمي قد أديتِ رسالتك و لسوف أعود» .

عمري الآن لا يهم ..

فقدمى الآن طليقة على أرض فلسطين .. شعرت بشموخها وصلابتها.. و أقسمت أني لن أتركها إلا وهى حرة أو أسقى ترابها بدمائى.

بدأ مشواري و بدأت معه قصص و روايات إن أردت أن تبحث في بقاع الأرض فلن تجد مثيلها إلا هنا إلا على أرض فلسطين .

الفصل الثاني
وا مُعْتصِماهْ!

خرج توفيل بن ميخائيل ملك الروم إلى بلاد المسلمين في سنة ثلاث وعشرين و مائتين، و أوقع بأهل زبطرة و غيرها، و يقال قتل من بها من رجال و سبى الذرية و النساء، و أغار على أهل ملطية و غيرها من حصون المسلمين، و سبى المسلمات، و مثل بمن صار في يده من المسلمين و سمل أعينهم، و قطع أنوفهم و آذانهم ».

فبلغ الخبر المعتصم فاستعظمه ، و كبر لديه ، و بلغه أيضًا أن امرأة هاشمية صاحت و هي أسيرة في يد الروم

وا معتصماه

فأجابها و هو جالس على سريره :

لبيك لبيك

و نهض من ساعته ، و صاح في قصره

النفير النفير

فجهّز جيشًا ضخمًا أرسله على وجه السرعة لإنقاذ المسلمين، ثمّ خرج بنفسه على رأس جيش كبير وفتح عمورية، وهى من أعظم المدن البيزنطية، واستولى على ما بها من مغانم وأموال كثيرة جدًّا ".

كان الجو قارس البرودة و الظلام مخيم من كل جانب فقد انقطعت الكهرباء منذ أكثر من أربع ساعات فلم يكن لدينا سوى المصابيح الزيتية ، و في الخارج اجتمعنا أنا و محمد و إياد وعمر وغادة و أمل حول أغصان شجرة بالية ، جمعناها و نحن نرتعش من البرد ففد فقدنا الإحساس بأناملنا و بعد محاولات عدة استطعنا أن نشعل تلك الأغصان .

اليوم يكون قد مضى شهران على وجودنا في غزة ، جلست أتذكر وأنا أمسك كوب الشاي الساخن في يدي تلك اللحظات التي سبقت وصولي إلى هنا ، فبعد مظاهرات واحتجاجات استمرت لمدة خمسة أيام استطعنا أن نأخذ تصريحًا للعبور إلى الأراضي الفلسطينية ، ركبت الحافلة وكانت تضم وفودًا طبية جاءت من مصر و الأردن و اليونان والسودان وماليزيا وتركيا ، و بعدها اتجهنا جميعًا نحو معبر رفح ملبين النداء الفلسطيني ، فقد ازدادت الأوضاع سوءً و انتشر الجرحى و القتلى في أرجاء غزة بسبب القصف المستمر ، و عند وصول الحافلة على أبواب المعبر وجدت" محمدًا " و كان مصريًا مثلي ، وكان يجلس بجواري يخرج جواله ، و بدأ يجري اتصالاً بأسرته وكان في عينيه بريق لمعان الدموع إذ أخبر زوجته بأنه في طريقه إلى غزة وأنه يحسب نفسه منذ هذه اللحظة شهيدًا وطلب من أولاده ألا ينتظروا قدومه إلا إن شاء الله ، كان مشهدًا مؤثرًا جعلني أتذكر أمي حين ودعتها وأنا ذاهب و حين أخذتني بين أحضانها وهي تطلب مني البقاء ؛ فكم من الصعب أن يتخلى الإنسان عمن يحب و يتركهم ، و حينها تذكرت قول الله عز وجل ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ

يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ سورة النساء: ٧٥ .

وتحت سماء مظلمة أنارها نيران القصف المستمرة من الطائرات الإسرائيلية اتجهنا نحو الأراضي الفلسطينية و نحن نردد الشهادة.

نعم قد مر شهران ، و لكن مرّا بين الدماء و الموت وعلى الرغم من ذرف الدموع إلا إننا كنا نتمسك بالأمل ، فقد كانت سعادتنا تكبر لأننا كنا نشارك بكل ما نملك و بدون أن نفقد الإيمان أو نسعى للهرب بل كان حماسنا و رغبتنا في البقاء في زيادة يومًا بعد الآخر .

التفت نحو محمد و كان ينظر إلى صورة تحملها يده بكل عناية و حب ، و قد ظهرت على وجهه مشاعر الاشتياق وأخفى كل ذلك وراء دمعة متجمدة ظلت بين عينيه ، نظر إليّ بارتباك و كأنه خَجِل مِنْ أَن أعرف ما يشعر به و أخفى الصورة سريعًا بين ملابسه .

مددت يدي إليه و ابتسمت له ، فبنظرة استسلام أخرجها لي و ناولني إياها، كانت لزوجته و أولاده ، كانت البهجة و السعادة عنوانها و كأنها تنبض بالحياة ، و علي الرغم من أنني كنت أشعر وأفهم جيدًا ما يعانيه محمد فقد اختبرته من قبل ؛ إلا أني سيطرت علي ابتسامة لا أعلم سببها ؟ و لكني وجدت نفسي أخفيها بداخلي ؛ ربما هذا لأنني لم أعد وحيدًا فقد عشت عمري الماضي أعبر عن حلم مستحيل و ها أنا الآن أعيشه و أجد من يشاركني فيه ، ووجدت من يدافع عن هذا الحلم حتى لو كان الثمن التخلي عمن يحب ، و لكني أعلم جيدًا أن ما يشعر به محمد ليس سهلاً ، و كنت أعلم أني مهما حاولت أن أواسيه بكلامي فلن يزيده ذلك إلا ألمًا ؛ لذلك أعدت له الصورة بصمت و كنت بداخلي أدعو له و أقول «إن شاء الله ستعود و تلقاهم مرة أخرى » .

كان يومي مقسمًا بين حجرة العمليات و متابعة المرضى واجهت أثناء ذلك حالات مختلفة و صعبة ، و كان أكثر ما يؤلمني عندما أجد أمامي طفلة شبه ميتة على سرير العمليات ، أحشائها خرجت من بطنها الصغير وجسمها مليء بالجروح و الكدمات .

في تلك الفترة أعلن عن وفاة الكثير من الشباب و الأطفال و النساء والشيوخ ، فكنت أنظر إلى الساعة حيث توقفت قلوبهم عن النبض وغادرت أرواحهم الحياة ، و بكل أسف أخرج إلى ذويهم و أنظر إلى عيوهم المضطربة المنتظرة الراجية من الله أن يحفظ أرواح أولادهم ، وأقول لهم «البقاء لله » فتقابلني إحداهن بصرخة قوية و لطمة على وجهها الحزين ، و تقابلني الأخرى بزغرودة باكية تنعي بها روح الشهيد و تقول « إنه لم يمت فهو عند الله حي يرزق » .

كانت أوقاتًا صعبة ورغم الجهد الذي بذلته إلا أني و من معي من المتطوعين كنا نشعر أننا نريد أن نفعل أكثر من ذلك ، و لكن لم يكن بيدنا شيء لنفعله ، وفي يوم ما بعد أن قصت لنا أمل و هي فتاة سورية الأصل و كانت متخصصة في الطب النفسي قصة الطفلة " مها " حينها اكتشفنا أننا نستطيع أن نفعل أكثر .

فتقول أمل :

« بالأمس كنت أزور العائلات التي فقدت أحد أفرادها أو هدمت منازلها فكنت أجلس بجوارهم أستمع إلى قصصهم وحكاياهم التي لا ترجع إلى الأمس بل جذورها أعمق بكثير فكان استماعي إليهم يخفف من الآلام التي تراكمت و عجزت الأيام عن مداواها. فكنت أشعر أني باستماعي إليهم و مشاركتي أحزاهم أن العالم كله يستمع إليهم و يشاركهم ، و تغير ذلك عندما وصلت إلى تلك الطفلة ..

مها...

اسمها كان مها ، وقد خصت نفسها بركن هادئ بعيد وكأنها أرادت أن تختبئ عن العالم بأسره ... فهي في النهاية لم تعد تملك شيئًا سوى نفسها وتلك الهرة الصغيرة التي تحمل بين أيديها و تحتضنها بقوة .

كانت دموعها تتساقط منها في صمت فاقتربت منها ومددت يدي لأضمها إليّ ، ولكن بحركة لا إرادية منها وجدتها تنفر و تختبئ بعيدًا عني وكأنها ترفض حضني لها . »

و في تلك اللحظة قال رجل كان يقف يراقبنا : « مسكينة تلك الفتاة.»

سألته و أنا أبحث عن السبب:« لماذا .. فماذا حدث لها ؟!»

فقال بأسى يصف ما حدث:

- « قد قصفت القوات الإسرائيلية منزلهم و كانت عائلتها بداخله وعندما عادت الصغيرة من بيت خالتها وجدت جثث أبيها و أمها وأخواتها يخرجها الناس من تحت أنقاض البيت المتهدم . »

و أكثر ما أوجعني وصف الرجل للفتاة لي عندما صارت تتحرك وسط الحطام بشكل جنوني وهي تقول غير مصدقة ما حدث:

« هذه كانت حجرة أبي و أمي ، و هنا كانت الصالة كنا نشاهد فيها أفلام الكرتون ، و هناك كانت حجرتي أنا و إخوتي كانت ملك تنام بجواري و قيس وعبد الله ينامون على السرير الآخر »

و فجأة توقفت الصغيرة و نظرت عينها التي تسابقت الدموع منها للخروج إلى عائلتها القتيلة، و قالت بأسى:

- « لقد صرت يتيمة » .

ووسط الموت و الأنقاض جرى كائن صغير في اتجاه الفتاة و كانت تلك القطة البيضاء التي اختفى لونها بين لون الدماء و لون التراب، و هناك

التقطتها الفتاة و احتضنتها بقوة وكأنها بذلك كانت تحتضن عائلتها، فكانت هي آخر شيء تبقى منها.

أردفت أمل بحزن :

« عندما علمت بقصة الفتاة فهمت سبب نفورها مني فما تمر به الآن مشاعر معقدة من الصعب وصفها فلقد كانت صدمتها قوية ».

ذهبتُ إليها مره ثانية و كان بيدي كوب ماء فأعطيته لها فأخذته مني ، وعلى الفور ضمت يديها الصغيرة ووضعت بعضًا منه ثم قربته من فم القطة التي شربته بتلهف ثم التفتت إليّ و قالت :

- « تلك هي قطتي.. إنها كل عائلتي » و ابتسمت بسمة حزينة.

كان هدفنا أن نعيد تلك البسمة الغائبة عن تلك الوجوه الحزينة حتى لو لدقائق ، ففكرت أمل أن تخصص ساعة في اليوم و يشارك فيها من يستطيع منا ، و كانت الفكرة أن نجمع الأطفال في حلقات من السمر و اللعب ونهديهم من الألعاب ما يقع في أيدينا فنعطيها لهم و نلعب معهم ، و لما جاء ذلك بأثره الجيد قررنا أن نشارك أكثر فاقترح إياد و هو طبيب عظام أردني الجنسية و كان يتميز بصوت عذب عندما يقرأ القرآن أن يبدأ حلقات تحفيظ القرآن الكريم و ساعده ذلك أن يجذب إليه عددًا كبيرًا من الأطفال .

فكان يجلس في الوسط و يبدأ الترتيل وكلما تعمق في التلاوة كان صوته يعلو أكثر فأكثر فسريعًا ما كان الجميع يلتفتون إليه و ينصتون إليه ، مما أدخل على قلوبهم الأمان و السكينة و ذكرهم بأن الله معهم فقد أرسلنا إليهم عونًا و سندًا .

أما أنا فقررت أن أرسم ..

أرسم فلسطين الحرة فكنت أرسم كيف ستكون الحياة هنا حيث الملاعب و المدارس و الجامعات و الحدائق ووسط ذلك كله الأقصى هناك

يزين بنوره الحياة فيتوافد العرب إليه من كل فج عميق و يبكون و يبكون و يبكون ، و يرفعون أيديهم إلى الله شاكرين يقولون « الحمد لله الـــذي رزقنا الصلاة فيه .. الحمد لله الذي أمد في عمرنا حتى شهدنا هذا اليوم ».

هكذا وضعت حلمي على الورق ولونته بألوان اليقين! فكان بـــسمة للأطفال و أملًا للكبار؛ فكانوا يجلسون بجواري وعندما كان ينهي أحدهم رسمته يجذبني بيده الصغيرة من ذراعي و يقول « انظر » كنت أفرح فقـــد بدءوا يرسمون مثلي ، و ما أسعدني أكثر أني كنت بينهم .. موجود وسط أحلامهم فأنا ذاك الرجل الواقف بينهم مشبك يـــدي بأيـــدهم الناعمـــة الصغيرة .

لا أعلم لماذا ؟ ولكني كنت دائمًا ألعب بهذا الخاتم خاتم أمي فقد تركته لي قبل وفاتها مع خالي و عندما عدت أعطاه لي و قال:« أرى أنّ والدتك تمنت أن تراك عريسًا فهل تحقق أمنيتها ! »

كان النسب والمال والوظيفة يجعلني مرشحًا جيدًا لأفضل العـــائلات ، وقد حاول خالي في الفترة التي عدت فيها أن يلح علي بالزواج و يذكرني برغبة أمي الحبيبة ، و لكني مرة كنت أقول له حقيقة ما بنفسي مـــن أن الزواج آخر ما أفكر به ، و مرة أخرى كنت أصبره بكلامي و أقول بأني لم أجد بعد الفتاة التي يدق لها قلبي فكان هذا الرد يلهيه عني و يـــشعره أني أفكر في الزواج فيطمئن .

حتى جئت إلى هنا فعند سفري أصر خالي أن آخـــذ معـــي الخـــاتم ، وعندما احتضني و ضمني إليه و قال لي بنبرة أبوة :« لقد وصتني أمك بك خيرًا يا أقصى و إنك كمثل الأقصى تشتاق إليك الروح ، و يترف القلب لفراقك فعدني إن عدت أو بقيت هناك أن تتزوج .»

وعدته و ما كان لوعدي الأثر الأكبر في سعيي لذلك ، و لكن نفسي اشتاقت فكأني مع جلوسي وسط بسمات و ضحكات الأبرياء اشتقت إلى

أن يكون لي بينهم واحد من صلبي يحمل عني و يشد من أزري و أفتخر بين نفسي أنه ابني ، و كانت يدي تضطرب أكثر ، و يدق قلبي فأسمع نبضاته عندما أراها ، و لكني كنت أعاتب نفسي و أنهرها ، و أقول لقلبي توقف فما جئت لهذا .

واشتاقت نفسي شوقًا آخر ، وحلمت بأمر آخر و كان ذلك ببلـــدي وأهلي و أصدقائي اشتقت لكل شيء فلأول مرة اكتشف أني لم أنظر عن كثب لنيل مصر ، و لم أهتم بطعم مائه الذي غاب عن فمـــي الـــذي لا يتذوق الآن سوى ماء غزة الذي اختفى طعمه وراء ملوحته ، لم أعد أتذكر شوارعها التي لم أحفظها جيدًا فقد كان يشغلني الأقصى فكان الأهم عندي و مازال الأهم عندي ، و لكن لا أعلم فمصر هي وطني فعندما أدخل إلى صفحتي على الفيس بوك أجد جميع زملائي يكتبون لي تغريدات الـــشوق والحب و يدعون لي بالأمان و العودة سريعًا سالمًا فيقولون « لقد اشـــتقنا إليك يا أقصى » .

وعندما أكتب و أصف الوضع هنا أجد من الكلمات الثقيلة القاســـية عن استحالة تحقيق الحلم أكثر بكثير من الكلمات المؤيدة الرافعة من عزمي الذي بدأ يضعف.. فقد تعبت .

أعترف ..

أعترف أني تعبت، و خارت قواي، و بدأ يدب في قلبي اليأس، والسبب كان قصة لرجل مصري اسمه " مصطفى " أرسلها لي أحد أصـــدقائي ردًا علي.. فحكى لي قصته ..

فهي تبدأ هكذا :

قالوا لي ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الحجرات)

فأمسكت سلاحي لأنهم قالوا لي : « إن الله أمرنا بهذا و قد بغت العراق على الكويت ، فركبت الطائرات الحربية لأنهم قالوا لي أيضًا عن اتفاقية الدفاع المشترك وحق إخواننا العرب ، و دور مصر الإقليمي والدولي »

فأعطوني السلاح الجديد الحديث ، و قالوا : « انهض على بركة الله »، فكانت بركة و نور من الله ، و عندما انتهت الحرب و حررت الكويت ، و عدت إلى بلادي استقبلني الجميع من الرئيس إلى أصغر مسئول وكرمت من الجميع فكنت في عيونهم بطلًا فكنت أحكي عن دور الجيش المصري في نصرة الإخوة العرب وردع المعتدي عليهم بين قنوات الإذاعة وأحاديث في الصحف و المجلات.

ساعدتني المكافأة التي حصلت عليها على أن أتزوج فكونت أسرة سعيدة كانت فخورة بي مضت الأيام و الأعوام ، و في يوم إذا أنا أفتح التلفاز أجد أمامي صورًا و مشاهد أطفال قتلى و دماء و صراخ و دمار حلّ بالمدينة المحاصرة، فكانوا أهل غزة تقصفهم القوات الباغية من كل جانب بدون رحمة قلت في نفسي (باغية) ، فتذكرت قول الله تعالى وقلت لنفسي « سأسمع قريبًا نداء من الجيش المصري للقتال » ، و لكن مضت الأيام و القتل يزداد كل يوم أكثر و لا يحدث شيء ، فلم يتحرك أحد و لم أجد سوى الأغاني التي أُذيعت في التلفاز التي كانت تعرض صور الموت الظالم الذي يتعرض له الشعب الفلسطيني الأعزل فكانت تثير نفسي للقتال أكثر و تحرق قلبي الذي عجز أن يتحمل هذا الظلم ، و ضميري الذي بات يصرخ لماذا ؟ لماذا ؟ أين ذهب نص الآية الكريمة التي رددت على مسامعي في حرب الكويت حتى أني حفظتها عن ظهر قلب و كانت هي رايتي و مناري عندما رفعت سلاحي في وجه الظلم ، أين ذهب الحق في ردع المعتدي ونصرة المظلوم؟!

أين هو دور مصر ؟!

لم ألتفت لأحد وما يقوله البعض عن تواطؤ البعض في هذا الحصار وتلك المذبحة، فأمسكت سلاحي وودعت عائلتي ، و أنا أودعهم قلت لهم الكويت ليس أعز أو أغلى من غزة، و اليهود ليسوا أحسن من العراقيين، سأذهب لأقضي على الظلم حتى لو متُّ، و إن عدت سأكون مصدر فخر لكم.

عبر الطرق الصحراوية والممرات الرملية و الدروب الخفية التي اعتدت عليها في الجيش استطعت أن أدخل غزة و التحقت بالقوات المجاهدة هناك استقبلت بالترحاب و لكنهم ألقوا علي كلمات اللوم من تخاذل مبارك و رجاله عن نصرة جارهم غزة كنت أقول لهم أنا هنا قد جئتكم و لن أتخلى عنكم حتى يقضي الله قضاءه ، وفي القتال مع اليهود لم أرَ سوى طائرات تقذف الحمم على الأبرياء ثم تمضي لا خطة و لا هدف استراتيجي ولا تكتيك سوى قتل أكبر عدد من المسلمين وإبادتهم على الآخر .

قضي الله قضاءه و كتب لي أن أعيش، و لكن قد نالت مني قذائف العدو وعندما استيقظت في المستشفى وجدت نفسي فقدت نور عيني وطارت إحدى أذنيّ و قطعت يدي، قلت لنفسي قد حان وقت العودة بفخر إلى بلادي.

لا أعلم لماذا ؟ و لكن حذرني الناس هناك في غزة من ذلك و عواقبه، ولكن عقلي رفض مجرد التفكير في الأمر فأنا بطل حاربت عدو الله.

وفي ليلة مظلمة طلبت من أحد السائقين بالمستشفى أن يوصلني إلى معبر رفح و لكن قال لي أن المعبر مغلق و لكني لم أهتم فطمأنت الرجل أن المصريين سيفتحون لي الباب فأنا بطل قومي في مصر قد أهداني الرئيس بنفسه وسام شرف .

ركبت و أنا مليء بأحلام تقدير من الجميع و جلست أتخيل الصحافة والتلفاز و أنا أحكي لهم جهادي مع أهل غزة و معاناتهم و صمودهم..

حلمت أن قمب فيهم نخوة العروبة ، و يسيروا مثلي نحو غزة .. نحو الجهاد ، و قررت أنه بمجرد أن أعود إن شاء الله سوف أشتري بذلة مناسبة لمقابلة المسئولين ، و ربما الرئيس نفسه و أحكي له.. فيجب أن تتحسن صـــورة مصر، سأرفض مقابلة قناة الجزيرة بالطبع . لأنها تشوه سمعة مصر دائمًا .

وصلت بأحلامي، و فعلًا وجدت المعبر مغلقًا وقفت أريـــد أن أعـــبر لحدود مصر قال لي الرجل « إلي أين تعتقد أنت ذاهب ؟ »

قلت أنا مصري، وأريد أن أعبر لمصر.

قال لي : « المعبر مغلق و لا يفتح ! »

نظرت له بابتسامة الأعمى، و قلت: اذهب أخبر أحد الضباط المصريين عني للضرورة.

قال لي الرجل الذي صاحبني « ماذا تفعـــل ؟ ســيقتلنا المــصريون » ضحكت على كلامه، و قلت له لا تخف.

جاء إليّ الضابط فأخبرته أني مقاتل مصري قديم وحائز على وسام من الرئيس و قد ذهبت لقتال اليهود في غزة، وعندما أصبت قررت الرجوع لمصر.. الرجوع إلي وطني .

غاب الضابط خمس دقائق لا غير ثم حضر هو ومجموعة من العسكر ، وأخذني إلى الجانب المصري من المعبر كنت مبتـــسمًا وأشـــعر بـــالفخر ، وجلست أتخيل أن الجميع ينظرون إلي بعظمة زائدة وإكبار جليل وكـــان شعوري هذا يطغى علي فكنت أحيي من لا أراهم بعيني و أتمتم بكلمـــات الشكر لهم على مساعدهم لي ، ثم دخلت مكتبًا صغيرًا أخذت فيه بياناتي الكاملة ، وتاريخ عبوري وتاريخ عودتي . بعد قليل جاءت طائرة خاصـــة تقلني إلى القاهرة وحين نزلت من الطائرة توقعت أن أسمع الهتاف والأناشيد الوطنية، وتصورت لبرهة أن التلفزيون يبث هذه اللحظة الآن فجلـــست

أرتب الكلمات في عقلي. فماذا يجب أن أقول لأصف الوضـــع هنـــاك؟! وذكرت نفسي بأن يجب أن تكون الكلمات ملهبة مؤثرة.

جاء إليّ أحدهم و قال « امشِ مع الباشا يا مــصطفى » تخيلـــت أني سأقابل أحد كبار المسئولين ، و فجأة سمعت صوتًا يقول لي « مد أيدك يا ابني » فكرت أني قد وصلت ، و بينما أنا أمد يدي لأصــافح المــسئول الكبير إذا بالواقع يصدمني فكان هو من يتحدث الآن .. هو من يتكلم ؛ فيدي الممدودة التي اعتقدت إنها ستقابل بالترحيب و السلام قد وضـــعت في الحديد ، و قبل أن أستوعب ما يحدث تم قذفي في شنطة سيارة قـــذرة أخذت تسابق الأرض مسرعة نحو مقر مباحث أمن الدولة بوسط القاهرة .

ووسط ذكريات عن خطب هتفت في يوم ما لنـــصرة المظلـــوم و رد الظالم، و استشهادات من كتاب الله الذي أنزله بالحق وقفت عاريًا ..

مصدومًا ..

باكيًا..

من يدي السليمة معلقًا ..

يدي التي لم تقطع وهي تجاهد ، بكيت ، و أجهشت بالبكاء ليس لخوفي منهم ، ولكن لسذاجتي يومًا ما .

وجدت نفسي الذي تشبه " مصطفى " تبكي، و تملكـــني الإحبـــاط، وعلق في عقلي سؤال واحد صار يتردد علي، كيف يكون هذا هو جـــزاء من يحلم بالحق و يحارب الظلم ؟

كيف يكون هذا هو مصير من يريد أن يرفع قول الحق عاليًا ؟

أغلقت حاسبي الإلكتروني ..

و أغمضت عيني و أنا أفكر ، ولكن كان هناك العديد من الأشياء أفكر بها وكأنه شريط طويل يدور في رأسي ، فتلك هي حياتي كلها منذ ولدت حتى الآن

أمي، و أبي، و اسمي..

أمي التي علمتني كل شيء أتمسك به حتى الآن، أمي التي أعطتني الكتاب لتعرفني بمعنى الأقصى، و كانت تشجعني بكلامها وتردد على أذني قولها « يا أقصى متى تكبر وتذهب إلى الأقصى ».

و فكرت بأبي .. أبي الذي ضحّى بكل ما يحب.. ضحّى بنا و تركنا وذهب، وكيف فقد هناك في ظروف غامضة و لم يعد إلى الآن؟ و يعلم الله وحده هل مات أم أنه مازال حيًّا يجاهد ؟؟

وماذا عن اسمي ؟ اسمي الذي سُميته باسم المسجد الأقصى مسجد رسول الله ، أتذكر عندما وصل الرسول هناك يوم الإسراء و المعراج قال له جبريل تقدم يا محمد فصلى إمامًا بالأنبياء ، و من هناك صعد إلى ربه ، صعد إلى السموات السبع ..ألا يكفي هذا يا أقصى ! لماذا هذا التردد ؟

تركت السؤال من غير إجابة حاولت ألا أفكر فكنت أمضي وقتًا أكبر في العمل و أخذ مناوبات أكثر حتى لا أترك عقلي يفكر، مضى الكثير من الوقت، جاعلاً الأيام تأخذني معها بدون حلم.. بدون هدف ، و لكني كنت عندما أرى الدماء تنزف من أجساد البشر تصرخ تبحث عن فرصة للحياة أجد عزمي ونفسي الثائرة تصرخ بكل ما أملك لمواجهة هذا الظلم ، و عندما تهدأ الدماء المشتعلة بداخلي و أرى الوجه الآخر من العالم حيث الحياة التي يطلبها ، و يسعى إليها الجميع، وأجد تخاذل الجميع و كم أنا ومن معي قلة قليلة و ضعفاء، فلا أفعل شيئًا سوى الهرب من التفكير كما كنت سابقًا .

حتى جاء يوما الاختيار.. اليوم الذي أرى فيه حلمي يتحقق، حلمي القديم، و كان أيضًا يومًا يحطم حلمًا و رغبة جديد بداخلي بدأت تتحرك، فكان من الصعب علي أن اختار. فقد أخبرني مدير مستشفى القطاع كما أخبر باقي الأطباء بفرصة الإقامة في غزة ، و العمل الدائم هنا و ذلك لنقص الكوادر الطبية لديهم و احتياجهم لأطباء متخصصين لمواجهة ما تمر به غزة من ظروف ، وقال خاطبًا فينا « أنه يعلم إنها تضحية كبيرة منا ، ولكنها لغزة ، و لشعبها ، و لن ننسى ذلك لكم » .

منّا من قرر البقاء و منّا من قرر الرحيل ، فرحل " محمد " إلى مصر و " أمل " عادت إلى سوريا و رحل معهم العديد من قدموا معنا في الحافلة بعد أن قاموا بمساهمات جليلة لن ينساها أحد من أهل عزة ، و لم يبقَ سوى "إياد" و "عمر" و "غادة " و بعض من الإخوة العرب .

أما أنا فاستطعت أن أحزم أمري، و لكن لم تكن المبادئ فقط هي السبب الوحيد فقد ساعدني في ذلك عمر، ربما كانت حكايته..

كلامه..

شخصيته ...

هم السبب في تغيير محور تفكري، فقد كان ذلك بمثابة جرس أيقظني من غفلة العيش لكلمة أنا.

عمر لم يكن هذا اسمه الحقيقي ... فقد كان يدعى " ستيفن " انتقل من أمريكا حيث ولد هناك وترعرع مع عائلته ، و حين وجد نور الله وهداه قرر السفر إلى مصر ليتعلم اللغة العربية و علوم الدين في الأزهر ، سافر وكان عمره ٣٧ سنه حيث كان يمتحن الطب و قد كان يتميز بسمعة طيبة فاشتهر بإتقانه لما يفعل ، و لكنه قرر أن يترك سبيل الشهرة و المال وفضل أن ينفع بعلمه الفقراء ضاربًا بالشهرة و المال عرض الحائط لذلك

كان يقسّم وقته بين طلب العلم و معالجة الناس ، وحين حدث القصف على غزة شعر كما شعرنا جميعًا ..

كان يجلس و يستمع للشيوخ الذين يقذفون كلمات الجهاد في نفسه ونفس كل مؤمن فيذكرون الجميع بالقضية المنسية.

حينها ذهب عمر الذي قرأ عن سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – و غزواته ، و أصحابه الذين قتلوا ليرفعوا اسم الله عاليًا ، ذهب وقد اشتاقت روحه لريح الجنة فوقف بين يدي الشيخ ، و قال له بحماس « إذا ذهبت إلى غزة و حاربت الإسرائيليين هناك أكون جاهدت في سبيل الله » ، رد عليه بقوة « نعم و إن مت تكن شهيدًا في سبيل الله »

فتبسم ضاحكًا، و قال « إنه و الله الفوز العظيم » ثم توقف، و سأل متعجبًا بعد أن أدرك الجائزة « لماذا إذن لا ينادون للجهاد كما كان ينادى ؟!! » أليس هو الحق .. »

أليست الشهادة منزلة يسعى إليها الجميع ؟

فلماذا لا تهب مصر و العالم العربي بأسره لنصرة الأقصى الذي يوشك على الضياع ؟ ألسنا كثرة فالملايين من الحجاج تتوافد إلى الكعبة.. قد رأيتهم العام الماضي في الحج ، فماذا يقارن هذا بعدد اليهود القليل مقارنة بنا نحن المسلمين ؟!

صمت الشيخ، و خفض عينه في خجل، و تحول بنظره إلى الأرض، كان صمته أبلغ إجابة، و تذكر عمر كلمات صديقه حين قال له متعجبًا:

« رغم وحشية ما حدث إلا أن العجيب أنهم كانوا أربعة.. أربعة جنود فقط هم من كانوا يقودون عشرة آلاف يهودي إلى المحرقة؛ فكانوا يمشون معهم في خطوط طويلة متجهين إلي هلاكهم.. كانوا يمشون معهم باستسلام دون أي مقاومة تذكر»

سأله « هل تعرف لماذا ؟ »

أجابه عمر متلهفًا : لا .. لماذا ؟

و بنبرة أدركت الحقيقة قال: « لأن اليهود رغم عددهم الكبير كانوا خائفين.. جبناء ، فلم يفكر أحد منهم أن يضحي بنفسه من أجل أن يعيش غيره من إخوانه ، لم يفكر أحد منهم أن يهجم على أحد الضباط لينجو الباقون ، فكان كل واحد منهم يفكر في نفسه مع أنهم كانوا كثرة ويستطيعون أن يتغلبوا عليهم ، و لكن كلمة أنا غلبت الكثرة» .

و الآن و قد انقلبت الموازين و الأدوار؛ فالعرب الآن تقودهم أيدي الصهاينة و هم مستسلمون لها ليس لقلة منهم أو ضعف، إنما لخوف على ما بين أيديهم فأصبحت كلمة أنا، و مصلحة دولتي، و العلاقات السياسية، و الكرسي، و المنصب.. هم من يتحدثون .

جاء كلامه مثل ريح زلزلتني ، و قد استحييت من نفسي .فكيف أكون مثلهم ؟ كيف أنتقدهم ؟ و أفكر كما يفكرون ، و أفعل ما يفعلون ؟

فكأن الله قد بعث لي عمر حتى يرفع من روحي المعنوية و يجعلني أفيق من دوامة كلمة أنا، و لذلك و بدون تردد جددت العهد الذي قطعته عندما لامست قدمي أرض غزة، و قررت البقاء، و حتى أشجع نفسي سميتها " جنة غزة ".

و تمنيت و دعوت أن يبعث الله للشعوب العربية من يجعلهم يفيقون أيضًا من هذه الدوامة، و رجوت الله ألا تكون نكبة أو احتلالًا ، فإن لم تحلم ستكون بالتأكيد جزءًا من حلم غيرك.

***

الفصل الثالث
جَنَةُ غَزْة

الوقت الآن لا يهم لكن استطاع الفلسطينيون أن يثبتوا لي و للعالم أهم يستطيعون أن يحيوا من جديد فرغم الدمار و الموت و القتل وقفوا بكل عزم وقوة و إصرار و قام منهم من استطاع أن يعيد بناء مترله المتهدم، وقال البعض « و الله إن هدموه مائة مرة سنعيد بناءه في كل مرة ».

قد تغلغلت حياتي بينهم و صرت واحدًا منهم أشاركهم في أحلامهم.. فرحهم .. آلامهم فأصبحت جزءا من عائلتهم الكبيرة، فدائمًا كانت دعواهم لي مستمرة في مناسبات عدة ، و كان من إحدى الدعوات التي قبلت دعوة زفاف شخص يدعى سعد يومها وصلت إلي مترله و كانت الأجواء مليئة بالفرح و المرح و السعادة، و لكن كان هناك شيء آخر غريب مسيطر على أجواء الزفاف فعلى غير العادة كان المدعوون يطلقون على عرسه اسمًا غريبًا (زواج مهربين).

سألت أحدهم عن السبب وراء هذه التسمية الغريبة قال لي : « إن سعد وهو أحد ملاك الأنفاق عندما أراد الزواج ، كان يرغب أن يكون ضخمًا وكبيرًا فطلب من شريكه المصري أن يرسل له عبر الأنفاق كميات اللحوم اللازمة لإعداد وليمته ،وبالإضافة إلى المشروبات الغازية ، و غيرها من لوازم الفرح ، ليحظى بفرحة الزفاف و يشاركها مع من حوله » ، ولذلك أطلقوا على عرسه هذا الاسم .

كانت الأنفاق بين غزة و مصر هي الشريان الذي يمد الحياة بعد الحصار، بالطبع كانت تحتاج وقتًا و مجهودًا و لكن دائمًا ما تجد الحياة طريقها بين الصخور. فاستطاعوا أن يهربوا منها احتياجاهم من طعام وشراب و غاز حتى وصلت إلى هريب حيوانات ...

و لكن لا أعني مواشي بل حيوانات مفترسة و التي يكون مكانها عاده في أقفاص حديد وسط الجمهور لكي ترسم الابتسامة علي وجوه أهالي غزة ففي حادثة لطيفة أثناء قيامهم بتهريب أسد استيقظ داخل النفق، و كان ذكرًا و حجمه كبير خاف الرجل و فكر أن يطلق عليه الرصاص ، و لكن كان أحدهم قد احتاط متوقعًا الأسوأ، إذ كانت في جعبته حقنة مخدر احتياطية حقن الأسد بها فعاد إلى سباته العميق .

و لم يقتصر دور الأنفاق عند ذلك فعندما تأتي الأعياد لابد من احتفال آخر فاستطاع المهربون أن يعيدوا بهجة العيد بتهريبهم الخراف حيث أن الحصار منع المواشي من الوصول إلى قطاع غزة، ما تسبب في ارتفاع أسعارها بصورة كبيرة، وزيادة الطلب عليها و عند نجاحهم في تهريب الخراف تطلعوا أن يوسعوا الأنفاق أكثر ليتمكنوا من تهريب أعداد أكبر من الماشية، وربما عجول أو أبقار.

فلم تكن العلاقات بين المهربين علاقات تجارية فقط، إنما كان الحب والإخوة هي عنوانها، وكيف لا تكون ؟ و نحن أخوة !

قرر عدد منا أن يذهب لزيارة سعد في مخيم الشاطئ حيث كان منزله، لتهنئته بزواجه ، وصلنا إلى المخيم و كان رغم بساطته و تقارب المنازل من بعضها إلا أنك تجد هناك دفء العائلة و روح الوحدة ، و أجمل شيء يلمس قلبك هو منظر البحر و الشاطئ حيث الصيادون هناك بين الشباك أيدهم تلعب فتصلح الشباك المتقطعة و توصلها معا لتكون شبكًا واحدًا متماسكًا ، و بعدها يتجمع الطاقم و هم يحملون الصناديق الفارغة تاركين رزقهم على مدبر الرزق . فيحلون الحبل الذي يربط السفينة ، و ينطلقون. فبين الأنغام ينتظرون ، فينشد أحدهم قصته عبر أبيات من كلمات منتظمة السجع تحمل منطقًا شعبيًا جميلًا فيستمع الآخرون لتلك الدندنة التي تهيج مشاعرهم مرة ، و تصبرهم مرة أخرى ، و عندما تمر بهم دورية بحرية تمنعهم من الاقتراب أكثر إلى العمق ، تثور النيران الخامدة في القلوب فيقع

من القتل و الأسر ما يقع ، فقد منعوا الاقتراب و التوغل أكثر من ميلين.. منعوا من أن ينعموا بمياه أرضهم حتى هي حاصروها .

و عند الشاطئ تجد الذرة التي تفوح رائحتها في الأجواء حيث تحملها نسمات البحر العليل ، و تقذف بها إلى الأنف فتثير في الروح ما تثير ، فلا تجد نفسك إلا وأنت تمسك واحدة بين يديك تلتهمها أسنانك ، وهذا ليس كل شيء فعندما تذهب بعيدًا عن الشاطئ إلى البيوت المتلاصقة فتجلس بين الأزقة الضيقة تجد حبالًا نصبت بالعرض يقال لها " حبال الغسيل " .

تلك الحبال البسيطة تحمل في تكوينها المادي طاقة معنوية أمدت بها أهالي المخيم فعندما تقف السيدة و بين يديها قطع الملابس المبتلة وجارتها بجوارها فيدور حوار بسيط ممتع بين الطرفين وكأنهم في نادي يتسامرون ، فتقول هي ما في خاطرها و الآخر تحكي ما حدث معها و كيف مر اليوم عليها و أنها طبخت لأولادها عدسًا والأخرى تقول أنا طبخت فاصوليا فيمتد الحوار إلى أن تعلق آخر قطعة ملابس على حبل الغسيل فتودع السيدة جارتها إلى لقاء آخر مع حبل الغسيل.

وعندما تدخل عميقًا و تنظر بين الفتحات الضيقة بالأبواب لن تري شيئًا لأن الظلام قد خيم فقد انقطعت الكهرباء التي لا تزور البيوت إلا ثماني ساعات على مدار اليوم.

تجد البعض يبحث عن أضواء الشموع ليقضوا معها لحظات تملؤها الرومانسية .. أما في غزة فتكون النور الذي يمدهم بالطاقة و يساعدهم على العلم .. على المذاكرة .. على النجاح، و لكن يأتي وقت يكون هذا الضوء وحده ليس كفيلًا للوصول إلى آخر السلم إلى شهادة التخرج ! لأن نقص المال و البطالة المنتشرة بصورة كبيرة تكون عائقًا و حاجزًا كبيرًا لا تستطيع الحرب أن تهزمه ، فبعد هذا التعب و المذاكرة تحت الأضواء الخافتة ينطفئ ضوء الشمعة و تشعل شمعة أخرى لأمل آخر.

بعد أن ودعنا سعد بابتسامة ذهبنا نحو الشاطئ ، جلسنا و طلبنا شـايًا كان معي إياد و عمر و شاب فلسطيني اسمه فهد و صديقه يوسف .

أمسكنا الشاي، و كانت الأمواج تداعب رمال الشاطئ، ابتسمنا جميعًا لها فكيف نقاومها !!

ناولت عمر كوب الشاي، و خلعت حـذائي، و شمـرت أطـراف بنطلوني، و جريت بداخل البحر و كأني احتضنه.

لحق بي عمر و فهد ، ابتلت ملابسنا وكنا نقذف بعضنا بمـاء البحـر المنعش و كأنه كرة من الثلج الأبيض في يوم رأس السنة ، و عند غروب الشمس نظرنا إلى الشفق الأحمر الذي انعكس على صفحة الماء الزرقـاء فاختلطت الألوان بين لون البحر و لون الغروب ، و في طريق العودة دار بيننا حوار .

قال عمر: كم غزة جميلة ! لم أدرك أنها بكل هذا الجمال !

هززت رأسي مؤيدًا، و قلت: هذا حقيقي فالبحر و السماء و الجو بها سحر غريب.. سحر خاص .

رد فهد بفخر: إنك لم ترَ إلا جزءًا بسيطًا من غزة، فماذا سـتقول إذا رأيتها كلها ؟

فاجأنا يوسف، و قال وهو يمشي بجوارنا و هو يمسك بيده فرع شجرة يلعب به : نعم جميلة و لكن ليس الجمال كل شيء

سألته : ماذا تعني ؟

قال و هو يحاول أن يبدو واثقًا : الجمال وحده لا يكفي ، هناك أمور أهم من ذلك !!

و بعد أن صمتنا صمتًا طويلًا قال : لقد.. لقد قررت السفر .

التفت فهد إليه غاضبًا يكاد الشرر يتطاير من عينيه، و أمسكه من أطراف قميصه بقوة، و قال يهاجمه:

« ماذا ؟ ماذا تقول أنت ؟ تسافر.. إلى أين ؟ أتهرب يا يوسف ! »

أبعد يوسف يد فهد عنه مستخدمًا نفس القوة، و قال يدافع عن نفسه و هو ينظر إلينا:

« أنا أريد أن أعيش..أن أبني عائلة ..أريد أن يكون معي نقود..أريد أن أرى العالم من حولي. فمنذ ولدت لم أرَ سوى الدمار ، و الموت ، وبكاء الجميع على ما فقدوه ، عشت حياتي غريبًا في أرضي أرحل من مخيم إلى مخيم إلى مخيم .. حتى حاصرونا هنا فأغلقوا علينا البر و البحر .فأي هروب تتحدث عنه ؟ فأين الأرض التي أهرب منها ؟ فقد أخذوها؛ فآخر مرة صليت في الأقصى كان عمري عشر سنوات. »

أجبته بحماس: و لسوف تعود إلينا يا يوسف في النهاية؛ هي فقط مسألة وقت.

وقف يهاجمني، و بنبرة ملؤها الحقد قال: « كيف تعود و الكل صار يفكر في نفسه ؟ فأين الوطن العربي الآن ؟ لقد أصبح وطناً مفككًا ضعيفًا ضائعًا قد تخاذل عنا الجميع، أين مصر و سوريا و العراق و لبنان و الأردن و السعودية و دول الخليج و غيرهم .لا يا أقصى نحن وحدنا نحارب وحدنا. و نموت وحدنا، و نبكي وحدنا، و نحلم وحدنا ».

قال إياد وقد ظهرت على وجه علامات الشفقة : ربما معك حق، ولكن ألا يكفيك أن نكون معكم و بجواركم ؛ فقد تركنا بلادنا و أهلنا واخترناكم . فكيف نأتي إليكم و تذهب أنت ؟ فلمن تترك أرضك ؟!

صمت يوسف محاولاً الهرب من السؤال ..

حاول عمر أن يخفف من حده الوضع فابتسم ليوسف ابتسامة واسعة، و أشار إلى النجوم التي كانت تلمع في السماء الصافية.

كان يشير فقط ، و لم يقل أي شيء.

لم أفهم حقًا ماذا كان يعني بهذا ؟

أكملنا طريقنا في صمت و عندما اقتربت من المستشفى ودعتـــهم ، وحين وصلت صعدت سريعًا إلى غرفتي الصغيرة و وضعت جسدي علـــى سريري الصغير، وأغمضت عيني و لم أفكر في أي شيء سوى البحـــر .. تذكرت البحر و أمواجه حتى رحت في سبات عميق .

مر يومان، و لم يحدث كلامنا أي تغيير؛ فقد عزم يوسف علي الذهاب حقًا، وقرر أن يسافر إلى مصر ثم يكمل طريقه بعد ذلك إلى عمه بكندا.

رفض فهد الذي ذهب غاضبًا عندما رأى المتاع الذي يحمله يوســـف على ظهره أن يودعه، و اختفي سريعًا، و لكني في نفسي حاولت أن أعطيه العذر، و صافحت يده و قلت له حظًا سعيدًا.

ودعه كل من إياد وعمر بابتسامة تكمن بداخلها خيبة الأمل الـــذي شعر بها يوسف ، و لكنه لم يحفل بكل ذلك و مضى في طريقه يلتمس نجاح خطته .

قال إياد بغضب:

– « باعوا أرضهم في الماضي، و الآن يهجروها و يتركوها لحفنة من قتلة... محتلين، هذا عيب و الله عيب ».

فإن ذهبوا من الذي سيحميها ، و يدافع عنها ؟

من الذي سيحمل القضية ؟

رد عمر سريعًا يحاول تهدئة إياد :

– « لا يجب أن نأخذ الأبناء بذنب الأجداد ، ومع العلم أن عـــددًا قليلًا منهم فقط من قام ببيع أرضه لليهود ، و قد عوملوا كخونة بين أهلهم و قتل بعضهم » .

قال إياد « هذا في الماضي ، و ماذا عن الحاضر؟! ماذا عـــن يوســـف وغيره من الفلسطينيين الذين هاجروا و تركوا الأرض ؟! ».

صمت عمر الذي كان بصمته يؤيد إيادًا في هذا ، فإنه مهما كانـــت الظروف صعبة لا يجب أن نهاجر و نترك أرضنا ، و وطننا ، و لكن هذا مع الأسف يحدث فكل عام يهاجر العديد من الفلسطينيين إلى كندا أو أستراليا أو أمريكا بداعي إكمال الدراسة أو العمل ، و يتركون فلسطين وحيدة مع قضيتها المعلقة.

تركتهم، و ذهبت أبحث عن فهد..

مضى وقت طويل قبل أن أجده جالسًا في ظل شجرة يسند رأسه عليها ، لم يشعر بقدومي ففكرت أن أذهب و أتركه ربما يريد أن يجلس بمفرده ، و لكن حز في نفسي أن أتركه و قلبه يملؤه كل هذا الحزن ، فقـــررت أن أذهب إليه .

جلست بجواره بدون أن أتحدث. ظل هو الآخر صامتًا ينظر في الأفـــق ويتأمل الكون ، و كأنه يدور بداخله .. يحلم ، و يحلم ، و لكني لم أكـــن أعلم بماذا يحلم هو ؟ حتى تحدث فجأة و قال:

« أرى نفسي في صحراء واسعة شاسعة من كبرها لا تستطيع أن تعرف مداها ، ولكن رغم ذلك أرى بئرًا هناك .. هناك أنظر ».

و أشار بيده إليّ لأنظر، و لكني لم أكن أرى ما يشير إليه.

سألته: أنظر إلى ماذا ؟

قال : إلى البئر .

قلت: و لكن لا يوجد بئر أنا لا أراه.

قال: «هم أيضًا قالوا لي هذا، قالوا بعنف، و بسخط أي بئر تتحـــدث عنه إنك تتوهم ».

سألته محاولًا أن أفهم: من قال لك ذلك ؟

لم يجب، وأردف: « قلت لهم تعالوا معي فردوا علي أتريد أن تـــذهب بنا إلى صحراء جرداء نهلك بداخلها من العطش والجوع » .

فقلت لهم في النهاية هناك بئر سيروي عطشنا و يعيد إلينا الحياة، قالوا « لا يوجد بئر إنما هو وهم نسجه خيالك المريض ».

قررت أن أسايره فسألته: فماذا صنعت ؟

قال: لم أيأس، و رجعت لهم أحكي عن البئر.

سألته: أيوجد طريق غير هذه الصحراء يا فهد ؟

نظر إليّ و قال: لا .. لا يوجد و إنه طريق لا بد من أن نسير إليه الآن أو بعد ذلك، نعم قد يهلك بعضنا، و لكن في النهاية هناك حياة.. فـــالبئر هناك ينتظرنا ، ينظر إلينا حتى نراه و لكن قليل من يرونه !

سألته : فماذا قررت ؟

قال : سأذهب وحدي ثم نظر إلي و ابتسم ، و قال لي : هناك قليل من سيتبعني .

عاد بعد ذلك إلى التأمل و أخذ عصا صغيرة يلعب بها و يرسم علـــى صفحة التراب، حاولت أن أفهم ماذا يعني بكلامه هذا ؟ و لكني عجزت وبعد تفكير طويل قررت أن أذهب و أتركه لحلمه فوقفت وكنت سأقول وداعًا فلمحت عيني ماذا صنعت أنامله على صفحة التراب لم أصدق مـــا أراه.

ضحكت... فأخيرًا فهمت ماذا أراد أن يقول ؟

كان ما رسمه على التراب (المسجد الأقصى) و بجواره رسم رجلًـــا يقف ينظر إليه. رجعت أجلس بجواره و ابتسمت له، و قلت سآتي معـــك هل تقبل بي رفيقًا في طريقك الطويل.

قال: نعم سأكون سعيدًا ، و أشار هناك و قال « فأنت هذا الرجل».

نظرت إلى يده التي أشارت على الرجل المرسوم الذي ينظر . مددت يدي إليه فكنت أريد أن أوثق بيننا هذا العهد.

فمد يده هو الآخر، وقال يذكرني: « مهما حدث لا تنسَ أن هناك يوجد البئر» و كان يعني بذلك (المسجد الأقصى).

***

كان اليوم من الأيام الجميلة التي قضيتها في فلسطين كنت أشعر بسعادة لا أعلم سببها، و لكن ربما لأنه كان أول يوم إجازة منذ وقت طويل. فجلست أفكر أين أذهب ؟ و مع من ؟

لم أضيع وقتي في التفكير، ذهبت، وسألت فهد الذي اقترح علي سوق الزاوية، وعرض علي مصاحبتي في الرحلة، فانطلقنا، وكنت سعيدًا سعادة طفل أخذه أبوه للتتره.

وعند وصولنا إلى السوق كان مزدحمًا بكل ما يلذ و يطيب من الطعام ، والشراب ، و قد صادف هذا اليوم أن يكون ليلة أول يوم في شهر رمضان ، و كان هذا أول رمضان لي في غزة ، ولذلك كتبنا قائمة طويلة بكل ما نحتاج إليه لنحتفل بهذا الشهر الكريم .

و أول ما وصلنا إليه كان محل لبيع المشروبات والأعشاب وجدت العديد، و العديد من المشروبات الشعبية اللذيذة مثل التمر هندي، العرقسوس، الخروب، الكركديه و غيرها.

قررت أن أشتري كركديه ، و لكن اقترح علي فهد أن أشتري خروبًا أيضًا ، و سألت البائع عن طريقة عمل "الخروب" فقال: «إنه يُنقع من الصبح إلى العصر، وبعد ذلك يُفرك باليد ويُحلّى ويُبرّد أما إذا كنت مستعجلاً فبإمكانك أن تغلي الماء، وتضع الخروب، ثم تفركه وتحليه، وتتناوله » واشترينا أيضًا قمر الدين ، و كل ما يلزم رمضان من البلح

والمشمش و التين المجفف وقبل أن نذهب من عنده اشترينا " الملبن" ، وكانت أول مرة أسمع عنه فسألت فهد: ما " الملبن"

قال: « الملبن حلوى شعبية فلسطينية تصنع من العنب، وخاصة في رمضان يؤكل ويقوم مقام الخبز، من يأكله عند السحور لا يشعر بالجوع ولا بالفتور لأنه يسد الجوع ويمد الجسم بطاقة كبيرة تبقي الإنسان في نشاط مستمر» لذلك اشترينا منه كمية كبيرة واتجهنا نكمل رحلتنا .

رائحة المكسرات الطازجة الشهية أوقفتني فكانت ساخنة و منعشة خرجت لتوها من المحمصة ، كنت أرغب أن أشتري كل ما تقع عليه عيني ، و لكن اكتفيت بالفستق و البندق والكاجو ، و قليل من اللب الذي تقاسمته مع فهد .

كنت فعلاً سعيدًا و شعرت وكأني بين أهلي ، فمع مرور الأيام أصبح فهد بمثابة أخي فلم يكن لي إخوة فاعتبرته كل عائلتي ، و استطعنا أن نؤمن منزلًا صغيرًا لنا عشت فيه أنا و فهد و إياد و عمر .. كنا نتقاسم العمل فيه . فعندما كنا نتسوق معًا شعرت أني أتسوق لعائلتنا الصغيرة مما زاد المتعة بداخلي أكثر فأكثر ، و من المكسرات الساخنة إلى الحلويات وصلنا ، وجدت القطايف و كانت ذات مقاسات مختلفة " كبير و وسط وصغير" ، ولها عدة حشوات حسب رغبة كل شخص ، بالمكسرات أو بالتمر أو بالجبنة ، و أيضًا كانت هناك الكنافة و البسبوسة باللوز و الهريسة وغيرها من الحلويات الشرقية الجميلة الطيبة .

كنا كلما نمر بمكان نشتري منه، فحملت أيدينا العديد من الحقائب الممتلئة بالفاكهة والخضراوات و المكسرات و البهارات و غيرها من الأشياء، و كان من أكثر الأشياء التي صممنا أن نشتريها هي فانوس رمضان ، وعندما وصلنا إلى التاجر الذي عرض علينا أشكال الفوانيس مختلفة الألوان والأحجام قررنا أن نشتري فانوسًا كبيرًا كهربائيًّا ، وبداخله شمعة تشعل إذا انقطعت الكهرباء كان لونه أحمر و مخطط بدوائر زرقاء

مكتوب عليه اسم الله من جهة ومن جهة آخر محمد صلى الله عليه و سلم .

مضي الوقت سريعًا وكان التعب و الجوع قد بلغ منا فذهبنا إلي متجر الشاورما ، و كانت الرائحة تعطي المكان رونقًا جميلًا وعندما باتت السندوتشات بين يدي قال فهد هيا بنا.

سألته والجوع يمازحني : إلى أين ؟

قال : إلى أروع مكان في غزة !

ركبنا السيارة ووضعت تلك الحقائب على الكرسي الخلفي، و كلما كنت أسأل فهد إلى أين ؟ يقول « مفاجأة انتظر و سترى » و قد كانت مفاجأة حقًا فوجدت نفسي أمام مكان بديع الجمال إن وصفت ما فيه من روعته لن أعطيه حقه ، فهذا المكان يسمي " تلة المنظار " وهو أعلى مكان موجود بغزة ، فعندما تقف على هذه التلة الشامخة ترى غزة و جمالها .. ترى بعيون أخرى عظمة غزة ؛ فالبيوت الممتدة أمامي تتحدث فكأني أسمعها ، و أرى ضحكاتها التي تمزح مع لمسات الهواء الطليق المنعش ، و أنا وسطها ها هنا أقف في المنتصف بجواري شجرة عتيقة خالدة التوت جذعها نحو الأمام قليلًا ، و أوراقها المنتشرة تحيطني من كل جانب ، و أنا بينها أقف .

شعرت أني بالجنة، و لكني كنت على الأرض، أغمضت عيني لأعيش فيها قليلًا. هزني فهد الذي ناولني الشاورما ، و زجاجة العصير ، و قال مبتسمًا : الآن تستطيع أن تأكل .

طالما تعجبت من فهد، فكان دائمًا ما تظهر على ملامح وجه ابتسامة فيها بعض التفاؤل، و لكن كان في روحه شيء ما عجيب، دومًا يجعلني أتساءل عمن يكون ؟ و لكن كانت إجابتي تصل للحد الذي وضعه فهد لي

و لغيري، و كأنه كان يخفي سرًّا بداخل روحه تنطق به عينه و لا ينطق به فمه.. سرًّا يعيش فيه هو وحيدًا، و لا يريد أن يشاركه غيره فيه.

جلسنا تحت ظل هذه الشجرة نأكل و نضحك، جلسنا.. فوق التلة .. (تلة المنظار) تلك التي شهدت علي التاريخ والحروب من أيام سبقت صلاح الدين الأيوبي إلى يومنا هذا .

مضت أيام رمضان المباركة سريعًا ، كانت تملؤها السعادة و البهجة والحب فرغم ظروف الحصار الشديدة الصعبة من انقطاع الكهرباء الدائم ، و نقص في الغاز الذي استبدل بحرق الأخشاب للحصول على وقود لطهي الطعام إلا أننا بين الصيام، والصلاة، و تبادل العزائم بين الأصدقاء والعائلات عشنا أسعد أيامنا.

ففي العزائم تتفنن ربات البيوت في إعداد الأكلات التي يمتزن بها مثل المقلوبة والسماقية والمفتول والقدرة ، و غيرها ، والتباهي بأشهاها . فتكون لمة الإفطار جماعية مليئة بالضحكة والبسمة والسرور والبركة ، وهذا بالإضافة إلى خبز رمضان الذي يصنع خصيصًا للاحتفال بهذا الشهر الكريم ، و يكون مزينًا بحب البركة والسمسم ، وكعك رمضان المشهور هنا والمعروف بتنوعه وأشكاله ،بالإضافة إلى السلطات و المقبلات ، والحلويات الشهية و المشروبات بألوانها المختلفة ، وأيضًا كان يوجد الخيمة الرمضانية التي تبعد كل البعد عن الاحتفال بالأغاني إنما كانت مكان للندوات و التبادل الثقافي ونشر كلمات لذكر الله .

كنا نصلي العشاء و التراويح في المسجد العمري ، و قرب الفجر يمر المسحراتي الذي يقوم بإيقاظ النائمين للسحور ببعض الكلمات المشهورة (إصحى يا نايم. وحد الدايم. رمضان كريم)، فيبدأ الناس بإشعال أنوار البيوت حتى تصبح وكأننا في نهار الجنة ثم نذهب بعد ذلك لنصلي الفجر.

و عندما انتهى رمضان جاء العيد بفرحة أخرى؛ فتوافد الجميع إلى صلاة العيد مرتدين الحلل الجديدة، وعلت تكبيرات العيد (الله أكبر لا إله إلا الله .. الله أكبر و لله الحمد) الأجواء في جو من الإيمان و السكينة ، وعندما انتهينا من الصلاة بدأت مظاهر العيد التي ملئت بالسعادة ، و أكل المعمول ، و الفسيخ ، و الذهاب إلى الحدائق ، و زيارة قبور الشهداء . فبين الدموع ، و الابتسامات وجدنا السعادة .

قررت أن أشارك فرحة العيد مع أطفال غزة الذين فقدوا عائلتهم ، فأردت أن أكون جزءًا منهم في هذا اليوم فاخترنا أن نذهب إلى مدينة الملاهي ، و تسمى (السندبات) .

فعند وصولنا هناك كان الأطفال متحمسين و سعداء، و أول ما ركبناه كان لعبة الإخطبوط فدوت الصيحات العالية تهز المكان من الإثارة والمتعة، وبعد ذلك انطلقنا إلى القطار السريع، كان حقًّا سريعًا فلأول مرة أركبه، و شعرت أن قلبي يتحرك أعلى و أسفل.. أعلى وأسفل، فنظرت إلى الأطفال من حولي لأستمد منهم الشجاعة فلا أنكر أني خفت و تعبت بعض الشيء، و لكن المهم أني كنت سعيدًا ، و شاركت في إسعاد من حولي.

مضى الوقت و نحن نلعب و قررنا أن نتوقف لنأكل و نستريح ، فقررت أن أستغل هذا الوقت و أهاتف عائلتي لأشاركهم فرحة العيد ، وأطمئنهم علي .

دق الهاتف لثواني قليلة و بعدها سمعت صوت ريهام بنت خالي الصغرى قد سماها خالي على اسم أمي؛ سألتني بصوت طفولي عذب من أنت ؟

قلت أنا أقصى !

قالت بصوت عال تنادي : ماما أقصى على الهاتف .

تركتني أنتظر و سمعت صوت لعبها حتى جاءت زوجة خالي و أجابتني بتلهف:أقصى هذا أنت كيف حالك ؟ كل عام و أنت بخير يا ابني.

– و أنتي بخير ، كيف خالي و الأولاد .. محمد و كريم و نـــور قـــد اشتقت إليكم جميعًا.

قالت: و نحن أيضًا اشتقنا إليك كثيرًا ، متى ستعود ؟

أخبرتها بأني سأعود قريبًا إن شاء الله ثم سألتها عن خالي ، و لكنه كان نائمًا فأغلقت الهاتف بعد أن أرسلت سلامي إلى الجميع .

بعدها فتحت صفحتي على الفيس بوك ، و تويتر ، و كتبت تغريـــدة لأصدقائي لأشاركهم بهجة العيد .

" من غزة أرسل تمنياتي بعيد سعيد للجميع ، أنا الآن أقـــضي أحلـــى أيامي أشعر بسعادة كبيرة أتمنى أن أشاركها معكم ، اشتقت إليكم "

جاءتني الردود ..

فرد علي عبد الله و كتب بحروف فرانكو عـــرب " **kol sana w enta taib , miss u too man** "

و قال إبراهيم " واحشني و الله يا أقصى عيد سعيد عليك يا رب تكون بخير "

و أرسلت لي منال ابتسامة ☺ بجوارها عيد سعيد .

و سألني مدحت " إيه آخر أخبار القصف عندكم ؟ "

و طلب شادي ، و قال " يا ريت ترجع يا أقصى إنت وحـــشتنا أوي عيد سعيد عليك و خلي بالك من نفسك "

و قال محمود " إنت فينك يا أقصى !

و آخر تعليق قرأته كان من هبة و قالت " يا ترى وحشتك مصر! "

و قد كانت إجابتي بنعم فقد اشتقت إليها كثيرًا، و لم أكذب عندما قلت لزوجة خالي أني سأعود قريبًا لأني فعلا قررت العودة، فقد شعرت أني قدمت كل ما أستطيع أن أقدمه هنا.

و بعد ساعات مرت من السعادة و الضحكة بدأنا نتحرك للرحيل، ووسط زحمة أطفال ، و العائلات وجدتها فجأة كانت أمامي تسير..

تبتسم ..

تضحك في مرح و هي مشبكة يدها في يد طفلة صغيرة تجري في مكانها و حولها أطفال آخرون يلعبون يضحكون بأصوات عالية سعيدة فكان قلبهم يرقص و عيونهم تسبح ..

و أنا كنت أنظر إليها ...

أراقبها من بعيد ...

فقد عاد قلبي يدق من جديد و اضطربت يدي التي ذهبت سريعًا تبحث عن الخاتم.. خاتم أمي ، نظرت إليها و لم أستطع أن أبعد عيني عنها فكأني صرت متعلقًا بها أسيراً لها ، وصار قلبي ينبض بصوت مرتفع حتى أني كنت أستطيع أن أعد دقاته ، تغير كل شيء من حولي شعرت بأني في فضاء واسع لا يحيطني أحد ، و كأني صرت وحيدًا ، و لا يوجد سوى أنا و هي

لا أعلم لماذا ؟ و لكني تركت نفسي، و لم أوقفها فكان هذا الشعور أقوى مني، قد تغلب علي هذه المرة و تغلغل بداخلي و صار جزءاً من روحي.

أكان هو الحب ؟

فأجاب صوت بداخلي : نعم ، هو الحب !!

بدون أي تفكير أردت أن أذهب إليها أقول لها ما يدور بداخل قلبي، ولكني خفت.. خفت للغاية أن تواجهني بالرفض أو الصمت فتملكت نفسي واكتفيت بمراقبتها فقط.

ذهبت بعيدًا وهي تمسك طائرة ورقية تطير عاليًا تسبح عائمة في محيط السماء الواسع، و قبل أن تذهب تلاقت أنظارنا في لحظة واحدة ظللت أنظر إليها وعينها تتبعاني ثم التفتت عائدة ونادت الأطفال، و بسعادة استجابوا لها و تجمعوا حولها يلعبون

شهد ..

كان اسمها شهد، قد نادتها إحدى الطفلات الصغار، يا شهد. اختفت شهد وسط الزحام و لم أرَ سوى طائرتها الورقية التي كانت تبعد بعيدًا معها.

صراخ الأطفال من حولي أعادني إلى ملمس أرض الواقع ، و نظرة السيدة زهرة لي جعلتني أخجل من نفسي فشعرت إنها رأت ، و عرفت ما يدور بداخلي ، و لكن أيجب أن أخجل من أن أحب ، و أن تدور في نفسي هذه المشاعر ، كنت أريد أن أذهب إلى السيدة زهرة و أخبرها أني فعلًا أحب هذه الفتاة ، و............

توقفت لأني شعرت بأني لست مضطرًا إلى أن أبرر نفسي أمامها.. أو لأي أحد آخر .

ركبنا الحافلة عائدين إلى دار الأيتام، و طوال طريق العودة، و أنا أفكر.. أفكر، فعلى رغم من غناء الأطفال و لعبهم و ضحكاتهم لم يمنعني ذلك من أن أتوقف.

بعد أن وصلنا وودعني الأطفال ببسمات و قبلات حانية، جاءت السيدة زهرة إلي و قالت: « شكرًا لك يا أستاذ أقصى كان يومًا ممتعًا حقاً و قد شاركت في إسعاد الأطفال ».

قلت ، و كنت أريد الهرب منها سريعًا: بل أشكرك أنا لأنكِ سمحتِ لي أن أقضي معكم هذا اليوم الجميل.

و بعد صمت قصير قلت و أنا أتحرك للذهاب : وداعًا.

قالت باستعجال: أستاذ أقصى انتظر.

خفت، ودارت في رأسي أفكار كثيرة فماذا تريد أن تقول لي ؟ عدت إليها بتردد، و بنبرة استسلام قلت:

- أفندم يا أستاذة.

قالت، و كان التردد باديًا عليها :

- أعلم أنه لا حق لي أن أسألك، و لكني رأيتك تنظر إلى تلك الفتاه، شهد.. أتعرفها؟

قلت سريعًا و أنا أحاول أن أخفي شعوري بهذا الإحراج الشديد:

- لا..

- لا أعرفها، أعني قد رأيتها أكثر من مرة، ولكن....

أوقفتني ابتسامتها، و قالت بنبرة لم أعلم مغزاها: شهد تعمل معنا في الدار.. أنت تعلم ذلك.

قلت لها : نعم .. أعني ، نعم .. أعرف .

فأردفت وكأنها تريد أن تنبهني لأمر: هي هنا وحيدة فأهلها يعيشون في دبي، و قد تعتبرني مثل والدها.

قلت : نعم ، ثم سكت .

قالت لي و هي تحاول أن تنظر في عيني لتقرأ ما فيها: أعني إذا أردت...

توقفت لثوانٍ ... ثم أكلمت بنبرة أرق من نبرهّا الأولى... و قالت: «أعلم يا أقصى أنك رجل شهم فمنذ قدومك إلى هنا و أنت تساعد من حولك، و لكن شهد فتاة وحيدة هنا و أنا أخشى........»

قاطعتها، و قلت مدافعًا عن نفسي: أن لا أريد إلا الخير.

فابتسمت و كأنها قرأت ما بداخلي و قالت " يجعله الله خيرًا إن شاء الله" .

تركت السيدة زهرة والسعادة تغمرني، والأمل يدب في قلبي، و لكن ظهر أمامي خاطر العودة. فهل سأعود؟

سألت نفسي ..

و تذكرت هذا الحوار الذي دار منذ قليل فقد يكون سببًا لبداية حياة جديدة، حياة لم أكن أتخيل أن أكون جزءًا منها، و لكن ماذا عن حياتي الأخرى ؟.

و صلت إلى المترل في حالة حيرة فكان يدور بداخلي من الأفكار الكثير، و أضاءت في عقلي أحلام تمنيت أن تتحقق.

دخلت إلى غرفة المعيشة و لم يكن أي من إياد أو عمر موجودًا ، ولكني وجدت فقط فهد أمامي يجلس على الأريكة بارتياح يشاهد برنامج أوبرا ، و يضحك بحماس مع كلمات أوبرا الفكاهية ، كان يحب هذه السيدة للغاية فدائمًا ما كان يذكر لي شخصيتها القوية ، و كفاحها الذي بذلت فيه من سنوات عمرها الكثير ، و قصة نجاحها الذي حققتها على الرغم من أنها امرأة سوداء في مجتمع اهم بالعنصرية ، وعندما جلست بجواره على الأريكة اصطنعت بسمة زائفة مع أني كنت تائهًا في أفكاري .. فانتبه لذلك و أغلق التلفاز ثم جاء إلي يسألني ما بي.

بدأت أحكي له تلك الأفكار التي تمنعني من أن أستريح، و شرحت له ما حدث مع السيدة زهرة و كلمته عن شهد، و عن مشاعري تجاهها..

مشاعري التي طالما حاولت أن أتحكم فيها و أصدها من أن تنمو أكثر وتظهر في العلن، و لكني فشلت في أن أوقفها.

كان فهد ينصت إليّ، و لم يظهر على وجهه أي تعبير، و اختفت ابتسامته، و ظل صامتًا لا يتحدث إلى أن سكت.

و لما تحدث قال لي :

- « إن ما يدور في نفسك من أسباب العودة أجد نفسي مائلة لها ، وفي نفس الوقت كارهة لها ، فهذا أمر يحتاج لحزمة معرفة ما يدور في خبايا نفسك و هذا لا يعلمه إلا الله و أنت ، و أما تلك المشاعر التي تحملها بقلبك تجاه شهد فهو أمر لا عيب ، و لا حرام فيه.. بل إنه شيء طبيعي خلقه الله فينا، و لا أستطيع أن أمنعك أو أطلب منك أن توقف هذه المشاعر..

صمت قليلًا ثم نظر إلي وجهي يتفحصه ثم قال وكانت نبرته صادقة ، ولكن ظهر بداخلها حزن

- « أعلم أنك إنسان مخلص و وفي كما وصفتك السيدة زهرة، ولكن ما يدور في رأسي هو سؤال واحد فقط يحتاج إلي إجابة واضحة منك فهل تجيب علي بصدق ؟ » .

كان سؤالًا صراحته صدمتني، و لم أستطع أن أجيبه عليه لما أصابني من اضطراب و ذهول فلم أفكر به من قبل، و لم أتوقع أن يأتي يوم ما و أفكر فيه.

فحروفه كانت واضحة صادمة لنفسي فرددت بداخلي إلى أن حفظتها « إذا قررت البقاء، لمن ستبقي، هل لتنصر القضية ؟ أم لتنصر حبك ؟ »

الفصل الرابع
ما تَرَكَ قَوْمٌ الجِهادَ إلا ذَلوا !

يقال بدون ألم لا يوجد ربح، بدون ألم لن تذوق طعم النصر، بدون ألم لن تسمى الحياة حياة، و تجسدت تلك المعاني أمامي و لمستها بيدي ورأيت وميض الحياة ينبض فيها رغم أنه كان يحتضر في وسط لحظات العُسرة.

باضطراب تحركت هنا و هناك ، ثم توقفت فجأة .. نظرت إلي ، وقالت بحيرة وهي تبحث بداخلها عن بداية تنطلق منها :

« لا أعلم .. !! تطلب مني شيئًا صعباً .. » .

ووسط الأمواج الهادئة اختلطت يداها بمياه البحر الجارية التي كانت بها لسعة برودة، كانت تفكر، وكلما زادت من سرعة قدمها وهي تجدف كلما غاصت في أفكارها أكثر و أكثر، و عندما تعامدت أشعة الشمس اللطيفة على وجهها فأعطته من الضياء ما جعلها تكشف عن أساريرها، فبنظرة من الماضي بدأت تتحدث:

« كانت جدتي تعيش في كفر سور إلى أن تزوجت من جدي وانتقلت إلى جيت وكان ذلك قبل الاحتلال حيث كانت الحياة رغيدة وبسيطة وكان يكثر الزرع والخير ، كانوا يعيشون في سلام و حب و تناغم بين الأقارب و الجيران وكانت جدتي تذهب كل يوم إلى كروم الزيتون حيث تشعر بنسمات الوطن العليلة التي ترد الروح وتذهب انقباض القلب ، هكذا كانت الحياة إلى أن أنجبت خالتي هناك (١٩٥٨) وفي هذا العام حدثت حرب حيث أجبر سكان فلسطين على الهجرة وترك أملاكهم وأهلهم وعاملهم اليهود بطريقة وحشية قاسية ، وكانت هذه أول مرة تعامل جدتي بهذه الطريقة فكيف بين ليلة وضحاها تطرد من كل شيء

تحب؟! كيف يقتحمون عليهم المترل و يترعوهم منه كأهم يترعــون آفــة ضارة ؟! كيف تضيع الأرض ؟! .

هاجرت جدتي وجدي وخالتي إلى الأردن – الزرقاء وقد عانوا كثيرًا في هذه الرحلة حيث كانوا بلا مأوى.. يتملكهم الخوف من المجهول و الحزن على ما ضاع فلا يملكون أي وسيلة مريحة ، و كانوا يمشون أحيانًا علــى أقدامهم المتعبة و يطلبون من المارة أن يقلوهم أحيانًا أخرى ، فكان وضعهم في اضطراب و أحسوا بمشقة كبيرة و فوق هذا كله حزنهم الشديد علــى مفارقة بلادهم الحبيبة ، بلادهم التي لم يفكروا أبدًا في مفارقتها في يوم من الأيام ، وبعد أن مضى وقت قليل على استقرار عائلتي و باقي المهاجرين في الأردن بدأت مضايقة الأردنيين لهم لأنهم لم يكونوا يريدون أن يشاركهم أحدُ في بلادهم.

كانت تروي لي جدتي عن هجرتها وتصف لي مشاعرها و كأنها مازالت هناك وسط الأغصان ، فتذكر دائمًا لي مزارع الزيتون وكيف كانت تمثل الحياة بالنسبة لهم ، كيف كان يغيب كل تعب عندما يعملــون في الأرض وكانوا يحسون بأنهم شباب و هم بين ترابها ، و لكن مجرد أن هاجروا من أرضهم و رحلت أقدامهم عن ترابها الحاني أحسوا بصعوبة الحياة والاشتياق الكبير للأرض والزيتون و حينها فقــط أحــسوا بعمــرهم الحقيقــي.
ولدت أمي في الأردن ودرست مرحلتها الابتدائية هناك ، و تنقل جدي بين دول عديدة إلى أن استقر في دبي– الإمارات و قام بجلب عائلته من هناك إلى دبي و هذا كان في سنة (١٩٦٨) ، وعندما وصلت أمــي المرحلــة الثانوية توفي والدها .. جدي ، وهذا يعني أني لم أستطع رؤية جدي الحنون أو التعرف على قصته الرائعة أما جدتي أطال الله عمرها لا تزال حيــة إلى الآن تحكي لي قصصًا عن أرضنا المغتصبة.

أمي الآن مدرسة لغة إنجليزية صحيح أنها لم تولد في فلسطين و غابــت عن عيونها ملامح الحياة بين الهواء الحر و الأشجار العتيقة نعم أنها لم تحس

بطعم الوطن ، إلا أن الاشتياق كان موجودًا و خف قليلاً عنـــدما زارت فلسطين وهى كبيرة ، و في يوم سألتها عن أمنيتها إن استطاعت الـــسفر لفلسطين الآن فما أول شيء ستفعلينه ، فقالت أنها ستقبل تراب الـــوطن العزيز وتزور الأقارب والأهل هناك وتتنشق نسيم الوطن العليل ، وأنـــه مهما تكون أوضاع البلاد و مهما تكون معاملة اليهود هنـــاك ســـترجع وتزور وطنها و تموت فيه .

بالنسبة لأبي فالوضع كان مختلف جدًّا ، فأبي رجل فلسطيني بكل معنى الكلمة وأستطيع أن أسميه رجلا فلقد عانى كثيرًا في حياته هنا وهناك لكنه بقى صامدًا و تحمل كل هذه الأوضاع الصعبة ، أبي لم يهاجر من فلسطين فلقد ولد في حبلة- قلقيلية سنة (١٩٥٦) ، و أنهى المرحلة الثانويـــة في فلسطين ثم سافر إلى العراق ليكمل دراسته الجامعية وقد تخصص في اللغة الإنجليزية فدرس سنة ورجع لزيارة أهله في الصيف فعندما وصل إلى حدود فلسطين سجن ومنع من السفر مرة أخرى وذلك بدون أي أسباب وعانى كثيرًا بسبب هذه القصة حينها اضطر إلى أن يدرس في جامعة النجاح ويغير تخصصه من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية وكانت تلك الفتـــرة مليئـــة بالمظاهرات و التفجيرات و المشاحنات بين الإسرائيليين وطلاب الجامعـــة وفي أحد المظاهرات التى حصلت في الجامعة تعرض أبي إلى طلق نـــاري في ركبته اليمنى والذي لا يزال يعانى من آلامها حتى الآن . بعد أن أنهى أبي دراسته الجامعية اضطر للبحث عن وظيفة ولم تكن هناك وظيفة تناســـب تخصصه حينها ، و هذا جعله يضطر للعمل في مزرعة يملكها يهود وكـــان يعمل مع جماعة من الشباب ، كانوا يعملون بدون تصريح فكانوا محرومين من حقوق كثيرة و كانوا يعاملون بطريقة بشعة وعندما ســـألت أبي عـــن سبب بقائه في العمل أجاب "قالوا شو اللي جبرك على المر قال الأمر منو"

كان لابد أن يعمل أبي لأنه لو لم يعمل هناك لن يجد وظيفة أخرى ولن يستطيع أن يعول أسرته حيث توفي والد أبي عندما كان في الصف التاسع

وكان لديه تسعة إخوة وهو العاشر وكان ترتيبه السابع بينهم كان لدى أبي إخوة أكبر منه لكنهم كانوا نساءً وكان لديه إخوة رجال أكبر منه سنًّا لكنهم كانوا يتحججون بأن لديهم عائلتهم الخاصة بهم ليعولوها وكان هناك من استشهد من إخوته الرجال لذا اضطر أبي أن يصرف على العائلة الكبيرة .

استقرت أوضاع عائلة أبي قليلاً و أصبح لديهم دخل ثابت حيث فتحت إحدى عماتي مصنعًا للملابس حينها قرر أبي القدوم إلي الإمارات – أم القوين ، حيث كانت أخته الكبرى تسكن هنا وقدم هو ليعمل كمعلم للغة العربية ولم يعانِ كثيرًا في السفر لأن اليهود كانوا فرحين بأن يهاجر أبناء الوطن خارج وطنهم

في بداية الأمر عمل أبي كبائع أدوية ثم انتقل للعمل ككاتب في محكمة وأخيرًا استقر في عمله وأصبح معلمًا للغة العربية في منطقة نائية بين الجبال تدعى الطويين في إمارة الفجيرة

على الرغم من استقرار حياة أبي بعد سنين طويلة من التعب إلا أنه كان يشعر كل يوم بحنين كبير للوطن فلم يطق العيش بعيدًا عن أرضه أو بعيدًا عن أشجار الزيتون ، كان كل يوم يزور المقابر ويتفكر في أمور الناس والموت ، يفكر في هذه الدنيا القصيرة المتعبة و حياة خالدة لن تجدها إلا في الموت حتى وقر في قلبه شيء فأصبح قوي الإيمان مؤمنًا بأن الله هو من سيعينه ومن سيحقق آماله.

و سريعًا ما تحققت آمال أبي فقد انتقلت أمي للعمل من دبي إلى الطويين أيضًا حيث التقيا وتزوجا وسط اجتماع روح فلسطينية ، كانوا في بداية الأمر يسكنون في دبي ويأتون للعمل في الطويين لكن عندما أنجبتنا أمي و أصبحنا نذهب للمدرسة اضطررنا للسكن في منطقة الطويين.

و عندما كان عمري خمس سنوات سافرنا إلى فلسطين في الحقيقة أنا لا أذكر شيئًا رغم محاولاتى الكثيرة لأتذكر الوجوه و كيـــف كـــان شـــكل الأرض و السماء ، وهذا جعلنى حزينةً جدًّا فكانت المـــرة الأولى لزيـــارة وطني فلسطين إلي أن جئت لغزة.

كانت هذه الرحلة قاسية جدًّا حسبما ذكرت لي أمي حيـــث ســـافرنا بالسيارة انطلاقًا من الإمارات وعبورًا بالسعودية والأردن وصولًا لفلسطين وقد نمنا على الجسر و أحسسنا بتعب شديد لكن ما أجمل عندما وصـــلنا للبلاد أحسسنا أن كل التعب زال بمجرد الوصول للوطن ورؤية الأهـــل وعناق الأقارب

وبعدها لم تسافر أبدًا عائلتى لفلسطين واستقررنا في الطوين وكبرت أنا وترعرعت بين جبال المنطقة وأهلها البسطاء جدًّا لكن كنا نذهب كثيرًا إلى دبي لزيارة جدتى وأخوالي ومازلنا حتى الآن و عندما أنهيت أنا و إخـــوتى الثلاث المدرسة ذهبنا للجامعة ، أبي الآن عاطل عن العمل بسبب كبر سنه لكنه قرر أن يعمل في أعمال حرة ويبيع منتجاته فأبي يحب جدًّا الزراعـــة وهو خبير جدًّا بأمورها فهو يزرع الزعتر الفلسطيني والعديد من النباتات ويبيعها. .

و قبل أن أصل إلى غزة كنت أفكر وأحن للوطن فأنا لم أره أبدًا وكنت حزينة جدًّا ، صحيح أن أوضاعنا هنا جيدة لكنى كنت دائمًا أفضل العودة للوطن والنوم على ترابه الغالي واستنشاق هوائه العليل فكانت جدتى تخبرنى الكثير من القصص عن فلسطين ، نعم كان لي صديقات إماراتيـــات هنـــا أحبهن جدًّا وهن محترمات لكن دائمًا ما كانت تشتاق نفسى إلى صـــديقة من جنسيتى تفهمنى وتفهم عاداتى و أمورًا كثيرة ، وقد كانت حياتى ممتازة لكننى كنت أحس دائمًا بنقص لأنى لست في وطنى و مهما وصفت لـــن أستطيع التعبير عن ذلك ، فكنت أشعر و كأني شخص يبحث عن قـــلادة ثمينة مدفونة وسط محيط واسع من الأرض .

صحيح أنه ليس هناك سبب وجيه لهذا البحث المتعب فأنا أعيش في حالة مادية جيدة و لي صديقاتي وأهلي لكني كنت دائمًا لي حاجة ماسة للعودة إلى وطني وكنت أفتخر أنني من هذه الأرض .. كنت بكل كياني أريد حقًا العودة .. العودة إلى ارضي فلسطين وطني الغالي ، فالكل لديهم أوطان يفخرون بها ويعيشون على أرضها ما عداي أنا .

و عندما حانت لي الفرصة أن أقف على أرض غزة جزء من وطني لم أتردد و ذهبت رغم اعتراض عائلتي التي خشيت علي من الموت هناك ، ولكن أبي وقف بجانبي وودعني بكلمات تعلم قيمة الموت من أجل الوطن وكانت هذه البداية لرحلتي مع غزة » .

***

كتمت صوتي بداخلي أردت أن أصرخ و أقول توقفي أنا لا أستطيع أن أستمع أكثر من ذلك . فتملكني طاقة من الاعتراض لم أكن لأوقفها.

فإلى متى نكون نحن المحكوم علينا بالموت..بالقتل.. بالظلم..بالهجرة.. إلى متى ؟

إلى متى نقف نستقبل الرصاص بأجسادنا دون أن يلتفت إلينا العالم العربي إلا بكلمات مؤثرة تلهب نسيج الروح ، و تشعل فتيل الحرب التي تطفئها دموعهم التي تتساقط و سريعًا ما تجف ، فإلى متى نعيش على معونات تسلب و يقتل حاملوها بدم بارد ؟ .

إلى متى ننظر إلى الأقصى على أنه أمل بعيد صعب الحصول عليه ؟ ونتركه ليهدموه و يحفروا من تحته حتى يأتي يوم نستيقظ فيه فلا نجده أمامنا ، و يكون قد ضاع ، و لا نملك حينها سوى كلمة واحدة .. يا ريت ؟

إلى متى يحطمون و يستولون على مقدساتنا ؟

فها هم يضمون الحرم الإبراهيمي في الخليل و قبر راحيل في بيت لحم لقائمة مواقعها الأثرية ؟! و لم يكتفوا بهذا بل دنسوا قبور موتانا و جعلوا

منها حدائق عامة لهم يتنزهون فيها و يدوسون بأرجلهم علي مكان كـــان أجدادنا و آباؤنا و أمهاتنا مدفونين فيه ، إلى متى ؟

دارت الأفكار المثيرة في رأسي ، كانت كثيرة و غاضبة ، قطعتها دموع شهد التي تساقطت وهي تنظر إلى جمال هذا البحر الواسع الذي يقف على حدوده القوات الإسرائيلية التي تمنع عنه الحياة بحصارها له و قتلها مـــن يتعدى الحدود التي رسمتها .

صرخت فيها توقفي ..

توقفي يا شهد ..

صرخاتي فيها أفزعتها .. بل صدمتها ، فردت علي بغضب فيه تحدٍّ .

- ماذا تريد مني ؟

وانفجرت أكثر وأكثر ، و وجهت أصابعها تتهمني و قالت كلمـــات قاسية جرحتني ..

« ألم تطاردني .. !! »

« ألم تبحث عني .. !! »

« ألم تأتِ إلي وتقربت مني .. !! »

« ألم تنادني يا شهد .. !!»

« ألم أستمع إليك .. !!»

« ألم أقدر مشاعرك .. !! »

- أنا لم أحكِ لك عن قصتي و قصة عائلتي إلا لأني شعرت .. شعرت أنك مختلف، تريد ما أريد، و تحلم بما أحلم ، و تقدر ما أقدر .

و لكنك الآن تريد أن تهرب كما هرب الآخرون الجبناء، الآن أنـــت تفكر بنفسك كما فكروا بأنفسهم، الآن أنت تتخلى عن الحلم كما تخلوا

هم عنه ، و بعد ذلك تصرخ فيّ و تقول توقفي ، لماذا تريدني أن أتوقف ؟ . فهذا هو الشيء الوحيد الذي أمتلكه هل تريد أن تسلبه مني أنت الآخر كما سلبوا هم حلمي أن أعيش على أرضي.

نظرت إليها بحب و غيرت نبرة صوتي و كانت أكثر هدوءًا ، و قلت : أنا أريدك أن تتوقفي عن البكاء ، لأن عيونك التي صارت أحب شيء إليّ لا أريدها أن تختفي وسط قطرات الدموع .. نعم أنا من بحث عنـــكِ و ناداكِ .. ذلك لأني أحبك .. لأني أحتاجك بجواري يا شهد .

– أنا لست جبانًا ، و لست خائفًا من الموت .. فقد عشت عمـــري أحلم به و أنتظره و كنت و مازلت على استعداد أن أقدمـــه في ســـبيل القدس .. في سبيل وحدة الوطن ، فكانت كل أنفاسي تشتاق إلى غبـــار أرض فلسطين و عندما وصلت إلى هنا اعتقدت أني أمسكت الطرف الأول و أني من هنا سأسلك أول طريق حلمي ، ولكن بعد وصـــولي إلى هنـــا وجدت حلمي يموت .. يحتضر ، فهو محاصر برًّا و بحرًا ، و ما صدمني أني وجدت أن أبسط حلم للناس هنا هو النجاة ، و الحياة الكريمة و أن يجدوا الاحترام و سبل للعيش .

نعم يهتفون و يعتصمون و يحتجون ولكن كل صرخاهم تضيع هبـــاء وتزيد و ترتفع عند نعي موتاهم ، و قد وجدت نفسي تتردد وتشتاق إلى ما لم تشتق إليه من قبل ، اعتقدت في البداية أني بهذا أكون ضعيف الإرادة لم أقوَ على التحمل ، و لكن لم أكن ، و إنما كان شعور الطبيب الذي يعلم أنه يعطي مسكن لألم لا شفاء له إلا بالتدخل الجراحي .. شفاء يحتاج مجازفة ، يحتاج إلى أن أقطع و أفتح جزءًا من الجلد فتسيل الدماء ، ولكن يكون ذلك في سبيل استئصال تلك الكتلة الخبيثة التي سببت كـــل هـــذا الألم ؛ لذلك أنا أقول لكِ .. أنا ذاهب ، ولكني سأعود !

التفتت إلي و بوجه ينكر ما سمعه ..

و قالت : « ذهابك ليس هو الحل .. إنهم يحتاجوك هنا » .

قلت : وجودي هنا لا يشكل فرقًا و لكنه قد يشكل هذا الفـــرق في مكان آخر .. مكان أستطيع أن أصنع منه تغييرًا .

قالت : « ولكنك تصنع تغييرًا بالفعل ، أشارت بيدها و قالت انظر.. انظر إلى هؤلاء الأطفال أنت من ساعدت أن يعودوا إلى الحياة أنت مـــن أوقفت دماءهم ، أنت من شاركت في إدخال البسمة إلى حياتهم ، ألـــيس هذا فرقًا ! أليس هذا تغييرًا ! ».

« سألتني لماذا لا أقدر كل هذا ؟ ».

أجبتها بأنه يوجد آخرون مثلي من يستطيعون أن يصنعوا هذا و أكثر ، و لكن ما قد أستطيع أن أصنعه أنا قد لا يستطيع أن يصنعه غيري .

ففي مكان آخر يجب أن يسمع صوتي، يجب أن يرى حلمي الذي صار حبيسًا وراء أسوار القيود فيشهد صبح النهار ، يجب ألا يكون حلمي أنا فقط .

قالت : « و لكنه لم يكن يومًا حلمك وحدك ، فقد جاء الكثير هنا من قبلك و دفعوا أرواحهم فداء ذلك و ماتوا بشرف و مازال يوجد آخرون منتظرين و يترقبون اللحظة ، وأنا .. أنا هنا معك .. كلنا نحلم معـــك ، فانظر إننا نلمس جزءًا منه الآن » .

قلت بقسوة : و لكنك تلمسين جزءًا محطمًا ..

مؤقتًا..

سريعًا ما سيذهب قريبًا..

إما تحت دمار الصواريخ، أو دماء الموت..

و لكن أنا من سيساعدك على أن تعيشي حلمك بدون خوف أو يأس ، ألا تحلمين أن تشهدي إشراقة الصباح بين أغصان الزيتون ، ألا تحلمين أن

تزوري باقي عائلتك فتضمينهم إليك و تقولين لهم لا بأس عليكم بعد اليوم ، ألا تحلمين بسجدة على أحجار الأقصى ، كل هذا سيكون واقعًا قريبًا.

قالت : بل أنت من يحلم ، كيف سيكون هذا واقعًا ؟ فأنت فرد ، انظر إلى الشعوب التي يتخبط فيها الفساد كما يتخبط السكران حين يذهب عقله ، انظر إلى الظلم الذي صار يرفرف في السماء حاجبًا طيور الحرية ، انظر إلى الأصوات التي هتفت و لعنت و سبت قتلة الأطفال وهادمة البيوت واللذات ماذا حدث معهم ؟ مازالوا يتحدثون و يتحدثون هل صنعوا فرقًا لا ؟! لم يحدثوا أي فرق ! .

قلت : هذا الظلم سيأتي صوت أقوى منه ويوقفه ، و سيتيقظ ضمير العالم .. سيتوقف خوف القلوب ، و ستأتي أشعة الشمس تحرق هذا الظلام مرة أخرى و ستجد الطيور سبيلها إلى الحرية و ستتنفس من جديد وترفرف ، و تلك الأصوات لن هتف هباء مرة أخرى بل سأضم صوتي إليهم و سنجبر العالم على أن يستمع إلينا و أن ندفن من أجل ذلك ، و هنا .. هنا فقط يا شهد سيحدث التغيير .

قالت بيأس : « و لكن هذا حلم طويل صعب المنال » .

قلت لها بحماسة: لا يوجد مستحيل ، هذا حجة نضعها أمامنا لكي نيأس ، فهذا اليأس يعطينا تلك الراحة التي تتعمق في نفوسنا حتى لا نفكر و نخطط و نجازف بما نملك ، هل تعلمين أن كثيرًا ما جلست أفكر و أنا أتطلع إلى صفحات التاريخ التي ترصد آمال و أحلام أجدادنا و سألت نفسي لماذا لم يقولوا كما نقول الآن ؟ لماذا لم ينتظروا مع يأسهم نزول مدد السماء و وصول المهدي المنتظر الذي سيجمع حبات مسبحة الأمة التي فرطت و ضاعت حباتها ؟ و قد كانت ظروف حياتهم لا تختلف كثيرًا عما نعيشه الآن ، فكانت شهوة الحكم و السلطان و الملك بينهم ، و كان يرفرف من الفساد ما يرفرف ، و لكن الشيء الوحيد الذي اختلف بيننا

وبينهم أنه كان فيهم عماد الدين زنكي الذي خرج من تربة صالحة و ثوب الدنيا فلم تلوثه تلك المعالم المظلمة و حمل راية الجهاد ناظرًا بعيـــدًا نحـــو القدس ، حلم و توارث حلمه غيره حتى صار حقيقة لمسها صلاح الـــدين بيده ، و نعم بها المسلمون كافة.

قالت : « ولكن ما يوجد بأيدنا نحن كي نقدمه ، ألا ترى أنك تقـــسو علينا يا أقصى تتكلم بغير منطقية و تلقي اللوم على شعب ضعيف لا يملك في يده قرارًا و لا يسمع لصوته صدى ، فإذا أردت أن يتحقق المـــستحيل فاذهب إلى الحكام لن يمنعك أحد منا ، و لكنهم هـــم مـــن ســـيمنعونك ويقفون أمامك و سيلقنونك العذاب و يتهمونك أنك تحـــرض الـــشعب وتريد أن تخل بتوازن و سلام البلاد و ربما سيتهمونك أنك عميل لدولـــة أجنبية و بعدها في آخر طريق طويل ستعيشه من العذاب .. سأقف علـــى قبرك الذي سيكون ذابلًا مجهول المعالم و أبكي » .

قلت : لكن إن حدث معي كل ما تصفينه سأكون على الأقل حاولت ، و سأموت و أنا سعيد أبتسم ☺ و سيكفيني منك أنكِ زرتني في قبري .

قالت بغضب :« ألا تيأس .. !! »

نظرت إليها بعيون راجية أن تتفهمني أن تشاركني و لكنـــها التفتـــت وذهبت، لحقت بها وأمسكت يدها وبدون أي مقدمات.

سألتها: هل تتزوجينني؟!

نظرت إلي بصمت ، ثم تركت يدي و ذهبت .

صرخت عليها بصوتي الذي يتمسك بأمل الحياة، شهد أنا أحبك.. نعم أنا أحبك، أريدك بجواري لا تذهبي.. أرجوكِ لا تذهبي ، لا تتخلي عـــن الأمل .

نظرت إلي و عينها بها لمعة أعطتها إياها دموعها الحبيـــسة، و قالـــت «ولكني لابد أن اذهب ».

قالت لي هذا ، و ذهبت لم تلتفت وراءها و كأني لست موجودًا ، وكأني لست محطمًا أبكي من داخلي و قلبي تمزقه الحسرة و ألم الوحدة .

لم أفهم موقفها أكان رفضًا ! أم هربًا ..!

أكان أملًا في نصر ! أم حكمًا بنهاية لقصة لم تبدأ ..!

أكان اعتراضًا على ! أم حبًّا لي..!

ماذا كان ؟!

***

جلست مستسلمًا علي رمال الشاطئ الذهبية ، وبعدها تركت جسدي المتعب يستريح على حبات الرمال الدافئة ، أغمضت عيني و وضعت يدي تحت رأسي و قوست نفسي و ذهبت من هذا العالم إلى عالم يرفض الظلم .

استيقظت من أحلامي على رنين الهاتف ، كان إياد يطلبني أن أسرع بالذهاب إلى المستشفى فهناك حالات طارئة قادمة يجب أن أكون هناك .

وصلت إلى المستشفى دخلت ، كان ما حولي يدور بسرعة و أنا واقف في مكاني لا أتحرك أشاهد ما يحدث و أستمع إلى من يصرخ كنت هناك بجسدي وشعرت و كأنه قد غابت روحي عني ، و كان طيفي يتحرك سريعًا يذهب هنا و هناك ، يطفو في الأرجاء الواسعة ، بهزة قوية على جسدي نفضتني ، و أعادتني مره أخرى للحياة ؛ نظرت باضطراب وكأنني لتوي قد استيقظت .

كان مدير المستشفي دكتور جمال من هزني ووقف متعجبًا وقال لي : «ما بك يا أقصي لماذا تقف هكذا ؟ »

دكتور جمال : أنا أريد أن أذهب !

قال :« هل تشعر بالتعب ؟ تعالي لأفحصك ! ».

قلت : لا لست مريضًا ، و لكني أريد أن أذهب .

قال : « انظر إلى الفوضى التي تعم المكان يا أقصى نحن نحتاجك هنا لا تذهب الليلة ».

كان دكتور جمال لا يفهم قصدي ففضلت أن أصمت الآن و أذهب معه ثم أخبره بنيتي لاحقًا ، قد شغلتنا الحالات الوافدة إلينا وانغمست يدي في الدماء ، و لأول مرة منذ أيام الجامعة لم أطق النظر إلى لون الدماء ، وشعرت نفسي وقد ملئت بالاشمئزاز و وجدتني أتقيأ رغمًا عني .

جاءت إلي الممرضة ليلى ..

- « دكتور أقصى ما بك .. يبدو أنك مريض اذهب واسترح ».

أخذتني كما يأخذ من فقد توازنه و أجلستني في الغرفة المخصصة للأطباء و ناولتني كوب ماء و ذهبت لتتابع الحالة و قبل أن تتركني سألتني لتطمئن علي : « هل تشعر بتحسن ؟ »

أومأت برأسي علامة الإيجاب ، و لكني لم أكن أشعر كذلك فقد دب في جسدي إحساس بالبرد و كان هناك رعشة خفيفة ظلت في تزايد مستمر .. زادت إلى أن لم أعد أتحملها .. لا أعلم ما أصابني ! و لكن سقط كوب الماء من يدي ، و خار جسدي الذي استند بقوة على المقعد ، و كأني كنت على وشك أن أحطمه من ثقلي .

دخل إياد إلى الحجرة و كان معه معتز يتحدثان ، و عندما فتحا الباب وجداني كالمشلول الذي يحاول أن يتحرك .. تقدما إلي بسرعة ، أمسكني إياد بارتباك و كان يهزني لأجيبه.

ناداني : « أقصى .. أقصى ما بك ! تحدث يا رجل ! » .

لم أستطع أن أجيب عليه ، و كأنه قد شل لساني كنت فقط أنظر إليه ولا أنطق .

خرج معتز مسرعًا ليطلب العون عندما رآني جثةً هامدة.

أمسكني إياد و حاول أن يرفعني أكثر و يقعدني جيدًا على الكرسي ، وعندما فعل استند رأسي المتعب على صدره ، و عندما طال غياب معتز ، فقرر إياد أن يذهب ليستعجل القوم فكانت حالتي تزداد سوء .

قال لي « لن أتأخر؛ سأذهب لأنادي عليهم ربما لم يجد معتز من يساعدنا فأنت كما رأيت المستشفى مزدحمة بحالات كثيرة »

تركني و عندما فعل وقعت رغمًا عني على الأرض و سقطت مغشيًّا علي .

لا أعلم ماذا حدث ؟ إلا أني عندما استيقظت و جدت يدي أسيرة لأسلاك تتساقط منها قطرات ، قطرة بعد الأخرى ، و بجواري إياد يعصر قماشة مبتلة تأتي منها حرارة باردة و عندما تأكد أنها لا تقطر ماء وضعها بقوه على رأسي فتشنج جسدي كله من برودتها ، و لكن بعد لحظات أعطاها جسدي من حرارته المرتفعة مما جعلها تدفأ سريعًا فأعتاد عليها .

قال إياد و هو متعجب : ماذا حدث لك يا أقصى ؟ كنت بخير! .

أجبته بصوت منخفض قد أخرجته من داخل .. داخل نفسي المتعبة : لا أعلم ! و لكني فجأة شعرت بالتعب.

قال لي: لا بأس عليك .. ستكون بخير إن شاء الله ، فهد و عمر في طريقهما إليك قد هاتفتهم سيكونون هنا في أي لحظة .

قلت متذمرًا : أكان يجب أن تخبرهما ! ما الداعي ! ؟

قال إياد : الداعي أنك تحتاج إلى أصدقائك ! ، ونحن هنا بجوارك .

فتح فهد و عمر الباب بقوة، ربما كان هذا بسبب الشوق أو الخوف علي ، لذلك لم أنتبه لصوت الاصطدام القوي ، و لكن سمعت لصوت الحب .

عكس إياد الذي قطب جبينه و قال لهما : لماذا تأخرتما ؟ و الدخول بعد طرق الباب ، و بهدوء ! فيوجد مريض هنا يحتاج إلى راحة.

– أنا لست مريضًا بعد الآن ، فأشعر بتحسن و الحمد لله ، أستطيع العودة إلى المترل .

هممت بالنهوض عن السرير فأوقفني إياد و رد علي غطاء السرير وقال غاضبًا : أنت تمزح .. تمزح ، هذا الرجل يمازحني يا فهد .. انظر يا أقصى حرارتك وصلت إلى الأربعين يا رجل .. ألا تهتم بنفسك يجب أن تستريح حتى أقرر أنا متى تعود إلى المترل فأنت لم تعد الطبيب الآن ، أنا طبيبك وأنت المريض هل تسمعني ؟!

تركنا إياد بعد أن أوصى عمر و فهد بي ، و شدد عليهما الكلام أن يمنعاني من النهوض إذا أردت ذلك ، أعجبتني لمتهم حولي و التفافهم إلي والاهتمام الذي ظهر منهم لي، و كان عن حب حقيقي افتقدته منذ وفاة أمي .

جلسا بجواري يكلماني و يضحكان معي و لكن كانا يخفيان بداخلهما لمعة خوف استطعت أن أراها و ألمسها ، فقبل أن يذهب إياد أخذه فهد وكلمه بصوت منخفض يسأله عن حالتي فذهب إياد و فهد إلى الخارج ولم أكن أعلم لماذا ؟ بصراحة شعرت ببعض القلق فنحن الأطباء دائمًا ما نناقش حالة المريض مع عائلته و نبتسم في وجه المريض نفسه و نقول له ستكون بخير ، و لكن تكون الحقيقة عكس ذلك ، و ما جعلني أشعر أن إحساسي حقيقي لأنه عندما عاد فهد .. عاد بغير الوجه الذي ذهب به ولما مال عليه عمر يسأله دمعت عيناه و نظر إلي يبتسم.

بعد فحوصات كثيرة أجريتها سمح لي إياد أن أذهب للمترل على شرط الراحة و عدم الإجهاد ، و عندما سألته عن نتيجة الفحوصات قال مطمئنًا قد ظهر بعض منها و لكن حتى الآن لا يوجد شيء خطير .. قال أعني .. مجرد تعب عارض، و مادمت بخير يا بطل تستطيع الذهاب لتوفر سـريرك لمريض آخر يحتاجه حقًا، ثم ابتسم لي ابتسامة باردة.

لم أفكر بما يحمله كلامه و لكن كنت مسروراً للعودة إلى المترل ، ورغم ما أشعر به من تعب إلا أني و لأول مرة أشعر بلذة و مأوى هـذا المـترل البسيط بالنسبة لي ، و عندما جال في خاطري أفكار عن الذهاب و قراري الذي لا ينقصه سوي الإعلان .. إعلانه على من أحب .. إعلانه على من صاروا أهلي و أصدقائي ، دب في لوعة الفراق الذي اعتقدت أنها فارقتني.

أما عن شهد فحبها الذي أصبح يعيش في و معي، فلن أتخلـى عنـه وسيبقى بداخلي و إن كان حتى مصيره الفراق .

وصلت إلى المترل و دخلت و أنا أستند على عمر، و عندما وصـلت كانت المفاجأة هناك.. تنتظرني !

الفصل الخامس

شَتْلَةُ زَيْتونْ

أكان من حقي أن أختار، أكان علي في الأصل أن أختار..!!

لا.. لا أعتقد ذلك، ربما كان اضطرابي عند سؤال فهد لي في تحديـــد موقفي .. أين سيكون مكاني؟ فأي جبهة سأحارب ، جبهة الحـــب .. أم جبهة استرداد الأرض ، كان اضطرابًا .. اضطراب أحـــد لم يوضـــع في موضع اختيار من قبل بل عاش لحلم و هدف واحد بات نهاره و ليله عليه حتى تخلل بداخل شريان روحه فصار جزءًا منه لا يستطيع الانفصال عنه.

لم أتذمر يومًا من قبل على الحياة التي أعدتني أمي من أجلها ، عن فكرة الجهاد و السعي وراء تحقيق هدف واضح كان بالنسبة لها حقيقة آجلًا أم عاجلًا ستتحقق ، إلا أني بعد تفكير عميق أدركت أني لم يكن لي أي فرصة للاختيار ، فتساءلت عما ستكون حياتي إذا عشت بعيدًا عن هذا الدرب !

كيف سيكون لونها و شكلها ؟

أعتقد أنني سأكون إنسانًا عاديًا جدًّا.. نعم ، إنسانًا يبتسم فرحًا مـــن أي مزحة صغيرة ، منطلقًا يأخذ الحياة بين ذراعين مفتـــوحتين بـــدون أي خوف .. بدون أي التفاتة إلى الوراء ، ربما لأن صوت المغامرة بـــداخلي سيكون قويًا ، أقوى من قيود الأسر .

و بنظرة سريعة على فهد و عمر، تساءلت يا ترى كيـــف ســـأكون لو.........؟

قطعت أفكاري تلك المفاجأة التي تسللت بداخلي فأيقظـــت شـــعورًا جديدًا.. شعورًا مختلطًا من السعادة و الفرح، و معه شعور آخر من حزن عميق يقطر عليه بعض الذنب.

قال فهد : هل أعجبتك تلك المفاجأة ؟!

ابتسم عمر لي و أشار إليها و قال : لقد فكرنا كثيرًا قبل أن نهديك هذه الهدية .

سألته و ما المناسبة ؟.

قال إياد الذي جاء و كان صوت شهيقه يسبقه و كأنه قد أتي يجري : و هل نحتاج إلى مناسبة لإهدائك هدية ؟

قلت له : الم أتركك منذ قليل في المستشفى ! من أين جئت ؟

قال: لم أكن لأضيع علي نظرة عينيك عندما تراها.

قلت لهم و قد غلبني إحساس من الحب و الامتنان تجاههم : حقًّا لا أملك ما أقوله قد وقفتم بجواري في مرضي و كنتم مثل إخوتي و بعد كل هذا تهدونني هذه الهدية القيمة ، مع أنه يجب أن أكون أنا من يفعل ذلك ، جرفت مشاعري أكثر و دمعت عيناي و نزلت منها بعض الدموع القليلة التي أزلتها سريعًا ، تجمعوا حولي و قالوا :

" نحن أخوة يا أقصى صحيح لم يربطنا رباط الدم و لكن قد ربطتنا القضية، رباطنا رباط عربي أصيل، فالعربي يعلم جيدًا قيمة الإخوة ".

تقدمت بخطوات نست أوجاع الجسد و أمسكت بهديتي التي كانت معناها الحقيقي أغلى بكثير من ثمنها، و قد كانت شتلة زيتون..

شتلة ستدفن في أرض فلسطين، و ستنمو و تمتد جذورها في أعماق.. أعماق الأرض .. أعماق فلسطين فلن يستطيع أن يترعها أحد..

كانت شتلة زيتون سوف تنبت تلك الحبات البكر التي ستعصر و تخرج منها هذا الزيت الناعم اللذيذ المذاق الذي سيختلط مع كل طعام نأكله فيطبع عليه طعم و ريح هذه الأرض الطيبة.

كانت شتلة الزيتون ستكبر و تنتشر فروعها التي ستمتد عاليًا نحو السماء فتعطي من الظل و المأوى لمن يطلبه .

إنها شتلة زيتون ..

إنها أنا ..

في أي مكان سأذهب ستكونين هناك ممتدة بالداخل.. عميقًا، فإن تركتك و بعدت عنك ستكونين هنا.. هنا انظري .. فأنتِ في قلبي ، سامحيني إن لم أكن موجودًا بجوارك أشهدك و أنتِ تكبرين رويدًا .. رويدًا ، و تمتد فروعك عاليًا نحو السماء ، اعذريني لأنني سأكون بعيدًا أدافع عنك كي تكبري بدون أن يقتلع جذورك أحد فيؤلمك و يؤذيك ذلك ، أنت صرت.. أنا ، تذكري ، فأنا .. أنت، لذلك سأحافظ عليك حتى يجمع الله بيننا الطريق نحو القدس.

أراك تودعها...

التفت .. كان فهد، واقفًا يعقد يديه أمام صدره، ينظر إلي و كأنه قد مضى دهر على آخر لقاء بيننا، كانت بداخل عيونه نظرة حزينة تختفي أمام نظرة اللامبالاة .

قلت : لماذا تنظر إلي هكذا ؟!

شاح بوجهه بعيدًا عني و قال بلهجة امتعاض و بصوت مخنوق : قد علمت أنك أخبرت مدير المستشفى عن رغبتك في الذهاب مع بداية السنة الجديدة ، أهذا صحيح ؟

قلت له : نعم .. هذا صحيح !

و لكن ما الجديد في هذا يا فهد، أنت تعلم عن رغبتي في الذهاب.

قال بصوت متقطع يظهر عليه غضب: و ل... .... ولكني .... و لكني لم أكن أتخيل أنك ستفعلها، أ............. أ...عني أعني ما

عهدتك بجبان أو هارب فعلى طول معرفتي بك كنت أنت من يمدني بالقوة و الثبات في وقت تخلت فيه نفسي حتى عني .

صرخت فيه بدوري و لكني لست أذهب لأهرب أو أختفـي ، إنما سأذهب لأبدأ حربي .. حربًا بدون دماء بدون خسارة ، حربًا تجمـع و لا تفرق ، حربًا تنصح و لا تلوم ، حربًا آخرها صرخة فرح و ليس صرخة ألم ... فكما قالوا " ما لم يؤخذ بحد السيف يؤخذ بتدبير و حكمه العقل " .

أنت تعلم هذا يا فهد ، اعتقدت أنك ستكون أكثر من يفهمني .

سألني عن شهد ، ماذا عنها ؟ أستتركها !

لم أجبه !

قال : يبدو أنك قررت أن تختار الأرض عن الحب ، أم أقول أنه كتم صوت الاختيار بداخلك !

قلت غاضبًا :ماذا تريد يا فهد ؟ لماذا تتحدث بما لا تعلمه ؟

قال : أنا أعلم جيدًا أنك تحب شهد .

و لكنها لا تحبني يا رجل ، فماذا أصنع ؟ هل أجبرها ؟

إنها تحبك يا أقصى و لكنها مشتاقة لأرضها .. لقد حرمـت منـها ، فكيف بعد أن وجدتها تطلب منها أن تتركها بكل بساطة و تذهب معك؟

نظرت إلى عينيه و قلت بثقة: لأنه لا يوجد أي وسيلة أخرى.

قال مصدومًا بعد أن رأى نظرة عيني: أراك.... أن.... ك ، ستـرحل حقًا ! اعتقدت ....

قلت مؤكدًا لكلامي : نعم سأرحل فهذا ما كنت أحاول أن أشـرحه لك ، ولكنك مازالت تخدع نفسك و توهمها فلم يعد هناك فائدة من البقاء .قال: و لكن ماذا عن غزة ؟ أنتركها للقصف هكذا دون أن نصنع شيئًا .

قلت : لماذا يلومني الجميع على غزة ؟ ، إنما أنا رجل واحـــد فمـــاذا سأصنع وحدي؟ .

قال : إنك لست وحدك ، أنا معك .

قلت : نعم معي و لكن قد تختلف السبل و تتوحد الغاية .

فأنت هنا تسير نحو خطواتك بين الأشواك و العطـــش و هنـــاك مـــن سيتبعك و هناك من سيفيق من غفلة الألم و اليأس.. فينظر إليك و يستمد من صمودك القوة التي يحتاجها فأنت هنا.. و أنا سأكون هنـــاك أســـلك طريقي بين عقول البشر أحدثهم تارة بالمنطق ، و تارة بالإنسانية ، و تارة بالخوف ، و هذا يكفي ، أليس كذلك !

أطلقت يدي بعيدًا و قلت: انظر .. انظر يا فهد ، فأنا و الله أرى البئر من مقامي هذا كما تراه أنت أراه يلمع و ينادي على القوم ليفوزوا به ، ألم تعد تراه يا فهد ! ... ألم تعد تحلم بالذهاب إليه !

قال : نعم أراه و لكني تمنيت أن تكون بجواري ، و تكـــون خطواتنـــا متلاصقة !

قلت : و لكني معك بقلبي يا فهد ، فمهما بعدت سأعود ، فانتظرني .. انتظرني سألاقيك هناك ، كما رأيتني هناك من قبل .

مددت يدي لأصافحه .. لأصافح فهد حتى أوثق بيننا هذا العهد مرة أخرى ، مد يده إلي و لكنها كانت لم تكن كما عدتها من قبـــل فكانـــت ترتعش .. فقد كان يهتز ..

و عندما تلامست أيدينا جلس على الأرض يبكي ...

شق علي بكاؤه بل صدمت له فلم أعهده بهذا الضعف من قبـــل و لم أتوقع أني سأراه هكذا ، أسرعت إليه و وأمسكت رأسه و أسندته علـــى كتفي ، فأخفي رأسه بضعف بين جسدي و سألته ، ماذا يبكيك ؟

قال لي : الفراق ! .. إنه الفراق يا أقصى !

قلت بحسرة : أتذكره نعم الفراق ..

قد أصابني طوال عمري فنصيبي منه كان كبيرًا ، فقد فارقنا أبي منـــذ كنت صغيرًا ، و في ريعان روح الشباب فارقت أنا أمي و عائلتي ، و الآن أعتقد قد حان الوقت لأفارقك أنت أيضًا يا فهد .. حان الوقت لأودعكم أنتم عائلتي الثانية .

قال بانهيار : و لكني لم أعد أقدر عليه أكثر من ذلك، قد تمزق القلب منه ، و ما عدت أتحمل ضربة أخرى ، شدني من ملابسي ..

خبط على صدري بيده المرتعشة ..

وقال : أنت أخي يا أقصى .. أتسمعني .. أخي ، و يشهد علـــي الله أنك أصبحت عزيزًا علي .. حبيبًا لي ، و قد أبذل روحي و دمـــي مـــن أجلك .

عبرت حرارة أجسادنا عما يدور في أروحنا فالتصقت سويًّا، واختلطت دموعنا معًا و تساقطت في تربة الأرض.. تربة فلسطين، و عنـــد جـــذع شجرة عتيقة حفرنا أسماءنا، و تعاهدنا أن نجتمع هناك مهما طال الوقـــت، واشتد بنا الفراق.

***

لامست يدي قلبي المضطرب و كأنه صار كمثل صوت محرك القطـــار الذي يصدر منه أنين تتزايد نغماته كلما زاد من سرعته "

ط........................ه ،ط.................ه "

راقبتها عيني وهي تلعب وسط الأطفال، و كانت قد اندمجت ابتسامتها مع ابتسامتهم، كانوا كيانًا واحدًا يتحرك، كمثل سرب طـــير يحلـــق في

السماء الواسعة، فعلي الرغم من أنه قد تختلف حركاهم إلا أهم دائمًا متصلون متقاربون.. متماسكون، يمشون في اتجاه واحد.. اتجاه ثابت.

ودعتها بعيوني و بقلبي ..

آه كم تمنيت .. كم تمنيت أن تلتفت..

أن تنظر إلي ..

تنظر إلي و لو حتى للحظة، فكل ما كنت أحتاجه منها هي لحظة .

أردت أن أنتظر فقد أخذني الأمل نحو طريقه ، كنت أشعر أني إذا ذهبت الآن فسيتملكني الندم طوال عمري لأني لم أتطلع إليها و أملأ نفسي من عيوها ووجهها المضيء المبتسم ، و لكن سريعًا ما يفرض علي الواقع اختياره هو .. فمع قطرات الأمطار المتساقطة و هواء تملؤه البرودة تركتني شهد ، فمنعتني حتى من الاستمتاع بالنظر إلى وجهها .. دخلت سريعًا وهي تضم إليها الأطفال تحميهم من أمطار الشتاء القارسة.

سرت في الشوارع أستمتع بتلك القطرات التي سريعًا ما ازدادت وصارت و كأنها سيول تنزل من السماء. استمتعت بها رغم برودها وحدها، تركتها تتساقط علي فكنت أحتاج إليها بقوة.. أحتاج إليها حتى تغسل أحزاني و تشفي جراحي ، جراح الحب و الفراق ، جراح ألم المستحيل ، قد سمحت لها أن تبدأ معي مشواري الجديد .

وصلت إلى المستشفى و قد كان آخر يوم لي ، و لكني عندما وضعت قدمي على أدراج سلمها شعرت وكأنه أول يوم لي .. أول يوم تدوس قدمي على أرضها..

أول يوم تشم أنفي رائحتها.. رائحتها التي تفوح منها رائحة المطهر الذي يوضع أول شيء لتطهير جروح سالت منها دماء و نزفت ، جروح أصبح حاملوها موتى ، و جروح تركت من الندبات ما يجعلك تتذكر

الهزيمة ما يجعلك تتذكر قلة الحيلة و الضعف ، جروح أغلقت من الخارج ولكنها عجزت أن تتداوي من الداخل .

قابلني الجميع بابتسامة شعرت بصدقها لأنها كانت حزينة ، فقد كنت حزينًا أنا الآخر، و كم دعوت الله أن يحدث شيء يمنعني من الـــذهاب ، ولكن كان دائمًا يرد عقلي علي و يقول أنك تعلم ما من سبيل آخر .

فترد عليه نفسي و تقول له : لكن الشبكة العنكبوتية قد كسرت كل الحدود فصرنا عالمًا واحدًا واسعًا تتخالط فيه جمع الأجناس و الأعـــراق ، فهناك " الفيس بوك " و " تويتر " و غيرها من الوسائل تستطيع أن توصل صوتك من خلالها و أن تصرخ عاليًا فيستمعوا إليك ، نعم قد نستطيع أن نبدأ من هنا .. هنا على أرض فلسطين .

فيرد عقلي عليها : في هذه الظروف .. صعب ، صحيح أنك قد تنقل الوضع و الصورة التي تراها هنا و لكن من كثرة تكرارها قد اعتاد الناس عليها فصاروا يغلقون التلفاز عندما يرونها ، و يتجاوزون الصفحات التي تكتب عنها ، و يغلقون الآذان عندما يسمعون صدى صرخاتها .

قالت نفسي :إذن هم يهربون ، نعم يهربون مـــن ضـــمائرهم فهـــي مستيقظة و لكنها خائفة تشعر أنه لا يوجد أمل لا توجد وسيلة ، و لكن أنا من سيساعدهم .. أنا من سيفتح الطريق مرة أخرى أمامهم ، و أزيل هذا الخوف من داخلهم .

ضحك عقلي و قال : و من أنت ؟

ردت نفسي : أنا أقصى ! فأنا منهم وهم سيستمعون إلي.

و لكن في النهاية انتصر عقلي فقد أتى بحجة قوية، قد أتى بحجة الـــدم والقهر ..

قال لي إنك من فلسطين قد تكسب تعاطفهم و دموعهم، و لكن من خارج فلسطين قد تكسب أيديهم .. أيديهم التي يجب أن تتجمع و تتوحد

فتصير مزيجًا واحدًا غير منفصل مثل عربات القطار التي تسير سـريعًا في اتجاه واحد لهدف واحد، فتقضي على من يقف أمامها.

فتحت خزانتي و أول ما رأيت كانت صورة علقتها هنـاك في أعلـى الباب ، كان فيها إياد و عمر و فهد و أنا ، قد أخذناها يوم ذهبنـا إلى مخيم الشاطئ كنا جميعًا نجلس في نصف دائرة وسطنا أكواز الذرة الـشهية و خلفنا البحر .

تأملت أناملي هذه الصورة ، و كأني عدت معها إلى الوراء ، عدت إلى حيث كانت توجد السعادة .. عدت حيث أمواج البحر العاتية .

أخفيتها في قمصي حيث وضعتها في جيبي لتكون قريبة من قلبي لتمثل لي ذكرى لأيامي القادمة. ثم بدأت أفرغ ما في الخزانة قطعة .. قطعة ، وأنا أتذكر كيف وضعت كل واحدة منها و جاءت إلي هنا .

فمعطفي الأبيض المكتوب عليه اسمي ، و سماعتي السوداء التي أهداها لي معلمي حين تخرجت من الجامعة و كنت الأول على دفعتي ، و مصحفي الذي حملته أمي بين كفيها و وضعته على صدري و قرأت منه على رأسي و قالت قد أودعتك يا أقصى مع من لا تضيع عنده الودائع .

تدفقت الذكريات و أبت أن تتوقف ، فذكرى، وراء ذكرى .. وراء ذكرى ..

حتى بدأت الدموع تنهار .. انهارت من عيني فزاد صوت نحيبي ، فما وجدت نفسي إلا و أنا أنهار علي أرضية الحجرة ، و وضعت يدي علـى فمي بقوه حتى أكتم صوت بكائي و أنفاسي اللاهثة المتسارعة ، فقد دب في ضعف و تملكني الخوف ، لكني لم أرد أن أشاركهما مع أحد .

جمعت شتات نفسي و وضعت أشيائي في حقيبتي و نظرت إلى الخلف..

ألقيت نظرة أخيرة علي الحجرة التي ضمتني ، أغلقت بابها ورائي وكأني بذلك أغلق آخر صفحة لي من كتاب حياتي هنا ، و تقدمت إلى الأمام أقصد باب المستشفى مفرغا ما في رأسي و قلبي .

أكنت ستذهب بدون وداع يا أقصى !

كان صوت الدكتور جمال هو من يتحدث ، التفت إلى الخلف ببطء ، و رأيته قد وقف ضامًا يده بالقرب من صدره ينظر إليّ .

سريعًا ما تجمع من حوله عدد كبير من الأطباء و الممرضين ، و وقفوا في حشد كبير كلهم ينظرون إلي و كانت ترتسم على محياهم هيئة جادة حزينة ..

هل كانت هذه وقفة وداع لي ؟!

نعم .. تبدو كذلك .. كانت كذلك !

بدون أي كلام تقدم إلي دكتور جمال ، و بيد مفتوحة ضمني إليه ، ثم نظر إلي و قال : سنفتقدك يا أقصى !

و ما لبث أن تركني حتى رأيت هذا الحشد ينقسم نصفين و تخرج منه أضواء عالية و زينة قادمة مع قالب كعك كبير مكتوب عليها اسمي وبجوارها صورة الأقصى. و عندما وصلت أمامي ، رفع الجميع أيديهم بالتصفيق الحار و الصياح بصوت عالٍ ، و قالوا أقصى .. أقصى .. أقصى

عاودت تلك الأفكار و الذكريات تتدفق إلى عقلي مما جعل دموعي تنزل مرة أخرى فلم أستطع أن أوقفها ، و نطق لساني بما يحمله قلبي من مشاعر الحب تجاههم ، نطق بما أشعر .

" بين الدموع و السعادة عشت بينكم ، حلمت وسطكم بالحياة .. الحياة التي مع تقديركم لها ، إلا إنكم على استعداد لتبذلوها من أجل أرض هذه البلد .

عندما أنظر إليكم الآن أجد نفسي تعز عليها أن تقول وداعًا ، فكيف أقف بينكم و أودعكم و قد أصبحتم تحتلون في نفسي و قلبي الكثير ، آه لو تعلمون كم هذا صعب !

أعلم أنكم أحببتموني و أنا أيضًا أحببتكم ، و كم تمنيت أن أبقى بجواركم إلى الممات ، و لكن الأقصى ينادي و يصرخ فيجب أن أجيبه يجب أن أحارب لأجل إنقاذه كما تحاربون أنتم !

قد يعتقد البعض أني فضلت الذهاب لأني لم أتحمل الحياة هنا و صعوبتها ، إلا أني لم أقرر الذهاب إلا رغبة مني أن أغير هذا الواقع المؤلم الذي تحيونه هنا ، نعم قد أنجح ... و قد أفشل و لكن على الأقل سأكون قد حاولت .

قالوا لي إذا لم تستطع أن تكون قويًا تتحمل قسوة الحياة فلن يبقي لك غير الوحدة و الموت ، نعم سنموت و لكن لن نموت ضعفاء مختبئين بين الأزقة ، و لكننا سنخرج علي العالم نصرخ حتى الموت لنعيد حقنا المسلوب ، سنجبرهم على أن يستمعوا إلينا حتى لو كلفنا هذا الدم ".

قلت وداعًا ...

و خرجت من الباب نحو دربي المجهول لا أملك غير حلمي و عزمي .

أمسكت حقيبتي و أسندها على ظهري و أنا أتطلع إلى القمر في بدره وهو ينير هذا الظلام .. تذكرت كلمات عبد الوهاب حين قال .

يا وابور قول لي رايح على فين ..

يا وابور قول لي وسافرت منين ..

يا وابور قول لي ...

قربت غريب وبعدت قريب ..

وجمعت حبيب على شمل حبيب ..

والقرب نصيب والبعد نصيب ..
ما تقول يا وابور رايح على فين ..
إن طال الوقت على الركاب ..
يجري كلامهم في سؤال وجواب ..
بعد شوية يبقوا أحباب ..
وده يعرف ده رايح على فين ..

أنا رحت معاك ورجعت معاك ..
وأنا إيه كان مقسوم لي وياك ..
دي كانت نظرة من هنا لهناك ..
العين عرفت رايحين على فين ..
يا وابووووور ....

سريعًا ما وصلت إلى المترل و أنا أدندن تلك الكلمات ، وضعت المفتاح في باب المترل ، و عندما فتحته كانت الدنيا ظلامًا حيث كانت الكهرباء منقطعة فأخذت القداحة من جيبي لأحصل منها على ما أحتاج إليه من ضوء لينير لي الطريق ، و عندما دخلت شعرت بيد توضع على كتفي .

تملكني الرعب و انتفض جسدي كله وأسقطت ما أحمله في يدي ، فانطفأ نور القداحة و ساد الظلام مرة أخرى .

بسم الله الرحمن الرحيم ...

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ...

بسم الله الرحمن الرحيم ...

صرت أكررها مرارًا و تكرارًا ، حتى كشف الصوت عن صاحب اليد .

ضحك عمر هههههههههههههههه ، هل خفت يا أقصى ؟

كان سيتملكني الغضب منه ، و لكن ضحكات كل من إياد و فهد أوقفتني ، فما وجدت نفسي إلا و أضحك أنا الآخر .

قال عمر : أردنا أن نمزح معك قليلًا ، فقد لا نستطيع أن نمزح معك مرة أخرى ، و ربما يخفف ذلك من ألم فراقك يا أقصى .

فما الشيء الذي يستطيع أن يهون علي ألم فراقكم ؟

تساءلت في نفسي بصمت ، و أنا أتأملهم على ضوء الشمعة الخافت .

كان الغد هو آخر يوم أملكه لذلك قررت ألا أضيع هذه اللحظات بين الدموع . ضحكت أو اصطنعت ضحكة ، قلت بنبرة بها بهجة كبيرة : ماذا سنصنع الليلة ؟

نظروا إلي ، ثم تتطلعوا إلى بعضهم في حيرة و سألوني : ماذا تريد أن نفعل ؟

هل نذهب إلى الشاطئ ؟

قال إياد : لا .. الجو بارد و أنت في فتره نقاهة ؟

قال عمر : نعم الجو بارد فلذلك نحتاج إلى طعام لذيذ دافئ .. ما رأيكم أن نذهب إلى مطعم الشاورما ؟

قال فهد : و لكننا قد أكلنا شاورما لتونا على الغداء ! فماذا عن المقهى ؟ نجلس هناك نشرب قهوة و نلعب الشطرنج !

أعجبتني الفكرة للغاية فقد افتقدت الجلوس وسط الناس و الاستماع إلى حكاياتهم و قصصهم اليومية و أرائهم السياسية و مزحهم على القيود التي وضعتها السلطة الإسرائيلية عليهم ، و افتقدت مذاق القهوة المهوجة بالحبهان و المستكة و غيرها من الإضافات التي تعطي لمسة نعومة عندما يتحد حافة الفنجان و الشفاه فتتذوق أطراف اللسان الطعم ثم تدع باقي الفم يحصل عليه

والشطرنج .. لعب الشطرنج .. لعبة الأذكياء كما يقال عليها ، فهي فعلًا كذلك .. تدرب العقل و تنشطه في عصر صارت الإلكترونيات هي وسيلته الوحيدة .

خرجنا نتشابك الأيادي ، كنا نضحك .. ضحكات تخرج من القلب ، أمسكت يدي عمر و تأبطت ذراعه و فعل فهد مع إياد كذلك .

على رغم من برودة الليل إلا أننا رفضنا أن نركب السيارة و فضلنا أن نذهب سيرًا على الأقدام لنستمتع بكل دقيقة نملكها معًا .

كان طريقنا مليئًا بالذكريات التي مرت علينا ، صحيح سمحنا للذكريات أن تعود و لكن أوقفنا الدموع ، منعناها أن تسيل و أن تفسد علينا بهجة هذه اللحظات .

وصلنا إلى المقهى ، كان مزدحمًا للغاية ، فهناك من جاء مع عائلته وهناك من جاء مع أصدقائه ، كان هناك أطفال و رجال و شيوخ و نساء كلهم متجمعون بين ذويهم .

يمرحون .. يتحدثون بصوت عالٍ ، و يضحكون و كأنهم ليسوا على هذه الأرض ، كانت رائحة النارجيلةِ تعم المكان و الدخان الذي ينبعث منها أحاط الوجوه .

طلبت من الرفقاء أن نجلس بالخارج حيث الهواء المنعش بعيدًا عن الأدخنة رغم برودة الجو ، و عندما جلسنا طلبنا قهوة و شايًا ، و طلب

عمر و هو يبتسم نارجيلة ، كان يبتسم لأنه يعرف جيدًا أني لا أحبها ولكن مع ابتسامته لم أكن أملك غير أن أرد عليها بابتسامة أخرى .

قال لي : « بلادكم فيها من العجائب الكثير و النارجيلة منها » .

قلت : نعم ، هي عجيبة .. عجيبة في كيفية تدميرها لرئة الإنسان ، فسبحان الله يخلقنا في أحسن صورة و نحن من نشوه أنفسنا ببعض دخان .

قال إياد : النارجيلة يقال أنها أخطر من السجائر .

قال فهد و قد أخذها و وضعها في فمه بتحدٍ ، و بعد نفس طويل أخرجه من أنفه و أخرج بعضه من فمه ، « إنها المأوى ! »

قلت له : و أي مأوى تتحدث عنه إنها الهروب !

قال : نعم إنها مأوى اليائس الذي لا يملك شيئًا .. لا يملك أن ينتقم من الظلم الذي عاشه و مازال يعيشه ، فلا يجد إلا نفسه أمامه ، وهذا الذراع الطويل الجميل يخرج منه دخان لذيذ الطعم و الرائحة .

قلت : فيدمر نفسه بها إذن !

قال : لا إنما هي المخدر الذي يسبق العملية .. فسريعًا ما تزول آثاره وتعود قويًا من جديد !

قلت : كيف يكون ؟

قال : لأن الموت يحتاج إلى ذلك ! فانظر بالداخل ستجد على الأغلب أن معظم هؤلاء القوم الذين تظهر ضحكاتهم و سعادتهم قد فقدوا فردًا من عائلتهم ، وقد دمر منزلهم ، و رحلوا عن بلادهم ، لقد تعرضوا لكل أنواع العذاب النفسي الذي قد يتحمله أحد ، و لكنهم رغم ذلك مازالوا صامدين يضحكون ، فلماذا تضن عليهم بهذا الدخان القليل ؟ نعم إنه قد يتلف صدورهم و لكن لن يكون كمثل ما أتلفه الاحتلال ، و الآن عرفت لماذا هو المأوى ؟

قال عمر : ما جئنا لذلك ، فأين الشطرنج ؟

قررت أن أعطي لنفسي هذا المخدر اللذيذ و أجربه و لو لمرة واحدة ، أخذت نفسًا عميقًا و تركت الدخان يدخل إلى فمي و يتعمق إلى رئـــتي، وعندما فعلت لا أعرف ماذا حدث ؟ ، و لكني شعرت أنني أختنق وبدأت أسعل و احمر و وجهي و دمعت عيني .

ضحكوا علي .....

أخذ فهد يخبط على ظهري و يضحك ، و يضحك .. يقول هل أنت بخير ؟

أعطاني عمر كوب الماء ، اشرب .. اشرب و دعك من هذا الـــدخان اللذيذ .

هدأ صدري و عندما شعرت بتحسن بدأت دور الشطرنج .

جلسنا قرب أذان الفجر نلعب .. كانت النتيجة هزيمة فهد أمامي ممـــا جعلني أشعر بنشوة الانتصار وكأني ظفرت لنفسي ، و تعادلنا أنا و عمر، أما إياد فقضى الوقت يعلق علينا متجنبًا اللعب .

الله أكبر .. الله أكبر ..

أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن لا إله إلا الله ..

أشهد أن محمدًا رسول الله .. أشهد أن محمدًا رسول الله ..

حي على الصلاة .. حي على الصلاة ..

حي على الفلاح .. حي على الفلاح ..

الصلاة خيرٌ من النوم .. الصلاة خيرٌ من النوم ..

الله أكبر .. الله أكبر .. لا إله إلا الله ..

توضأنا ..

و صلينا ..

و خطب فينا الشيخ عن فضل الصبر و ما هو جزاء الصابرين ؟ ، حيث أنهم يدخلون الجنة بدون سابقة حساب فقد صبروا على قضاء الله واختباره لهم ، و ذكر من الآيات الكريمة ما يشهد بذلك

﴿ وَبَشّرِ الصّابرينَ * الّذِينَ إذا أصَابَتهُم مُصِيبَةٌ قَالُوا إنّا لله وَإنّا إلَيهِ راجِعُونَ * أولئك عَلَيهِم صَلَواتٌ مِن رّبِهِم وَرَحمَةٌ وَأولئِكَ هُمُ الُمهتَدُونَ ﴾

فدعا أهل غزة إلى الصبر و الاحتمال فإن فرج الله قريب ، و تحدث عن الإنسان و ذكر قول الله تعالى (وَكَانَ ٱلإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) فهو من خلقه الله و رحمه و أعطاه من النعم الكثير فإذا حاز من الدنيا ما يكفيه يطمع و يطلب المزيد و ينظر إلى ما في يد غيره ، و إذا نقص و أخذ الله هذه النعمة أو إحدى النعم التي منحها الله إياه و لم يكن يشكره عليها ، تذكر الندم و علم قيمتها و لكن يكون قد فات الأوان ، و قد أنعم الله عز وجل علينا بهذه البقعة الطاهرة حيث عرج عليها أنبياؤه و دفن بعض منهم فيها ، فتحها عمر و كبر الصحابة لاشتياقهم للمسجد الذي صلى فيه رسولهم إمامًا بالأنبياء و المرسلين ، و لكن ماذا حدث بعد كل هذا العناء ، و الجهاد ؟ .

ضاع ..

و اعلموا أنه ما ضاع إلا بأنفسنا، و دنيانا التي أخذتنا فنسينا الله.. فنسينا ، و تفرقت القلوب وزاغت الأبصار و اختلفت الكلمة ، فهان على أعدائنا أمرنا، و نزع الله الخوف من قلوبهم و قذفه فينا .

و قال مشجعًا ، إن الله عفو رحيم كريم ، و ربما لم يفت الوقت بعد وكما قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرًا

فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » أخرجه مسلم.

فلم يفت الأوان بعد ، نعم نحن نملك الأحجار و هم يملكون الأسلحة الأوتوماتكية الحديثة ، نعم هم يملكون طائرات حربية و صواريخ قاتلة ، ولكن نحن نملك أيدينا التي عندما ترفع بالدعاء تكون أقوى من ذلك ، نعم هم معهم أمريكا تساندهم ، و لكن نحن معنا الله و ملائكته الذين يحاربون معنا ، فكفى بالله وكيلًا .

صاحت أصوات الديوك، و طافت أجنحة الملائكة في السماء تحيطنا وتستغفر لنا، صحيح لم نرها و لكنا شعرنا بأجنحتها.. شعرنا بضوئها الذي اتحد مع الشمس فزاد البهاء وِ الجمال للون السماء، فكأنها كانت مثل عروس ترتدي ثوبًا أبيض مضيئًا..

عدنا إلى المترل في أمان الله ..

كم سعدت أن يكون هذا هو آخر عهدي بغزة حيث النقاء والطمأنينة..

حزمت حقائبي و تأكدت أني وضعت كل أغراضي، كان الجميع من حولي ينظرون إلي.. ينظرون إلي .. و كأنهم ينظرون إلي لأول مرة ، يتطلعون إلى وجهي .. فيتفحصوا كل ما فيه من تفاصيل، و كأنهم سيرسمون لي صورة.

لم أُلمهم ربما لأنهم كانوا يفكرون كيف بعد ساعات قليلة فقط لن أكون هنا بجوارهم، أسامرهم.. و أضحك معهم .. و أحيانًا أغضب ، وتارة أخري أصمت .

نعم .. من المؤكد أنهم يفكرون بذلك، لأني أنا الآخر أفكر بذلك، فكيف سأعيش بعيدًا عن ابتسامة فهد ! و بساطة عمر ! و جدية إياد !

كيف سيكون طعم الطعام ؟ و هم لن يشاركوني فيه ، كيف سيكون البحر ؟ و هم بعيدون عني حيث أتطلع إلى الأفق و أناجيهم !

أمسكت أطرافي حاملًا الحقيبة ، أخذها مني عمر و حملها عني ، و حمل كل من إياد و فهد باقي الحقائب تركوني أتفرج عليهم ..

لم أستطع البكاء ، فقد خانتني دموعي في هذه اللحظة و هربت .

خرجنا من المترل و فتحت باب السيارة لهم، وضعوا الحقائب هناك ثم تجمدوا بعد ذلك في أماكنهم ينظرون إلي

أكان علي أن أقول وداعًا الآن !

ربما لا !

ربما رغم كل شيء لم يحن وقت الوادع بعد ، وقفنا جميعاً في صمت ننتظر، و ينتظرنا الوداع .

الفصل السادس

الجائِزة

عمت الفوضى الأجواء ، و سكن الخـوف القلـوب ، و اختبـأت الأجساد تحت الأحجار ، و أغلقت الآذان من صخب صوت الـدمار ، وشاهت الأبصار بعيدًا عن لهيب النيران ..

- الماء ...

- الماء ...

- أين الماء ؟

- الإطفاء في طريقها إلى هنا .. سيصلون بعد دقائق ..

- هل كان أحد بالبيت ؟

- هل كان أحد بالبيت ؟

- أجبني يا رجل ، من كان بالبيت ؟

- إنهم .. أعن..............ي ، إنهم .... إنها جارتنا ... جارتنـا وصغارها .... و ....وووو ... قد ذهب إليهم عمر .. قد كان عمر بينهم .. أين عمر ؟ ، عمر .. يا عممممممر ، أين أنت يا رجل ؟

- قد تهدم جزء من المنزل ، و الجزء الآخر يحترق ، ألقـوا علـيهم صاروخًا ولاد الكلب ، اللعنة عليهم ، اللعنة عليهم

- من مات ؟ أماتوا ! لا .. هم أحياء صحيح ، نعم هم أحياء !

- اصمد يا رجل ما بك ! تعال معنا يجب أن نبحث بين الأطلال !

- نبحث عن ماذا ؟

شدني من يدي و وقفنا أمام الحجارة و الأعمدة التي شوهت معالمها ، واختلطت بين تراب الأرض و استوت به ، تجمع الناس ، وتحركوا في هلع و فزع من المنظر، انتشروا في كل مكان .. يحفرون بأظافرهم بين التراب .

جاء رجال الإطفاء حاملين خراطيم المياه الثقيلة، وواضعين الأقنعة، مقتحمين بقايا المترل المحطم ينشرون فيه من الماء ليخمدوا هذا اللهيب الثائر.

الله أكبر .. الله أكبر ..

هتف الناس فحمل بين أيديهم جسد صغير شوهته الدماء و التراب..

الله أكبر .. الله أكبر ..

هتف الناس فحمل بين أيديهم جسد أصغر شوهته أيضا الدماء والتراب..

الله أكبر .. الله أكبر ..

هتف الناس .. و كان عمر ..

إنه عمر قد عرفته بابتسامته، كان يبتسم، قد ثبت وجه على نظرة واحدة، و شخصت عينه.. و لم يعد يتحرك ..

ووضعه الناس بجوار الأطفال الشهداء ..

ارتميت عليه ..

عمر .. عمر ..

لماذا لا تجيبني ؟ أنا أقصى .. أنا هنا .. بجانبك .

ستكون بخير لا تخف يا عمر .. سأعالجك ، ستأخذ الدواء و ستكون بخير ، و لكن فقط اصمد .. ها اصمد .. اصمد من أجلي .

لم أكن أعلم ماذا أفعل؟ لم أكن نفسي ! كنت شخصًا غريبًا بعيدًا كل البعد أن يكون أقصى ! أنا... أنا التي أعرفها !

أخذت أتحسس نبضه ، وضعت أذني على صدره ، لم يكن هناك شيء ، شبكت يدي و ضغطت علي صدره بقوة و نفخت الهواء في فمه .

تنفس ..

تنفس يا عمر ..

ضغطت ..

و ضغطت ..

و ضغطت، حتى خرجت الدماء من فمه تسيل كمجرى نهــر جــار، أوقفني الناس فحاولوا أن يبعدوني عنه، و لكني ظللت متشبثًا به حتى ظهر فهد من لا مكان فجاء إلي و هو يبكي و ضمني إليه، و قال لي باستسلام: « توقف لقد مات ! إنه ميت يا أقصى توقف .. توقف لقــد ذهــب إلى ربه..»

تملكتني الصدمة، و رفضت أن أستمع إلى ما يقول .

– لا .. لا لم يمت ..

– لقد كان منذ دقائق معنا يتحدث و يضحك ، ألم تسمع ضحكته ، لماذا تكذب يا فهد ؟ ها .. !

– لقد مات توقف .. فلن يفيدك ما تصنعه !

– لا .. إنك تكذب ، هو لم يمت .

عدت إلى جثته أحتضنها بقوة ، أهزه و أطلب منه أن يكــذبهم ، أن يقول لهم إنه يتنفس إنه لم يمت ..

إنه مازال حيًا ..

عمر تحدث يا رجل ... تحدث إليهم ..

لماذا أنت صامت ؟

هل أنت غاضب مني لأني سأذهب ؟

و لكن ألم تعلم أني توقفت عن فكرة الذهاب ..

فأنا هنا لن أذهب إلى أي مكان ..

تحدث ..

أرجوك !

لا تتحدث ! أشِر فقط بيدك .. أرِهم أنك حي ..

عمر .. عمر .. عمر ...

آه .. آه .. آه .. آه ..

يا عمر .. لماذا لا تتحدث ؟

شدني الناس ، جذبوني جذبًا ، نزعوني من جثته كما يترع الجلد من اللحم ، فما حدث كان أبعد من أن أتخيل !

***

دكتور أقصي...

نعم !

أراك ذاهبًا..

نعم !

كنت .. كنت ..

نعم يا أمي ! هل تحتاجين إلى شيء ؟

إنها الصغيرة ! تسعل و حرارتها مرتفعة ..

لا بأس عليها ، سآتي لأراها حالًا ..

هل سأعطلك ؟ ربما ستتأخر عن ...

لا لن أتأخر .. أنا قادم ..

أقصى .. انتظر يا رجل ، أين ستذهب ؟

ألم تسمع ! الفتاة مريضة !

لا داعي لذهابك .. سأذهب أنا ..

لا أنا أريد أن أذهب ..

ستتأخر ..

لا ، هناك وقت كافٍ ..

اسمع الكلام يا أقصى أنا سأذهب، و لكن حاول أن تنتظـــرني، و إذا تأخرت اذهب أنت..

ما الفرق يا عمر، فسأنتظرك في كل الأحوال..

لا ، و لكنك قد تتأخر ..

لا سآتي معك ..

كم أنت عنيد ! تمام سأسبقك إليهم و لكن اذهب أنت إلى المترل وأتِ بالحقيبة.

و ماذا عن حقيبتي أنا ؟

آه يا أقصى .. لقد قضيت ساعات النهار الأولى في إغلاق حقائبك ، اذهب إلى المترل و أتِ بحقيبتي و تأكد أن تكون السماعة الطبية بداخلـــها ..

تمام .. سأذهب .. إياد ، فهد ، انتظرا هنا ..

لا سنذهب لشراء بعض الحلوى لك لتأكلها في الطريق..

تمام.. أنا ذاهب مع عمر لن أتأخر..

ولكني تأخرت، قد تأخرت عن عمر فقد أخذ بحثي عن الحقيبة وقتًا كبيرًا و كأنها سنين ..

دوى صوت عالٍ رهيب ، كان مخيفًا ، و كأنها فرقة كبيرة اهتز معها البيت من الداخل و وقع الإناء على الأرض و انكسر ، و اهتز كل شيء آخر و سقط من مكانه ، و دارت الدنيا من حولي ، و اختل توازني فصدمت بحافة الكرسي و تساقطت قطرات الدماء من جبيني ، لم أكن أعلم ماذا يحدث ؟ .. نظرت إلى الدماء في يدي ، و خرجت أجري .. أجري إليه و لكنه كان قد اختفى .. اختفى وسط ركام البيت المتهدم .

عمر ..

عمر ..

كنت أصيح به .. بكل قوة صحت به ، أبحث عنه ، و لكن لم يجبني أحد !

كانت الناس تجري من حولي في فزع لم أشهد مثله من قبل، كلهم كانوا يريدون أن يحتموا.. كلهم كانوا يريدون أن يهربوا بعيدًا عن الموت.. كلهم كانوا يريدون الحياة؛ فربما قد يسقط صاروخٌ آخر في أي لحظة ..

كانوا يتشبثون ببعضهم البعض..

فها هو الصبي يمسك أمه و يضمها إليه بقوة ، و يغطي رأسها بيده ويجري بها بعيدًا.. بعيدًا عن هذا الدمار .

و هذا الأب الذي اختفت يديه وسط أيدي أولاده فهو يحملهم بقوة .. يحملهم جميعًا و يجري بهم بسرعة.. وهم يبكون .. يبكون ، و لكنه يجري بهم و لا يتوقف .

و أنا واقف ..

ثابت ..

لا أتحرك ..

أبحث عن عمر ..

و كان قد اختفى كل من إياد وفهد ..

كنت وحيدًا ، وحيدًا .. وسط الموت .. وسط الدمار ..

***

وقفت أتأمل هذا اللوح الرخامي الشامخ الذي نقش عليه ..

بسم الله الرحمن الرحيم

" يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ

ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي "

عمر عبد الله

(١٩٧٠-٢٠١٠)

السلام عليك يا عمر ..

أنت السابق ، و أنا بك لاحق .. إن شاء الله ..

كنت أتحسس اللوح .. كنت ألمسه برفق ، و كأني ألمس عمر نفسه ، ولكنه كان في التراب .. كان في روضته حيث الريح الطيب .

جلست بجواره أتحدث .. أحدثه حديث من يستمع إلي .

- أعلم أنك تسمعني الآن يا عمر و تشعر بوجودي ، وربما قد تكون تبتسم و تنظر إلي حيث لا أراك ، ولكن .. في الحقيقة لم أتخيل أن يأتي يوم كهذا ، و يكون بيني و بينك هذا الحاجز و تلك الجدار ، لم أتوقع أن نفترق هكذا .

على الرغم أني بداخلي أعلم أني قد أموت ، و كنت على يقين أننا قد نموت في أي لحظة ، و لكن .. و لكن لم أكن مستعدًا لتلك اللحظة .. لم أكن أعلم أنها ستأتي بهذه القسوة و تلك السرعة .

كنت تودعني البارحة ، و أنا أودعك الآن ..

يا لها من حياة .. يا عمر ، عندما نطلبها تخاصمنا و عندما نعزف عنها تأتينا طوعًا دون طلب أو رجاء .

كيف سأعيش فيها ؟ و أنت صرت بعيدًا عنها .. صرت في مكان آخر!

سألته..

كيف هي حياتك الآن ؟

وهل حصلت على ما تتمناه ؟

وجائزتك.. جائزتك يا عمر؟

كيف وجدتها ؟

هل هي حلوة كما وصفت ؟

لا، أعتقد أنها أجمل و أحلى بكثير.. صحيح، هذا صحيح.. أليس كذلك !

مضى الوقت و أنا جالس أتحدث إليه، و أبوح له بما في صدري.. من حب و اشتياق إليه، حتى جاءت هي بخطوات ثابتة ..

و بنظرة ثاقبة .. جاءت إلى .. جاءت تريدني أنا .

كنت أحتاجها بشدة ..

كنت أريد أن أرتمي في أحضانها و أبكي..

كنت أريد أن أحكي لها عما حدث، أصف لها ما رأيـــت مـــن ظلـــم وموت، و أشاركها خوفي و اضطرابي، وأعلن لها عن ضعفي الذي اختبرته أمام أول نداء للحق.. أول نداء للموت .

كنت أريد ..

أريد أن أصرخ و أن أقول لها أنا احبك.. فلا تتركيني ، فلن أحتمـــل الوحدة .. لن احتمل أن أكون وحيدًا بعد الآن .

و لكن على رغم من أني أريد هذا بقوة و لكن لم أستطع.. لم أستطع أن أفضي لها بما يدور في صدري و عقلي .. و كأنه صار يقف بيننـــا حـــاجز أقوى من أن أهدمه.

– كنت أعلم أني سأجدك هنا ..

– لماذا جئتِ يا شهد ؟ هل طلب منكِ فهد ذلك ؟ إذن جئتِ لأجل ذلك أرجوكِ اذهبي.

– لا .. لم يطلب مني أحد القدوم ، و لكن .. أنا من بحث عنك !

– لماذا ؟

– لأني أعلم أنك تحتاج إلي ؟.

– و لكن أنا لا أحتاج إلى أحد ، كما ترينني أنا بخير !

– و لكنك تدعي أنك بخير ، لا أنت لست بخير ، انظر إلى عيونك الذابلة من كثرة البكاء ، و وجهك الشاحب من قلة الطعام ، انظر إلى حالك يا أقصى .

– أنا بخير ، و لا أحتاج إلى شفقتك الآن .

– أنا لا أشفق عليك .. أرجوك لا تقل هذا .. أرجوك ، أنا خائفة عليك .. خائفة .

– مم أنتِ خائفة عليّ ؟ من الموت ! و لكني في كل الأحوال أنا ميت.

وضعت يدها على فمي ، و بكت ، و بكت ، و بكت حتى رق لها قلبي ، أجلستها بجواري و صمت .

– لا تقل لي ذلك يا أقصى ، لماذا تذكر الموت ؟ هناك حياة ! هناك أمل !

– أنا لم أفقد الأمل و لن أفقده ، و لكن هذه هي سنة الكون .. الموت حقيقة يا شهد .. لماذا هرب منها ؟

– أنا لا أهرب منها ، و لكني أنا.. أنا أريد أن أعيش بعيدة عنها .

– و كيف تعيشين بعيدة عنها و أنتِ كل دقيقة معرضة لأن تختبريها ، معرضة لأن تكوني جزءًا منها ..

إذا أردتِ الحياة عودي إلى بلدك .

– و لكن هذه بلدي و أرضي .

– بلاد الله كلها بلادنا يا شهد ، ليس عيبًا أن يطلب الإنسان الحياة ، و أن يتلذذ بها بعيدًا عن الموت .

- و لكن في كل مكان تجد الحياة و الموت معًا ، فلا توجـــد أرض خلت من المقابر و لا توجد أرض تخلو من الحياة .

- و لكن هنا يقوى شريان الموت و يضعف نبض الحياة ، هنا تجدين الغدر و الظلم الذي ترفضه الحياة و يتقدم الموت ليظفر منه ، هنا الحصار الذي يأكل الأرض و يشرب الماء ، فيترك الحياة ضعيفة إلى أن يحين موعد الموت فيسرعها سريعًا .

- إذن مازلت تفكر هكذا .. تفكر بالذهاب .

تساقطت دموع من عيني و أنا أنظر إلى عمر ، كنت أشعر أنني مقيـــد به .. كنت أشعر أنني أصبحت أسيراً له ، فكيف أذهب و أتركه ؟ كيف لي أن أصنع هذا ؟ كيف ؟

- ربما معك حق .. ربما علينا أن نبدأ من مكان آخر .

- ماذا تعنين ؟

- هل مازال عرضك قائمًا ؟

- أي عرض !

- أن أذهب معك ، أنا أريد أن اذهب معك .

- شهد ...

- لا تتحدث الآن يا أقصى.. أعلم أنك حزين محطـــم بـــداخلك ، وأعلم أنك تشعر بالضعف ، أعلم أنك تلوم نفسك لأنك لم تحمِ عمـــر، وأنك تشعر أنه من المفترض أن تكون مكانه ، أعلم أنك تشعر بالذنب .. أعلم .

و لكن ما لا تعلمه أنت يا أقصى أني .. أنا أحبك .. نعم أحبك .

أعترف أني أحببتك و مازلت ، ولكني صـــدمت عنـــدما صـــارحتني برغبتك بالذهاب ، و صعقت عندما علمت أنك نويت بالفعل و تتجهـــز لذلك ، أردت أن أهرب منك و لمت نفسي كثيرًا لأنها أحبتك .

كنت بفمي أتحدث بقول سيء عنك ، و لكن بداخلي كـــان قلـــبي يتمزق لفكرة فراقك ، و عندما جئت تودعني كنت تنظر إلي بين الأغصان .. نعم رأيتك ، و لكن لم أكن أملك الشجاعة أن أواجهك و أقول لك ما في نفسي .

صحيح أن الأرض غالية ، و لكن بقدر هذه الغلاوة و المحبة لابـــد أن نحارب من أجلها ، و ليس كل الحرب لابد أن تكون وسيلتها الأســـلحة ونهايتها الدماء .. هكذا كنت تتحدث و لكني لم أفهم هـــذا الكـــلام إلا متأخرًا .. أعتقدتك جبانًا هاربًا ، و لكن كانت عيونك تبصر ما لا أراه .

دارت حولي في حماس ونظرت إلى السماء ، ثم نظرت علي شاهد عمر وقالت :

« سنذهب، و نرصد، و نروي، و نصرخ إلى العالم، سنجمع الكلمـــة ونوحد القلوب، أنا و أنت.. أنا و أنت معًا ».

لا أعلم .. ربما فقدتها .. فقدت الحماس الذي كان ينـــبض في قلـــبي الثائر، قلب مجاهد لم يشهد الجهاد من قبل ، و الآن و بعد أن حصلت على ما أريد .. صرت لا أريده ، صار بالنسبة لي هروبًا ..

نعم هروبًا ..

أنا أهرب من وجه عمر الذي يلاحقني في كل مكان في الليل و النهار ، صوته يلازمني أسمعه .. أسمعه يناديني ، و عندما ألتفت لا أجده ..لا أجد شيئًا سوى السراب و نفسي ..

نفسي التي صارت غريبة لا أعرفها .. لا أميزها.

فماذا حدث معي ؟

لقد عهدت الدماء و رأيت الموت قبل ذلك ، و لكن لم يحدث معي هذا من قبل ، لم أضطرب هكذا من قبل فمن صرت ؟ .. فمن أنا ؟!

لا أعلم ..

***

يقال أن « الفشل ألا تنهض مرة أخرى و تحاول، و الانتظار أصعب من الموت ، و اليأس هي راحة المحتضر ، و الموت هو بداية الخلود .. »

فماذا نختار نحن البشر ؟

فماذا اخترت أنا ؟

الحقيقة أنا لم أختر لأني أدركت بعد وقت طويل و تجارب كثيرة أن هناك قوى أكبر مني هي التي تختار لي .

فبعد سنوات ، و سنوات ، أدركت أخيرًا هذا المعنى ، أدركت معنى ((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى)) .. قد أدركته ، قد فهمت كيف تغير النية حياة بأكملها ؟ ، كيف تحول هذا اللون الأسود المخيف إلى لون أبيض ينير ؟

فقد نوى و حلم عمر واشتاقت نفسه للشهادة؛ فسعت إليه كما سعى هو إليها، وها هو قد نالها في النهاية.

و أنا..

أنا حلمت ..

عشت عمري الماضي و أنا أحلم بتجمع الأمة .. بثورة تجمع الشعوب و تكسر أسوار الفرقة بدون دماء أو دمار، و توحد الكلمة و تقضي على

الخلاف و الفساد ، و تقوم إلى الأقصى قومةً لا رجوع عنها ، وها هي قد بدأت ..

إنها تحدث ..

و الآن ..

فالآن أنا أشهد ذلك و أراه بعيني .. أمامي .. فلم يعد حلمًا بعد اليوم ، فأنا لا أحلم .. فقد قامت أول ثورة ؛ قد حدثت بالفعل .

العجيب أن يكون سببها شخصًا ؛ إنسانًا واحـدًا .. واحـدًا فقـط استطاع أن يكون السبب في نهوض أمة .. في تغيير أمة ، استطاع بنفسه أن يواجه خوفه و ضعفه وقف و قال لا .. لا للظلم، لا للفساد.

وقف ..

كان يبكي بحرقة من صفعة امرأة حطمت كبرياءه، وأهانت رجولته ، ودمرت عربة الفاكهة التي كان يسترزق منها .

صرخ قائلًا: « لماذا.. لماذا تفعلين هذا بي؟ أنا إنسان بسيط، لا أريـد سوى أن أعمل.. لا أريد سوى أن أعيش »

تجمع الناس .. و لكنهم لم ينصفوه ؛ فكان الخوف مازال يتملكهم .. يتغلب عليهم ، و لكن لم يردع هذا الخوف " محمد البوعزيزي " أن يذهب ليبحث عن حقه المسلوب .

حاول..

قد حاول أن يلتقي بأحد المسئولين لكن دون جدوى ؛ نظر إلى السماء و قال « لا أملك غير رجائي و توكلي علـى الله ، و لكنـه عنـدهم لا يساوي شيئًا ، و إن ذكرهم بمن له الملك و الحكم ، يضحكون و يتهكمون علي ، فماذا تصنع مع قلوب قست و تجبرت ؟ »

أمسك ببرميل الزيت ..

كان يعلم أنه سيحترق..

سيتألم ..

كان يعلم أنه قد يموت..

بل سيموت لا مفر، و لكنه لم يخشَ الموت فقد أبت نفسه أن تتحمل هذا الظلم ، بدأ يسكب ، يسكب حتى تشبع جسده بهذا الزيت الهادئ الذي اتحد مع لهيب النار فأشعل جسده على الجملة ، و جعله كومة نار حارقه ملتهبة ، أذابت جلده و وصلت إلى عظمه .

صرخ ..

كان يصرخ ، من الألم فهذا محتمل ، من الظلم فهذا أكيد ، قد يعتقد البعض أن هذا الشاب كان ضعيفًا لم يستطع أن يتحمل الحياة و قسوتها فقرر الموت ؛ و لكن إن أراد الهروب حقًّا فكان من الممكن أن يقتل نفسه بسم أو أي شيء آخر ، و يموت موتة هادئة بدون ألم ، و لكنه في الحقيقة أراد أن يغير الظلم فلم يجد غير جسده ؛ فهذا كان هو الشيء الوحيد الذي يملكه ، فقرر أن يضحي به و معه روحه من أجل أن يصل صوته ويقهر الظلم .

و قد استطاع و سمع المسئولون صوته ، و لم يتوقف عندهم فقط .. بل و صل إلى الشعب فالتهبت الأرواح، و نُزعت قيود الخوف ، و بدأ التاريخ يسطر أولى حروفه لصفحة جديدة من كتابه .

ففي يوم ١٨ ديسمبر لسنة ٢٠١٠ اندلاع شرارة المظاهرات وخرج آلاف التونسيين الرافضين لهذا الظلم الذي أغرق البلاد و العباد. و بعد موت بعضهم و جرح الآخر استطاعوا أن يقتلعوا بذور الفساد من أرض خلقها الله حرة لعباده الصالحين.

كنت أشاهد و نار الحمية تغلي بداخلي، و الجميع من حــولي يتــابع الأحداث مترقّبًا ما هو آتٍ ، كنت أرى في عيونهم الرغبة لصنع ثــورة.. نفس الرغبة التي تنمو بداخلي فقد بدأت تتجمع و تتوحد مــن جديــد شعرتُ أني قد فقدتها، و لكنها ما فارقتني إلا لتعود إلي أقوى ممــا كانــت عليه.

***

الفصل السابع

الْمِنْبَر !

بعد عشرين عامًا وضع ..

وضع .. وتسابق العلماء و الخطباء على الوقوف عليـــه .. تـــسابقوا وتدافعوا حتى يكونوا أول من يشهد على هذا الأمر الجليل.. تسابقوا إلى صلاح الدين .

إنه المنبر ..

منبر الملك العادل نور الدين محمود .. قد صنع ليوضع هناك ليكـــون عبرة وعظة لمن سيأتي و يمر عليه ؛ و لتشهد صفحات التاريخ أنه وضـــع هناك .. هناك في أورشليم .. في القدس الشريف .. في مـــسجد الأنبيـــاء والأجداد .. في إرث المسلمين .. في المسجد الأقصى .

قد أمر ببنائه لأنه كان يعلم أن مهما طال الوقت ووقفـــت الـــدقائق والأيام حاجزًا إلا أنه في النهاية سيكون مكانه هناك.. هناك في المـــسجد العظيم .

حلم .. قد حلم، و بسيفه حقق حلمه، فشق الدروب و امتطى جواد القوة والإيمان، وانطلق ضد أمواج الرياح و صريرها، و لكنه توفي قبل أن تراه عينه هناك.. قبل أن يراه ينير أركان الأقصى.

وعندما وقعت مشيئة الرحمن ونصر الله عباده، حمله الناس.. حملوا تلك القطعة الفنية البديعة .. النادرة بين أيديهم ، و وضعوها هناك في مكانهـــا الذي صنعت لأجله .. و ضعوها في الأقصى .

و في يوم الجمعة الرابع من شعبان ٥٨٣ هجرية و بعد ٩١ عاماً مـــن الاحتلال وقف الخطيب العظيم محي الدين بن زنكي الـــدين ، خاطبًـــا في

الناس معبرًا بكلمات تجلت روعتها في وصف ما كان و ما سيكون ، تجلت روعتها في أنك لو قرأتها أو سمعتها الآن ستجد أن هذا الخطيب الجليل رحمه الله قد كشف عن قاعدة إن اتبعها الناس عــزوا بهــا و نــصروا ، و إن خالفوها ذلوا وهان أمرهم و انكسروا .

فقال :

« الحمد لله معز الإسلام بنصره، مذل الشرك بقهره ومصرف الأمور بأمره، و مديم النعم بشكره، ومستدرج الكفار بمكره الذي قدر الأيام دولًا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهــر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يُمانع، والظاهر على خليقتــه فلا يُنازع، والآمر بما يشاء فلا يُراجع، والحاكم بما يريد فيما يدافع، أحمد على أظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهــير بيتــه المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن ســره وظاهر جهاره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، شهادة من طهّــر بالتوحيــد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمدًا عبده ورســوله رافــع الــشك، وداحض الشرك، ورافض الإفك، الذي أسرى به ليلًا من المسجد الحــرام إلى هذا المسجد الأقصي وعرج به منه إلى السماوات العُلى ﴿عِندَ سِــدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾، صلى الله عليه وسلَم وعلى خليفته أبي بكر الصديق الــسابق إلى الإيمان وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعائر الصلبان وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النــورين جــامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين على بن أبي طالب مزلزل الــشرك ومكــسر الأوثان، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القــصوى والدرجــة العليا، لما يسّره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة

وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبًا من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه، واستقر فيها رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد، فإنه بُني عليه وشيد بنيانه بالتمجيد، فإنه أسس على التقوى من بين يديه ومن خلفه، فهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم عليه الصلاة والسلام وقبلتكم التي كنتم تصلّون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء، ومدفن الرسل ومهبط الوحي، ومنزل ينزل به الأمر والنهي، وهو أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الأقصى الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي أكرمه برسالته وشرّفه بنبوته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، وهو أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ولا تعقد الخناصر بعد الموطئين إلا عليه.

أليس هو البيت .. هو الذي أمسك الله تعالى لأجله الشمس على "يوشع " أن تغرب وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب؟ أليس هو البيت الذي أمر الله عز وجل موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان وغضب الله عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة للنسيان؟ فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل وقد فضلت على العالمين، ووفقكم لما خذلت فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضين.

فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم، واحذروا من اتباع الهوى، ومواقعة الردى ورجوع القهقرى، والنكول عن العدى، وخذوا في انتهاز الفرصة، وإزالة ما بقي من الغصة، وجاهدوا في الله حق جهاده، وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من خيار

عباده، وإياكم أن يستزلكم الشيطان، وأن يتداخلكم الطغيان فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد، وخيولكم الجياد، وبجلادكم في مواطن الجلاد، لا والله ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، فاحذروا عباد الله بعد أن شرّفكم الله بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل، وخصّكم بنصره المبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين، أن تقترفوا كبيرًا من مناهيه، وأن تأتوا عظيمًا من معاصيه .

الجهاد...الجهاد فهو من أفضل عباداتكم، وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم، احفظوا الله يحفظكم اذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم، خذوا في حسم الداء وقطع شأفة الأعداء، وطهّروا بقية الأرض من هذه الأنجاس التي أغضبت الله ورسوله واقطعوا فروع الكفر واجتثّوا أصوله، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية، والملة المحمدية، الله أكبر فتح الله ونصره، غلب الله وقهر، أذل الله من كفر، واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، وغنيمة فحوزوها ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها، وسيّروا إليها عزماتكم وجهّزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها »

شعرت و كأني أسمع صوته الآن يهز الأركان وتهتز معه القلوب والعقول ، لا أعلم .. هل هي رغبة الإنسان أن يعيش التجربة و تكون خالصة له، و يشهد التاريخ له أنه أول من سنها في الأرض ؟ أم لإثبات ذاته أمام نفسه و الجميع، و أنه يستطيع أن يسيطر، و أن يدير.

لا أعلم ما هو السبب الحقيقي الذي جعل الناس تعزف عن نصائح الأجداد، و تجاربهم، و تاريخهم ، فنسوها وصارت لهم مجرد مقولات تقال على لسان الفقهاء ، و تقرأ من قبل العلماء ، و المثقفين .

فما الذي أدى إلى أن يصلوا إلى هذا الحال من الـضعف و التفكـك وغياب العدل و تفشي الظلم ؟ ربما تكون الرغبة ..!!

الرغبة في المال، والعزة، و الجاه ، و الحياة المليئة بمختلف ألوان الرفاهية ، ربما .. ربما ، فكلها أسباب يريدها ، و يسعى إليها الإنسان ، و لكن هل هي بهذه القوة حتى تقضي علي ضمائر الناس ؟!

***

عن يقين شهد الجميع أننا في الذل عشنا .. في الانكـسار تحطمـت عزائمنا، و في الفرقة تآكلت حبال وحدتنا، و لكن..

و لكننا ..

بالعزة حلمنا، و في العدل سعينا، ومن أجل الوحدة نزفنا.

فمن كان يتوقع ؟

من كان يتوقع ؟ أنه بعد أكثر من ثلاثين عامًا أن يـصرخ الـشعب، وينطق الصخر، و تذوب قطع الجليد، و تتشابك الأيدي بعد أن قطعـت الأطراف.

لم أكن أصدق نفسي ذهبت أجري إلى عمر، و ضممت قبره بين يدي و بكيت و صرخت من فرحي.. عمر .. عمر ..

قد حدث المستحيل .. و أخيرًا صرخ الشعب تحدث.. قد تحدث، إنه الآن متجمع في التحرير " ميدان التحرير " اللهم اجعله باب تحريـر لنـا ولهم..

مصر يا عمر ..

مصر القوة العظمى التي لا تكتمل دولة الإسلام بدونها قد أوشكت أن تحرر، و أن تحررت فأبشر.. أبشر يا عمر فإن الأقصى سيعود .

سيفتح الباب لإعادة الأقصى..

ستنهض القلوب من جديد .

سنعيد بناء المنبر ..

و سنوحد العقول و القلوب للمشاركة في بنائه؛ سنضعه في ميدان التحرير، هناك.. في المنتصف ، لتكون منه الانطلاقة لتحرير القدس إن شاء الله .

أبشر .. أبشر ..

- أقصى .. أقصى .

- فهد ..

- هل سمعت آخر الأخبار ؟

- لا .. ماذا حدث ؟

- قد قطعوا خطوط الاتصالات و شبكات الانترنت.

- ماذا ؟

- قد حاصروهم !

- و ماذا عن شباب التحرير ؟

- مازالوا صامدين .

- هو ذاك .. اصبروا يا أولاد بلدي فإن الفجر قريب ..

كنا نتابع الأحداث و كأننا نتابع مباراة لكرة قدم ؛ فكنا نقذف فرحنا في الهواء و كأننا طيور تطير إذا ما سمعنا خبر صمود المصريين أمام اعتداءات الشرطة ، و كنا نبكي و نصرخ صرخة مكتومة عندما نرى شبابًا يحملون صديقهم المصاب الذي تنزف منه الدماء و أوشك على الموت . صحيح كان يوجد فريقان يلعبان، و لكن كان دائمًا هناك جمهور

واحد .. فكل الجمهور كان يشجع فريقًا واحدًا، و هـــذا الفريـــق هـــو (الشعب) .

رسم خليل علامة الصليب على وجه الصغير .

« يرحمهم الرب » ..

قال وهو متأثر لما رآه من الدماء ، و تعجب لما صنعه أبنـــاء الـــشعب بالشعب . كان خليل فتى لم يبلغ الحلم فعمره كان عشر سنوات ، و لكنه كان يتحدث مثل رجل ناضج بالغ اختبر الحياة و سلك دروبها فقد أعطته سنين عمره القليلة الحكمة التي قد يبلغها الأجداد مع الكبر .. أعطته .. قد أعطته الخبرات التي قد يحتاجها شاب في عمر العشرين ، و هو مع كل ذلك مازال طفلًا .. هو طفل صغير ينظر إلي الأطفال التي تلهو مع آبائها يتشابكون الأيادي معًا و يمسكهم آبائهم بقوة و حنان يقذفونهم في الهواء فتحتل السعادة قلوبهم و ترتسم البسمة على وجوهم البريئة ، و يتـــسلل السرور إلى حياتهم ، و عندما يتذكرون تلك الأيام بعد أن تكون قد مضت ، و تشتاق أنفسهم إليها ، و هم ينظرون إلى أبيهم و أمهم اللـــذين مـــلأ رأسهما الشيب ، و جرى الزمن عليهم و غير ألوان وجوهم، و لكن رغم كل شيء تبقى السعادة ، وتبقى الذكريات ، و لكن بالنـــسبة لخليـــل لا توجد ذكريات .. لا توجد لأن خليلًا أصبح لا يوجد لديه أب لأن أبـــاه قد مات ، على فراشه .. لا، بل أمامه و اختلطت دماؤه بين دماء أبيـــه، ولكن كتب لخليل أن يعيش و أبيه أن يموت.

و أول ما استيقظ نادى أبي .. أبي .. مد يده الصغيرة ليمسك يد أبيه ليتحد معه من جديد، و لكنه لم يجد سوى الفراغ لم يجد سوى الفراغ وأمه التي دفنته في أحضانها تبكي على فراق الحبيب تبكي لمجهول تخـــاف مـــن نهايته.. تخاف من عذابه .. تخاف من فراقه .

عاش خليل و لكن أمام هذه الحياة دفع ألم الفراق .. ألم الوحدة .. ألم الطفولة الضائعة .. ألم الصمت .. صامت يضحك فمازال يضحك ، يضحك على الرغم صعوبة الحياة التي يتذوقها فإنه مضطر أن يعول نفسه و والدته فيذهب بعد مدرسته يقف يبيع أي شيء يجده أي شيء قد يباع ، و بين يده تقع كراسته التي يذاكر فيها دروسه و يحضر بداخلها وظائف غده .. فأي حياة يعيشها هذا الطفل .. هذا الصبي، بل أقول هذا الرجل.

- عم أقصى .

التفت إليه و على ثغري ابتسامة بسيطة أخرجتها من داخل.. داخل قلبي و أجبته:

- نعم يا حبيبي.

بدا مترددًا و لكنه أردف:

- هل ترغب في أن تكون بينهم ؟ أعني أنت مصري مثلهم فيجب أنك تتمنى أن تصرخ، و تشارك معهم !

- هذا صحيح يا خليل أود أن أذهب إليهم و أشاركهم، و لكن ..

- و لكن ماذا ؟

- و لكن أنا بالفعل أشاركهم .. و أنت أيضًا تشاركهم .

أشارت يده الصغيرة إلى نفسه و قال بتعجب فيه فخر« أنا.. ! كيف ؟ »

- ألست تصرخ معهم .. ألست تحلم و تريد ما يريدون.. ألست تتمنى أن تكون معهم، و إن كنت هناك ستفعل ما يفعلون !

- قال بشجاعة بالغة : بلا .. سأفعل .

– فكيف إذًا لا تكون معهم ؟ أنت معهم و أنا معهم ، و كل واحد مهما كان بعيدًا أو قريبًا منهم فهو معهم مادام يؤمن بتحقيق هذا الحلم .

– و بحماسة سأل : عم أقصى .. لماذا اسمك أقصى ؟

تذكرت أمي و أبي .. و استحضرت منظرهما الذي حفظته في مخيلتي من صورة دائمًا ما وضعتها أمي بجوارها ، و هما متشابكا الأيدي يمشيان ببطء و سعادة على رمال شاطئ الإسكندرية ؛ كانت أمي في تلك اللحظات تحملني بداخلها فكانت هذه من اللحظات القليلة التي كنا فيها نحن الثلاثة معًا .

– عم أقصى

– ها ... آسف شردت قليلًا، اسمي ! .. تسأل عن اسمي .

– ابتسم لي ، و أجاب بنعم .

– اسمي ما كان إلا حلمًا يا خليل؛ فقد حلم أبي بالأقصى، و أحبه لدرجة أنه سماني أقصى حتى يكون في قلبه دائمًا.

دمعت عينا الصبي فربما تذكر أباه الفقيد، وكيف ستكون حياته لو كان يتنفس.. لو كان مازال على قيد الحياة. أخذته بين ذراعي، و أظهرت له عاطفة الأبوة التي لم أحظَ بها و لم أختبرها، و لكنها رغم كل ذلك ظهرت صحيح إني كنت فاقدًا للشيء، و لكني أعطيته.. استطعت أن أعطيه لأني أحببت ذلك.

– « خليل أين أنت ؟ أمك تبحث عنك » سأله وهو يحاول أن يهدئ من سرعة أنفاسه فقد جاء يجري .

– رامي ما جاء بك إلي هنا !

– والدتك عندنا بالبيت، و قد طار عقلها خوفًا عليك؛ لماذا لم تخبرها أنك قادم إلى هنا ؟ قد حذرتك أن تتأخر.

– أردت أن أتابع الأخبار !

– أخبار .. قول هذا لوالدتك فانتظر حتى نعود إلى المترل و هيـئ نفسك للمحاضرة الطويلة ، و يجب أن أهيئ نفسي أنا الآخر.

– لماذا ؟ ليس لك ذنب !

– ألست ابن خالتي، و أنا أكبرك بخمس سنوات ستحملني أمـك اللوم بالتأكيد.

– لا .. لا تخف سأقول لها أنه لا ذنب لك.

– لا بأس ربما إلقاء اللوم علينا نحن الاثنين أفضل من أن تأخذ أنت كل اللوم.

ودعنا خليل و ذهب مع رامي الذي لف ذراعه حول رقبته يضمه إليه بحب انبعث عن مشاعر أخوة حقيقية . ربما لم يكن أخوة على الحقيقـة ، ولكن كانت تربطهم رابطة أقوى من الدم .. أقوى من النـسب كانـت تربطهم رابطة الموت الذي نجوا هم منه فرامي لا يختلف كثيرًا عن خليل بل هو خليل، و لكن في جسد آخر.

– أتمنى .. أتمنى أن يتحقق حلمك يا أقصى ، و أن يكون هذا بشير خير كما تقول ، و لكن هل يستطيعون حقًا ؟ أعني سيستمعون هم .

– سيستمعون يا إيهاب .. سيستمعون لهم مهما طال الوقت .

– و لكن ماذا سيحدث بعد أن يذهب ؟ يعني إذا ذهـب ! هـل فكرت في هذا ؟

– لماذا تسبق الأحداث يا إيهاب ؟

– ألا يجب أن نفكر في كل شيء يا فهـد ! لا يجـب أن تأخـذنا الحماسة و ننتظر وقوع لحظة النصر و نحن نجهل كيف نتصرف إذا وقعت

- فكر، و لكن ادعُ الله أن يتحقق الأمر أولًا ثم فكر.

- سيتحقق إن شاء الله .. سيتحقق .

- و لكني أخشى بعد أن يتحقق أن يستغله البعض لأغراضهم وتحقيق أحلامهم السياسية.

- لا أعتقد يا إيهاب أن هذا سيحدث فإن رحل .. سيرحل معه كل النظام .. سيرحل و سيأخذ معه الفساد، لا تخف سيتحقق الحلم في النهاية، و سنتوحد لنصل إلى الأقصى.

بعد أن انتشرت الدماء ، و سقط القتلى في أرجاء القاهرة و المحافظات المختلفة التي نادت بما نادت بها عاصمتها ، و نزف النيل دماء حريته ؛ حدث المستحيل ، و تفجرت صيحات الانتصار تحيط أرجاء الجمهورية المصرية من جميع الجهات ، و كبر الجميع على نصر الله و فتحه و أشعلت أضواء الاحتفال تنير ليل القاهرة .

ففي ١١ شباط ٢٠١١ انكسرت أغلال القيد، و فتح قفص الاعتقال، و كتب التاريخ هذه الكلمات الخالدة بلون الذهب.

« في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد قرر الرئيس محمد حسني مبارك تخليه عن منصبه وكلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شئون البلاد و الله الموفق و المستعان » .

كنت أجري من السعادة و قطرات المطر تجري معي تسابقني، كنت أوقف كل شخص أراه أمامي رجلًا كان أو طفلًا أو امرأة أو شيخًا وأعطيه الحلوى؛ كنت أقول لهم « مبارك رحل قد أسقط الشعب النظام.. قد حققوا المستحيل » . كانوا يهنئونني بسعادة، و كأن هذا النصر صار لهم أيضًا فهتفوا معي و كبروا (الله أكبر.. الله أكبر) ، و لكن كان هناك طرف آخر خائف مضطرب يجهل مصيره؛ فلأول مرة أشعر بخوفهم وأشعر

بقوتنا .. بقوه شعب أسقط نظام بأكمله في ثمانية عشر يومًا فقط؛ فكيف لو تجمع هذا الشعب و توحدت خيوطه لإسقاطهم..

لإسقاط الصهاينة المعتدين.

***

لم يكن غريبًا أن تشتعل النيران و تبدأ في المسير إلى الأمام فتقدمت دون توقف و امتدت إلى الأصول إلى عروق الدم التي ذبلت و توقفت عن النبض و ها هي تعود .. بدأت تنبض ، و لكن صوتها مازال محشورًا ينازع بقوة ليسمع .. ينازع لتعود إليه الحياة مرة أخرى.. ليعود حرًّا من جديد .

انتقلت المسيرات بين المدن و القرى ، و امتلأت الشوارع في ليبيا .. اليمن .. البحرين.. سوريا و غيرها بالثوار؛ قد توحدت هتافاتهم على هتاف واحد وهو التحرير .. تحرير الأرض من استبداد حاكميها .. تحرير البلاد من سنوات من القهر و الظلم و التخاذل فلم تضع فلسطين إلا بتخاذلهم.. لم يحرق الأقصى إلا بتخاذلهم .. لم تنزف دماء الأبرياء إلا بسبب تخاذلهم؛ فهذا يكفي .. يكفي .

– أين كنت يا فهد ؟

– ماذا تريد يا أقصي ؟

– أريد أن أعرف أين كنت ؟

– لا مكان !

– لا مكان ! هل تمزح معي انظر إلى الساعة قد دقت الثانية و النصف صباحًا .

– يعني !

– يعني أني منذ خروجك و أنا أترقب لحظة عودتك ، وعندما أهاتفك أجد جوالك مغلقًا . ألا تريدني أن أقلق .

– لا تقلق ! كما ترى أنا بخير لم يصبني شيء .

– و لكن ...

– رد بغضب لم أعهده منه من قبل : « توقف يا أقصى لقد سئمت من هذا ؛ كل يوم منذ وفاة عمر تعمل معي تحقيقًا إلي أين ذهبت ؟ و مع من كنت ؟ و لماذا تأخرت ؟ هذا يكفي لست ولدًا صغيرًا » .

– أجبته بحب أنا خائف عليك !

– فقال لي و كان مازال غاضبًا : « و لكن خوفك هذا لـــن يوقـــف الموت إذا اختارني » .

– انتابتني نوبة من الغضب و وضعت يدي على أذني لا أريد أن أسمع كلامه كنت أهرب منه أهرب من الموت أهـــرب مـــن الألم.. توقـــف .. أرجوك يا فهد لا تذكر هذا أمامي.

– أمسكني بقوة كان يريدني أن أسمعه أن أفوق مـــن ســـباتي الـــذي اعتقدت أني تخلصت منه ، صرخ في أذني : « لماذا ؟ هل أصبحت لهـــذه الدرجة خائفًا .. خائفًا حتى أن أذكره أمامك ؛ لقد تغلب عليك الخوف يا أقصى انظر إلى حالك قد مضى أكثر من ثلاثة أشهر و أنت تجلس بالبيت تمسك الريموت و تنتقل بين القنوات لتتابع الأخبار ، وعندما تسمع عـــن مقتل أحد الأفراد أو تري دماء مسالة تخرج مسرعًا و عندما أســـألك إلى أين ؟ لا تجيب و تشير بيدك فيما معناه أنك خارج لتستنـــشق الهـــواء ، ولكنك ما خرجت إلا لتزور قبر عمر ، و عندما تقابل شهد بعد إلحـــاح منها تظل طوال الوقت صامتًا والمسكينة تتحمل هذا لأنها تحبك و تريدك أن تخرج من معاناتك هذه » .

– قلت له باستنكار أدافع عن نفسي: إنك لا تعرف شيئًا !

– رد بقوة : أنا أعرف كل شيء.. أعرف يا أقصى أنك صرت حبيس نفسك قد أخذك الذنب أبعد مما كنت أتخيل، فلم تعـــد تمـــارس الطـــب

وابتعدت عن الناس لا تجلس معهم و لا تخالطهم إلا قليلًا، و هذا لماذا ؟ لا أعرف. حتى حماسك لسقوط النظام في مصر كان وهمًا أيضًا فعندما سمعت صياحك و وجدتك سعيدًا لتنحي مبارك شعرت أن هذا سيغيرك و ينهي هذا الحزن بداخلك ، و لكن كان حماس اللحظة و عدت كما أنت لا تتحرك حتى لم تعد تفكر بالعودة إلى مصر .. أقصى عمر مات ، و أنت لم تقتله ! فتوقف عن لوم نفسك .

- إذن هذا ذنب من ؟

سؤال كنت أبحث بداخلي عن إجابة له ، و لكن لم أجد إجابة واحدة فبدأت الأسئلة الأخرى تظهر في عقلي ، و كنت أعلنها بصوت عالٍ وأصرخ بها أمام وجه فهد الذي نظر إلي بشفقة .

- سألته و كأنه صار هو المذنب لماذا كان يجب أن يموت عمر ؟ لماذا يجب أن يموت العشرات مثل عمر كل يوم ؟ لماذا يظلم الإنسان أخاه الإنسان ؟

- كان هادئًا .. تحرك في الغرفة ببطء ثم فتح النافذة و نظر عاليًا إلى السماء من وراء القضبان التي وضعت عليها ، و بدأ يتحدث و كأني لست موجودًا .

- « نحن لم نصنع هذا الوضع بل خلقنا عليه و وجدناه هكذا يا أقصى و إن طالبت بتغييره فأنت تطلب تغيير البشر ، وهذا مستحيل ، ولكنك قد تطلب أن يتقي الناس الله و يمشوا على منهجه و سنة رسوله فمنذ خلق الله عز وجل آدم تواجدت الترعة البشرية بداخله للخير و الشر معًا ؛ ففي الخير يعيننا الله بكتابه و كلماته التي أنزلها على أنبيائه و هي الحبل الذي يحافظ عليك و يعصمك وإذا قطعته فهذا يعني أنك قد فتحت بابًا واسعًا للشيطان لا يغلق إلا بإعادة ربط هذا الحبل مرة أخرى ..

والشيطان يا أقصى دائمًا ما يورث الإنسان صفاته السيئة من الكبر والعناد و العصيان و الطمع، و لكننا للأسف نعينه علينا بهذا ».

- إذن نحن السبب .. نعم قد نطقت بالحق يا فهد فقد أعجبتنا كثرتنا ، و الأموال التي تراكمت في خزائننا و نسينا الجهاد و نشر دين الله ، فظهر هؤلاء و ابتغوا في الأرض الفساد حتى جاءوا إلينا بعد أن كنا أضعف من أن نواجههم ، و الآن نبكي الدم .

- لا تبتئس يا أقصى فدائمًا يوجد أمل .

- و لكن هل الأمل قوي لدرجة أن يعيد الأقصى !

- أجاب بصوت قاطع واثق : نعم .

التفت إليه بدهشة فهذه ليست النبرة التي طالما سمعتها منه.. نبرة الفرد الذي يتمنى أن تتبعه الجماعة، و لكنها كانت نبرة الجماعة التي يتبعها الفرد..

نبرة القوة..

- فسألته بلهفة ماذا تعني ؟

- أبشر بالقدس !

- ماذاااااااااااا ! هذا حقيقي ، أعني كيف ؟ هل حدثت تغييرات جديدة ، أنا أتابع كل يوم الأخبار و لم أسمع شيئًا معقول أن يفوتني خبر كهذا !

- لا ليس الأخبار بل الفيس بوك .

- الفيس بوك ! ما علاقته.

- قد بدأ العد التنازلي للانتفاضة الثالثة .

– الله أكبر .. حقًا يا فهد، و لكن كيف ستجهزون لها، و ما هي الدول المشتركة ؟ و متى موعدها ؟ وو ...

– توقف عن طرح الأسئلة .

– و لكن أنا أريد أن أعرف كل شيء.. كل التفاصيل مهما كانت صغيرة .

– سأخبرك بما تريد، و لكن يجب أن تعدني بشيء أولًا.

– أي شيء. اطلب ما تريد .

– أنا أريدك أنت يا أقصى أريد الشاب المتفائل الشجاع الذي لا يخاف الموت بقدر ما يتمناه ، أريدك أن تذكر عمر أمام نفسك و أمام الناس و تجعل موته هدفًا لك و تشجيعًا للثأر من قاتليه ، أريدك ألا تحمل نفسك ذنباً هم اقترفوه لا أنت .

– فهل تستطيع أن تعدني بهذا ؟

كنت أفكر هل أستطيع أن أعده ؟

هل مازلت أملك تلك القدرة ؟

و لكنه لم ينتظر، وضعها بين يدي قال خذها فهي من أبي أهداها لي وأنا صغير، لم أصدق فقد كسر فهد أسوار ماضيه الغامض من أجلي فإنه يحدثني الآن عنه، و يعطيني حطته.. حطة أبيه.

«هيا يا أقصى قم معي.. اصرخ معي، و قل ما غاب عن الناس.. ساعدني أن نوقظ ضمير العالم فهذه يدي ممدودة إليك.. »

***

الفصل الثامن

انتفاضة

سجدت بين يدي الله ولامست جبهتي الأرض؛ شعرت ببرودتها فقد قررت ألا يكون بيني و بينها حجاب، و بدأ قلبي يتسلل إليه هذا الخيط الدقيق الذي يفصل بين الموت و الحياة، بين الظلمة و النور، بين الطاعة والعصيان. بدأ يتسلل إليه الإيمان فقد امتلكته من جديد مما أدخل على نفسي طمأنينة و سكنت معه روحي الثائرة. فعبرت العبرات عما يدور في نفسي فترلت صافية رقيقة فكنت في حالة خشوع لم أعهدها من قبل وكأنه قد حان موعد اللقاء الأخير.

فتحت خزانتى و كان منظرها صادمًا فكانت أشيائى بداخلها مبعثرة فبحثت عنها و لكن لم أستطع أن أجدها .قررت أن أخرج جميع ما فيها حتى أعثر عليها. تناولت ملابسى و بصورة عشوائية قذفتها على السرير ومع آخر قطعة أخرجتها وجدتها؛ كانت مازالت في صندوقها الأسود منذ وضعتها آخر مرة ، و كان ينبعث منها ريح طيب وكأنه ريح الجنة.

ابتسمت..

« و أخيرًا وجدتك » .. قلت لنفسي .

ارتديتها بحذر فكنت أخاف أن تتمزق من كثرة لهفتى عليها ، و بعد أن استقرت على جسدي ؛ تحسست ملمسها الناعم الجميل فكانت مصنوعة من الحرير .

قال فهد و هو ينظر إليها بإعجاب : « رائعة !! حقًا رائعة !! »

ثم أردف مستفسرًا « يبدو أنها غالية جدًا.. أليس كذلك ! » .

- ربما.. لا أعلم عن يقين ! فالعم إسماعيل أعطاها لي حين عاد من الحج؛ ربما أراد أن يشكرني لاهتمامي بابنه أثناء مرضه لذلك جلب لي ذلك الجلباب الثمين.

- و ما هذا ؟

- آه هذه .. إنها قارورة مسك ! هل تريد أن تضع بعضًا منها ؟

- نعم أحب ..

فتح فهد القارورة فخرجت منها ريح طيب جميل فتغلل بين جزيئات الهواء و امتزج بها ؛ فاقتحمت الرائحة أنفاسي و شعرت بطعمها على لساني و كأني أتناول بوظة الفانيلا فذاب طعمها حتى وصل إلى جوفي .

- يا الله ! ما هذه الرائحة ! صاح فهد يبرهن إعجابه.

- هل أعجبتك ؟

- و كيف لا تعجبني ؟ إنها رائعة !

- إذن خذها.

- حقًا .. ! أعني .. لا؛ فهذه لك.

- و لكن أنا أريدك أن تأخذها اعتبرها تذكارًا.

- و لكن ..

- لا تقل شيئًا خذها فحسب.

أضاء وجهه بابتسامة حقيقية فتساءلت عن السبب ! كان يمشي بجواري صامتًا يبتسم و أحيانًا يضحك ثم يخرج القارورة من جيبه و يختلس النظر إليها للحظات ثم يعيدها إلى مكانها مرة أخرى.. ظل هكذا طوال الطريق إلى أن وصلنا إلى منزل إيهاب .

خرج إيهاب مرحبًا و ظهر في البداية على وجهه نظرة استغراب عندما رآني، و عندما انتبه إليها فهد تقدمني بخطوات ووقف لدقائق يتحدث إليه همساً و بعد ذلك التفتا إلي .

قال إيهاب : لا تؤاخذني لم أعلم أنك قادم .

- لا بأس فكنت لا أعلم أنا الآخر أني قادم.. أعني لم أحزم أمري إلا متأخرًا فآسف إذا جئت هكذا.

أشار إلي بيده و قال: لا تقل هذا يا رجل تفضل هذا بيتك؛ سندخل الآن و أعرفك على الشباب قد سمعوا عنك من قبل فأنت أصبحت مشهورًا هنا يا دكتور.

سأله فهد : من جاء ؟

رد إيهاب متحمسًا : قد جاء الكثير ..

ثم أردف بحماس أكبر: ستكون هذه المرة مختلفة أشعر بذلك.

هز فهد رأسه علامة الإيجاب ، و دخلنا نحن الثلاثة إلى بيت إيهاب كان بيتًا بسيطًا مبنياً حديثًا من الطين فقد قام إيهاب وعائلته بإعادة بناء منزلهم بعد أن دمر نتيجة القصف الإسرائيلي الأخير على غزة فعلى الرغم من صعوبة عملية البناء حيث يحتاج الطين وحده الذي يسكب في قوالب علي شكل حجر إلي ثلاثة أيام لكي يجف و هذا إلى جانب ظروف البناء الصعبة من حرارة الشمس المرتفعة و العمل المتواصل لإنهاء بناء المنزل قبل دخول الشتاء إلا إنهم في النهاية استطاعوا أن ينجحوا في بنائه و ها نحن الآن ضيوف عليهم فيه .

تقدمت سيدة عجوز بخطوات بطيئة مرتجفة تستند على عكازها الخشبي وتتشبث به بقوة وكأنها كانت تعانقه ، و قد انحنى ظهرها نحو الأمام وتقوس . فكان منظرها أقرب إلى الراكع ، و عندما اقتربت منها نظرت إلى بوجهها الذي اكتسى بملامح حزينة فعيناها الغائرتان الدامعتان ،

وخطوط وجهها التي برزت إلى الحد الذي أدى إلى انكماش هذا الجلد الذي كان في يوم من الأيام له ملمس الحرير قد رسما صورة عتيقة لا تؤثرك بقدر ما تحزنك .

« مين هدول يمة؟» سألته بلهجة فلسطينية التي اعتدت على سماعها منذ وصولي إلى غزة .

« هدول صحابي يمة » أجابها بنفس اللهجة و طلب منها أن تعود إلى حجرتها بالداخل لأن الجو بارد هنا ، ولكن المرأة العجوز لم تستمع له وجلست على أريكة بالية بدا عليها القدم .

قالت: تعال أحكي لك و لصحابك عن بيتنا في حيفا ثم نظرت إلينا وقالت لا تشوفوا هالدار كان عندنا دار واسعة في حيفا كان فيها كل اللي بتتمناه و كان حوالينا خضرة أشكال و ألوان و أشجار الزيتون و الليمون والريحان كانت بتزين المكان فلما كنت تمسك التراب كنت تشم ريحتهم فيه ، و كان عنا نبع مي كبير كان بارد و طعمه كتير عذب وكان الحصى الأبيض يرقد فيه كنت دايمًا أروح أملى منو الجرة و أحطها على الطاولة و يكون خبز الطابون هلا خالص فنقعد كلنا ملتمين نوكل .

و بس جايهم لعنة الله عليهم هؤلاء الفجرة القاتلة ... دمروا بيوتنا ، وقتلوا ولادنا ، و حرقوا أرضنا ،و طردونا منها. استعملوا معنا أبشع وسائل الإرهاب والقتل سواء بالذبح أو بالرصاص أو نسف البيوت وإحراقها وتدميرها، ولم تنج من جرائمهم حتى زرائب الحيوانات ولا أعشاش الطيور ولا حقول الزرع والبساتين .

صمتت ...

أغمضت عينها تتذكر تلك الأيام التي ملئت بالسعادة و الخير و الصفاء فكانت أحلامها حينها بسيطة و كان أكثر شيء يرجوه الناس أيامها هو تمام الستر و الصحة من الله .أغمضت عينها و تركت أم حسن نفسها

تسبح عائدة إلى الوراء إلى أكثر من خمسين سنة مضت، مما جعلها تشعر أنها عادت مرة أخرى إلى حيفا.

لعبت يدها بهذه القلادة التي تتدلى من عنقها . كانت قلادة ذهبية يتوسطها مفتاح عتيق يبدو عليه القدم أمسكت المفتاح و كان مازال متسلسلًا في رقبتها مربوطًا بها « هادا مفتاح بيتي في حيفا » قالت ، هذا ثم دست يدها المرتعشة في صدرها وأخرجت صرة صغيرة من القماش وبعد أن فتحتها ظهرت منه ورقة صفراء بالية .

مسكتها بقوة ...ثم رفعتها لنا لكي نراها بوضوح ..

قالت : شوفوا هاي مليح ... هاي هي طابوا بيتي ... هاي هي أرضي... هاي هي حياتي ثم انتفضت فجأة وكأنها أدركت أن هناك خطأ ارتكبته فسألت « أنا شو اللي مخليني كاعدة هون ليش ما أروح على بيتي».

و كأنها عادت مرة أخرى شابة ؛ وقفت تنادي بصوت عال على والد إيهاب الشهيد « يا حسن تعال يلا وديني على حيفا ،يلا يا ولد تعال جاي وديني»

مسكها إيهاب يحاول أن يمنعها « وين رايحة يا ستي ؟ »

قالت : رايحة على بيتي .

قال إيهاب : ما خلاص أخذوه اليهود من زمان ... هاظ صار بيتك هلا ارجعي الله يرضى عليكي لجوا .. ثم نادى على والدته « يمة تعالي خدي ستي و دخليها جوا »

جاءت والدة إيهاب و أدخلت جدته للداخل بعد أن خدعتها و قالت إنهم أكيد سيذهبون غدًا لحيفا ، أصاب ذلك وجه إيهاب بالحزن فقد بدا عليه ألم حركته الذكريات .

«لا تآخذوني يا شباب »... اعتذر لنا و هو يخفي وجهه الحزين أمام ابتسامة زائفة.

دخلنا إلى الحجرة حيث كان ينتظرنا الآخرون .. وقفوا ليحيونا. أشار إيهاب علي ليعلمهم بانضمامي « هذا أقصى الطبيب أعتقد أن معظمكم يعرفه » هز الجميع رأسهم وابتسموا و قالوا: نعم... ثم بدءوا يصافحونني أنا و فهد.

أردت أن ألقي عليهم كلمة صغيرة لأبرر سبب وجودي بينهم و لكن روحهم الطيبة التي تقبلتني بينهم بسهولة جعلتني أتراجع عن هذا فكان يكفي أنني أريد ما يريدون.

دخلت والدة إيهاب و هي تحمل أكواب الشاي على صينية فضية اللون و قد أدرك الصدأ أطرافها .

- شكرًا يمة حطيها هون .

- بدك شي ثاني يمة .

- لا تسلمي ..

ثم قبل يداها التي عطفت عليه فمسحت على رأسه قالت: « الله ينصركم يا أولادي ما عنا غير رب العالمين نتوكل عليه هجرونا الناس ونسونا هون ، بس ما في مشكلة احنا نفديك يا فلسطين بروحنا و حتى لو أخذتِ كل ولادنا حتى لو أخذتِ روحي راح أكون راضية »

تركتنا السيدة العظيمة التي تحملت مسؤولية عائلة بأكملها منذ وفاة زوجها و استطاعت رغم ظروف الحياة الصعبة أن تربي إيهاب و إخوته على طهارة الروح و الجهاد ، و كان أكبر جهاد علمتهم إياه هو جهاد النفس من مغريات الدنيا الفانية و مطامعها فكان تحرير فلسطين و القدس الشريف هو الغاية الكبرى .

« الغاية هي تحرير بلادنا » قال ياسين.

رد غسان: هذه غايتنا أكثر من خمسين عامًا ، و لكن ما يجب أن نفكر فيه هو كيف نحررها ؟ لقد اتبعنا معهم حرب الجهاد فقتل منا و قتل منهم؛ كانت قوية.. بدأت قوية، و لكن النفوس الضعيفة لم تتحمل و سمعت إلى ما يطلقون عليه " مفاوضات " و لكن بعد أن اتجهنا للمفاوضات ماذا حدث ؟ اتفقنا و بعد أن اتفقنا خانونا فعدنا للجهاد، و لكن هذه المرة صارت قبضتهم أوسع من قبل و أقوى فوقعنا في المنتصف و انقسمت قواتنا بين فئة تأمل أن تصدق المفاوضات مرة و تعود الأرض المسلوبة إلينا ، و فئة أدركت أنه لا أمل من الحديث و الحوار و أن سنة الله و رسوله وأصحابه هي الحل فلا أمان لخائن و لا سلام بدون عدل فأعلنت الجهاد وقدموا أرواحهم هدية لقتل و إنهاء الوجود الصهيوني في بلادنا .. هؤلاء صاروا في هذا الطريق، و الآخرون صاروا في الطريق الآخر، نعم قد توحدت الغاية و اختلفت الطرق ، و لكن معها تمزقت الوحدة.

قال إيهاب : نعم الغاية واحدة فغاية الشعب الفلسطيني على الجملة هو تحرير البلاد من هذا الوجود الذي سلب منه الأرض و قتل و أحرق الحياة فيها .. حلم الجميع أن يعودوا إلى بلادهم، و أن تعود الحياة كما كانت في الماضي ، و لكن إذا نظرت إلى الماضي ستجده نفسه السبب فيما نمر به الآن.

رد فهد مؤيدًا: الماضي.. و يا له من ماضٍ قد صنعه البشر .. صنعه أجدادنا فضيعوا الخلافة و جرى كل واحد منهم وراء أحلامه و مطامع الملك. فقتل القوي منهم الضعيف و ظفر بما في يده فتفكك الرباط و أكله الزمن حتى طمع من كانوا يهابوننا يومًا ما فينا، و جلسوا يقسمونا إرث الرجل العجوز.. إرث المسلمين .

لماذا أنت صامت يا أقصى ؟ سأل غسان فكان يريد أن يكشف حجاب عقلي و يقرأ ما فيه.

« لست مؤيدًا و لا معارضًا » ظهر على وجهه الاستغراب من إجابتي لأني أجبته عن السؤال الحقيقي الذي كان يدور في عقله.

ثم أكملت موجهًا حديثي للجميع فقلت لهم: فهـذا الماضـي الـذي تتحدثون عنه ما كرهتموه بقدر ما اتبعتموه.

صاحوا يعترضون فلم يعجبهم قولي ، و لكن لم أهتم فيجب أن يصدم الإنسان حتى يدرك أنه على خطأ فيستطيع أن يصححه يومًا .

حاول فهد أن يكسر هذا الضجيج بسؤالي « لماذا ؟ »

كانت إجابتي بسيطة .. واضحة، و لكن لم أتوقع أنها ستكون صـادمة لهم لهذه الدرجة فكنت أريد منها إيجاد حل لذلك تحدثت بحرية و أخبرتهم الحقيقة:

لأنه يا فهد قتل القوي الضعيف لا يعني بالضرورة أن يكون القـوي بعيدًا عن الحق فربما أراد أن يعيد هذا الحق الذي أضاعه الضعيف بضعفه ، و استغلال من حوله له ، و نعم قد يكون العكس فقـد أراد القـوي أن يستأثر بالقوة ويملكها لوحده فأضاع الضعيف و أضاع معه عدله . و إذا أمعنت النظر ستجد أن القوي يلوم الضعيف على ضعفه و الضعيف يلوم القوي على بطشه، و وسط هذا كله نسيَ الاثنان شيئًا أهم من نزاعهما ، و إن صحت نواياهما وعرفت أغراضهما. فما من نزاع يحدث إلا و أغرق الدولة معه، و أضعفها، و فتح باب للفتنة لا يغلق إلا بعد أن تتفكك معه الأمة. و شبيه هذا يحدث الآن هنا في فلسطين ففريق يريد الجهاد و لا يرى منه مفرًّا، و فريق يتبع قوانين العالمية في إبرام المعاهدات و سـلك سـبل المفاوضات. نعم غاية الفريقين واحدة ، و قد اختلفت طرقهما ، و لكـن تحول الأمر بينهما إلى نزاع فكل واحد غاب عنه أن ينظر إلى ما يدور في رأس الآخر و أصبح يرى أنه الأصح فتنازعا فذهبت ريحهما . لـذلك لم

تنفع المعاهدات ، و لم تؤثر عمليات الجهاد إنما كانت وسيلة و مبررًا لاستعمال العنف .

« إذن ما الحل »

سألتني الفتاة التي كانت تقف على عتبة الباب حيث كان جسدها الممشوق يستند بقوة على الحائط. كان منظرها يدل على قوة فنظرتها الثابتة ووجهها الأبيض الذي برز أكثر بعد أن أحكمت وضع غطاء الرأس أعطاها وقارًا زيادة على جمالها ، و بنظرة من عينيها اللتين اختلطتا بين اللون الأخضر و العسلي أعادت السؤال .

وقف إيهاب الذي أصابه الاضطراب عندما انتبه لوجودها ، و قد بدأت قطرات العرق تتساقط من جبينه ، و تغيير لون وجه و اكتسب حمرة الخجل ، و اختلت نبرته وباتت أكثر رقة مما عهدها .

وقف، و ناداها باسمها " أسماء "

التفتت إليه، و قد اكتسى وجهها أيضًا نفس الحمرة التي أصابته منذ قليل، و قالت بنبرة أقل حدة من نبرتها التي سألتني بها « أعتذر على التأخير» .

تقدم إليها بخطوات كانت بها لهفة، و عندما صار أمامها نظر بشوق إلى عينيها للحظات بدت و كأنها سنوات ثم التفت إلينا، و قال وهو يبتلع ريقه ببطء هذه أسماء.

حياها الجميع فكانوا يعلمون من هي أسماء ، و لكن ليس اسمها فقط ما يعرفونه بل كانوا يعلمون عنها أيضًا جهادها الذي بدأته منذ أن كانت صغيرة فعندما اندلعت شرارة الانتفاضة الثانية كانت موجودة بروحها وقلبها فلم يمنعها سنها الذي لم يتجاوز الخامسة عشر أن تقف في المظاهرات و تهتف و تتعرض للقتل أو الاعتقال ، و لم يتوقف عملها عند ذلك الحد بل كانت تؤمن طريق الهرب للمتظاهرين حين يطوق الجيش

الشوارع و المنازل فكانت هي و صاحبتها ترشدهم إلى الدروب الخفيـــة والممرات السرية التي لا يعرفها أحد غيرهم . فكان لها الفضل و من معها في تحرير، و إنقاذ العديد من شباب الانتفاضة من قبضة الأسر و سجون الظلم، و كان من أكثر الأشياء الأخرى الـــتي يعرفهـــا الـــشباب عنـــها ويدركونها جيدًا أنها من أحبها إيهاب .

- هذا هو أقصى.

بدا تعجبها بالاسم واضح، و قالت و هي تتفحص وجهي و تحدق إليه بدقة وكأنه به شيئًا غريبًا « تشرفنا يا أستاذ أقصى »

- شكرًا .. أجبتها و أنا أحاول أن أهرب بوجهي بعيدًا عنها.

أشار لنا إيهاب لنجلس و قال « تفضلوا ليش واقفـــين » . فجلـــسنا ولكنها كانت واقفة تنتظر بخجل أن يتخلى أحدٌ منا عن مكانـــه لأجلـــها فسريعًا ما انتبه إليها إيهاب و تخلى عن مقعده فأجلسها عليه فابتسمت له ابتسامة رضا مما أظهر على وجهه علامة فخر و اعتزاز بنفسه .

عاد إيهاب بعد أن جلب معه كرسيًّا بدا مريحًا أكثـــر . اعتقـــدت في البداية أنه من سيجلس عليه ، و لكنه أشار إلى أسماء بعينه لتنتقل للجلوس عليه فبهدوء تحركت إلى موضع الكرسي الجديد وتركت مكانها الذي كان يحتل المنتصف لإيهاب .

بدأ إيهاب يدير الحوار و لكن هذه المرة بشكل مختلف فكان يتحـــدث بثقة كبيرة ، وأفكاره كانت على جودة عالية من التنظيم و التخطيط . فقد ترك الأحاديث الجانبية و الآراء الفردية ، و بدأ يفكر فيما قد نستطيع أن نقدم حتى نصنع انتفاضة تختلف عما سبقها ، و يكون لها أثـــر؛ لـــذلك لم يلتفت إلى تكرار أسماء لسؤالها الذي وجهته لي مما أغضبها ، و لكنه لم يهتم و أردف يشرح لنا كيف سيكون الأمر و ما قد يحدث مـــن ردة فعـــل و شدد بكلامه إننا يجب أن نثبت مهما واجهنا من ضرب أو تهديـــد أو أي صعوبات أخرى .

سألت فهد و نحن نسير عائدين إلى المنزل لماذا لم يتزوجا على الرغم مما بينهما من حب ؟

صمت فهد يفكر قليلًا، و لكن هل كان يفكر حقًّا في الإجابة ؟ أم كان يفكر في شيء آخر. فعيونه الدامعة التي اضطربت عندما تلاقت عيون كل من إيهاب وأسماء جعلتني أتساءل في شك هل يحب فهد أسماء ؟ أم لديه حبيبة أخرى ساقه الحنين إليها عندما رأى أمامه حبًّا ينبض.

حدثني ، و لكني شعرت أنه من يحدث نفسه عن الحقيقة فكأنه كان يدور بداخله أسئلة تؤرقه و تزعجه فتحدث بصوت عال ليجيب عنها وكأنه يجيب علي أنا فقال :

« إن من الرحمة أن تعطف على جوادك فتوليه من رعايتك و اهتمامك ؛ نعم يؤدي ذلك إلى إنشاء علاقة قوية بينكم فيصبح متصلًا بك ، و كلما أظهرت له من رحمتك تعلق بك أكثر و أحبك . فعندما يراك قادمًا تقترب نحوه يهز ذيله في سعادة و يصدر عنه صوت صهيل عظيم يعكس ما شعر بداخله من سعادة حقيقة فيأخذ من يدك قطع السكر بتلهف و كله رضا وحب ، و منتهى الرحمة أيضًا أن تقرر أن تتخلى عنه فتعقد منكبيك ، وتحكم وضع يدك التي تستعد بثبات لتضغط على زناد البندقية حيث تخرج منها رصاصة تستقر في النهاية بداخل رأسه الأبيض الذي تعلم عن يقين إنها ستؤدي إلى حتفه لا محالة ، و قرارك هذا ما هو إلا رحمة له فأنت تعلم إنها الوسيلة الوحيدة لإنهاء ألمه » .

صحيح أنت من يقرر الاقتراب أو الابتعاد ، و لكن أنت أكثر شخص يتألم .. لأنك ما تقربت إليه إلا و أنت تعلم أنك مجبر أن تتركه في النهاية لأسباب خارجة عنك ، وعندما تحين اللحظة الأخيرة و يكون عليك أن تتركه تتألم أكثر مما يتألم هو ؛ فما تركته إلا لتقضي على ألمه حتى لا يزداد أكثر ، و إن كنت على يقين أن هذا سيسوقك إلى زيادة ألمك أنت في النهاية .

تلك هي المعادلة الصعبة يا أقصى بين العاشق و المعشوق . هذه هـي المعادلة التي كتبت على من عاش للجهاد و القضية فيجد نفسه بالمنتصف بين أن يعيش بسعادة مع من يحب ،و يتخلى عما يؤمن به . أو يقـرر أن يتخلى عمن يحب لكي يحقق ما يؤمن به .

سألته: لماذا لا نحتفظ بمن نحب و نجاهد أيضًا ؟ فما المشكلة إذا اجتمع الأمران ؟

رد بأسى: لأنك بتمسكك بالجهاد تعرض من تحب للأذى، و هذا أمر لا تستطيع أن تتحمله فتقرر أن تبعد عنهم متحملًا هذه الآلام الذي تحملها لحظات الفراق و الذكريات.

حاولت أن أتسلل إلى أغوار نفسه ، و أكشف الستار عن الحجـاب الذي أخفى وراءه آلامه بحثت بداخله عن إجابة لسؤالي « إذن من هؤلاء الذين تخليت عنهم يا فهد ؟ »

هرب مني، و تطلع إلى السحاب الأبيض الذي بدأ يتجمع في الـسماء «يبدو إنها ستمطر » و بالفعل بدأ المطر يتساقط كان في البداية ضـعيفًا، ولكنه ازداد قوة و احتد فنزل إلى الأرض و قد صنع صوتًا يـشبه أزيـر الرصاص.

- ما يوجد بقلبك يا فهد ؟

نظر إلي بحدة ، و كانت بيننا قطرات المطر تتساقط .

- ماذا تعني؟

قررت أن أواجهه بما أشعر. لم أكن أريد أن أجرحه أو أسبب لـه أي ضيق بل أردت أن أداويه.

- لماذا كل هذا الحزن الذي أراه بداخلك ، لقد راقبتك و أنت تنظر إلى أسماء .. هل تحبها ؟

- توقف يا أقصى .. لا تتحدث أكثر من ذلك.

- و لكن ..! لماذا ؟ أنا ....

- أرجوك ! أرجوك !

قالها بإصرار فلم أملك غير الصمت فيبدو إني طرقت بابًا ما كان علي أن أطرقه فشعرت بالضيق لما جلبت عليه من الألم.. فاعتذرت له « آسف حقًا يا فهد لم أعنِ... »

قاطعني، و عاد يبتسم كأنه لم يحدث شيء لا عليك يا أقصى، و لكن لا تقلق علي أنا بخير فدعنا نفكر بأمر آخر فتنتظرنا أيام صعبة.

عدنا إلى المنزل و جلسنا مع إياد الذي كان منتظرنا نشرح له ما ناقشه معنا إيهاب .. كان ينصت إلينا بعناية بالغة . لم يعلق كثيرًا فكانت الإثارة التي ظهرت عليه خير معلق.

***

الخامس عشر من آذار لم يكن يومًا عاديًا فقد انتظره العديد و العديد فقد سرى دبيب الحماس في صدور الجميع فوصل نحو القمة و قد دفعه إلى الأمام رياح الثورات العربية فأعلنت على الملأ اندلاع الانتفاضة العربية الثالثة.

ففي يوم الأحد الخامس عشر من آذار لعام ٢٠١١ خرجت الجموع لتبدأ مسيرتها نحو الأقصى.. لتبدأ مسيرة العودة إلى الأراضي المحتلة بعد انقضاء ٦٣ عامًا على احتلالها.

كانت الحماسة تبدو عليهم رغم هذا القلق الذي كان يساورهم، ولكني رغم ذلك نظرت إليهم نظرات إعجاب و تقدير فمنظر الحشود

التي تجمهرت أدخل إلى نفسي السرور ، فشعرت و كأني أشهد إحـــدى غزوات الرسول – صلى الله عليه وسلم – فالكل يسيرون في ثبات نحـــو الأمام على الرغم إنهم يدركون جيدًا أنه قد لا يكون هناك سبيل للعودة . فبثبات اتجهوا شمالًا محاولين العبور عن طريق بلدة بيت حانون .

كنت أمشي و قد خلّفت الخوف ورائي حيث تركت شـــهد بعـــد أن دبت بيننا مشاحنة كبيرة انتهت بتوسلاتي التي ذرفت معهـــا الـــدموع.. دموعًا كانت مليئة بالخوف فترجيتها ألا تأتي معنا.

سألتني مم أنت خائف يا أقصى ؟

– هل تخاف علي منهم أم تخاف أن يطولني الموت هناك ؟

قلت لها الحقيقة .. حقيقة خالية من ذكر الموت فأنا فقـــط أريـــد أن أذهب و بالي مطمئن فرجوتها مره ثانية و سألتها « هل تقبلي بأن تحققي لي تلك الأمنية ؟ » .

انصاعت إلي ليس لأنها خائفة من الموت أو خائفة من غضبي عليهـــا، ولكنها رضيت بالبقاء لأنها كانت تخشى أن ترى نظرة الحزن على وجهي مرة ثانية ... لأنها كانت تتألم عندما رأت دموعي و أنا أترجاها ألا تذهب، و هذا جعلني أحبها أكثر و أخاف عليها أكثر، ولذلك في تلك اللحظـــة قررت أن أترك الخوف.. أن أنساه فتقدمت إلى الأمام مستسلمًا لقـــضاء الله و أمره فعندما تحركت بين الحشود كانت تملؤني الحماسة و تـــذكرت الوعد الذي قطعته حين قلت «لن أتركك إلا و أنتي حرة » .

كانت المظاهرة كبيرة فكان هناك المئات و المئات من الحشود و كنـــا نحن نسير بينهم فكان عن يميني يسير إياد و قد عصب رأسه بحطة حمراء ، و خلع عنه نظارته الطبية ووضع بدلًا منها عدسته اللاصقة مما أعطاه منظر المحارب وما جعلني أشعر بهذا أكثر هذا السلاح الأبيض الذي أخفاه بـــين ملابسه و الذي برر إياد احتفاظه به حين قال لي« يجب أن نكون مستعدين

لأي شيء » لم أكن أريد أن أُثَبِّطُ من عزيمته ، و لكن كيــف يمكــن أن يصمد هذا السلاح البسيط أمامَ البنادق و المتفجرات و الدبابات .

كان هذا رأي فهد أيضًا الذي أخفى هو الآخر سلاحًا بملابسه و كان مسدسًا فضي اللون به خزنة رصاص، و عندما رأيته في يــده انقبــضت فسألته « من أين لك بهذا ؟ »

ضحك و قال « هذا من فضل ربي »

ضحكت أنا الآخر و أنا أحاول أن أثبت نظرة الحزم علــى وجهــي، ولكني استسلمت له و ازدادت ضحكاتي و بحركة فجائية منــه عــانقني وشدني إليه بقوة « لا تخف » قال، و قد كان هو من ينظر إلي في وجوم. ازداد انقباضي لردة الفعل السريعة هذه و الغريبة. فكيف كان يضحك في آن ؟ ووجه مليء بكل هذا الوجوم و الحزن في آن آخر.

نظر إلى السماء و كأنه يناديها ، وأضاءت عينه بوميض مليء بالدموع ، و قال لي « يا صاحبي لا تخف إن الله معنا » ازداد شــعور الانقبــاض بداخلي و ساورني الشك و القلق، و لكني نظرت إلى الأمــام محاولًــا أن أتجاهل تلك النظرة التي رمقني بها .

صرخ إيهاب بصوت جهور بعد أن تسلق على يدي فهــد و غــسان وأمسك علم فلسطين و لوح به في الهواء بقوة و ساعدته رياح الحرية أن يرفرف أكثر و صار ينادي و يقول :

- « طردونا ...قتلونا ... أهانونا، و لكن لن نقف مكتوفي الأيدي بعد اليوم، الموت.. الموت يا شباب فتقدموا نحو بلادكم .. نحو فلسطين ألا تسمعونها هي تناديكم.. الأقصى يناديكم تصدوا لهم لا تتركوه أسيرًا فهذا يكفي فلن نصمت بعد اليوم » .

صرخ الناس، و صرخت معهم و قد أخرجت كل ما أشعر بــه مــن غضب و حقد أمام هذا الظلم.. أمام هذا التخاذل و الضعف الذي أشعر

به .. صرخت ، و قلت معهم بدون خوف (الله أكبر.. الله أكـــبر ، الله أكبر و النصر لنا .. و النصر لنا).

و صلنا شمالًا و قد ارتصفت قوات العدو و كانوا مدججين بالسلاح .. قد ارتصفوا بأسلحتهم و دبابتهم و ظلمهم . تقدمنا نحوهم إلى الأمام نجري كجري المشتاق إلى الموت تصدر عنا صيحات الحرية التي غاب عنها الأسر ، و لكنهم تصدوا لنا بأسلحتهم، و قذفوا علينا من قنابل الغـــاز المـــسيل للدموع و الرصاص المطاطي محاولين بذلك أن يردعونا، و لكننا صـــمدنا أكثر و أظهرنا لهم قوة الحليم عند غضبه فأهلنا عليهم بالحجارة نقـــذفهم كما يقذف الشيطان في يوم عرفة.

تملكهم الخوف و الغضب فاستخدموا معنا أسلوبهم أسلوب الخيانـــة ؛ فأطلقوا علينا قذيفتين أحدثتا ضجيجًا عاليًا وصل إلى الآذان فوضعنا أيدينا لنمنع هذا الصوت أن يتسلل إلينا ، و بعد أن انتهى وقفنا مـــرة أخـــرى بثبات نجري إليهم فاستخدموا معنا سلاحهم الأخير و هو الموت فأهالـــت علينا طلقات الرصاص الحي من كل جانب ، فجرى الجميع إلى الخلـــف يحتمون وراء أي شيء يجدونه .

بحثت عن فهد و إياد فلم أكن خائفًا من الرصاص بقـــدر خـــوفي ألا أجدهما أو أن يكونا قد أصيبا . كان الجميع يهرب من الرصـــاص و أنـــا أتقدم أبحث أنادي عليهما فهد .. إياد أين أنتما ؟

قال لي أحدهما:

- « يا مجنون اهرب احتمِ من الرصاص »

و لكني لم أستمع إليه و تقدمت إلى الأمام أكثر أبحث عنهما .. أفـــتش بين الأجساد التي تنزف حاولت أن أساعدهم، و لكن كل ما كنت أساعد شخصًا أجد آخر قد سقط بجواره، و أثناء ذلك شعرت بشيء يحـــرقني في يدي و نظرت فكانت الدماء تسيل من كتفي فقد اخترقته رصاصة.

وقفت للحظات أداوي نفسي فربطت الخطة السوداء التي أهداها فهد لي .. ربطتها بقوة على كتفي بعد أن استخدمت أسناني لأحكـــم ربطهـــا فأوقف نزيف الدم ، و تقدمت أكمل بحثي عنهما ، و أخيرًا وجدت إياد ، و لكن كان مغشيًّا عليه جريت نحوه و أنا أدعو أن يكون مازال حيًّـــا .. يتنفس . حاولت أن أوقظه ، و لكن كان قد أصيب هو الآخر في قدمه ، وبعد أن تحكمت بنزيف قدمه أوقفت بعض الشباب ليحملوه بعيدًا عن هنا ، و عندما تأكدت إنهم ذهبوا به تقدمت إلي الأمام أكمل بحثي عن فهد ، وكان قد اشتد نزف يدي و أخذ مني التعب مأخذه ، و لكني حاولت أن أتغلب على الألم .

أكملت و قد بدأت أشعر ببرودة تـــدب في جـــسدي، و جفـــاف في حلقي.. كنت أشعر أنني أموت... احتضر، و لكني لم أفكر بالموت بالقدر الذي كنت أفكر بفهد؛ لذلك بكل سعادة تقدمت أكمل طريقي

فهد .. فهد..

و أخيرًا وجدته كان يناديني « أنا هنا.. أنا هنا يا أقصى » وصلت إليه و احتضنته بقوة كنت أحمد الله أنه بخير الحمد لله الحمـــد لله ، صـــرت أرددها .

أفجعه منظري ، و قال لي بخوف « أقصى ما بك ؟ أنت تنزف ..! »

قلت له مطمئنًا: أنا بخير هو جرح بسيط.. هل أنت بخير ؟

نظر إلى جسده و كأنه يتأكد و قال بثقة: أنا بخير لا تخف علي..

وقعت على الأرض و قد ضاق نفسي ..

صرخ علي فهد أقصى ... أقصى ...

صرخته نبهتني ، و كأنها أعادتني للحياة مرة أخرى قلت له لأطمئنه : أنا بخير... هيا بنا نذهب إلى منزلنا .

حملني إليه واستندت يدي على رقبته، و لكن كانت طلقات الرصاص مازالت تنطلق بيننا. حاول فهد أن يتفادها و كنا نسقط كثيرًا على الأرض فيضع فهد جسده علي ليحميني ، و عندما يبدءون الضرب في اتجاه آخر يحملني مرة أخرى و يجري بي ، و بعد أن أوشكنا أن نصل إلى منطقة أمان إذا برصاصة تخترق جسد فهد فدخلت من الخلف و خرجت من الأمام لم أشعر بها ، و لكني شعرت بجسد فهد ينهار على الأرض و الدماء تنزف من فمه و قد أطلق يدي .

صعقت لمنظره التفت إليه ببطء و أنا أكذب عيني حركته بهدوء، وناديت عليه بصوت محشور ضعيف .. فهد .. يا فهد، وقع على الأرض وكأنه زجاجة مكسورة غفلت من يدي صاحبها.

تملكني الفزع و أمسكته بقوة ناسيًا الألم الذي بي ، و جذبته حتى وصلت به عند شجرة احتميت بها . كانت الدماء تخرج من فمه أكثر وأكثر، و كان ينظر إلى السماء و يبكي.

فهد .. فهد

حاولت أن أبقيه مستيقظاً، و خلعت الحطة من يدي و وضعتها على جسده لأوقف نزيف دماءه فاختلطت دماؤه بدمائي.

ازداد نزيفي و كنت أشعر بالموت يقترب، و لكني لم أهتم .. لم أهتم .. لم أفكر في شيء سوى فهد كنت خائفًا عليه.حاولت أن أفعل أي شيء لأوقف نزيفه و لكن دماءه كنت تنزف بغزارة من جسده فقد تمزق طحاله و أصيب كبده ، فلم يكن هناك شيء آخر أستطيع أن أقدمه إليه فقد كان يحتضر و ينازع سكرات الموت . ظل ينادي و هو ينظر إلى السماء أبي ...يا أبي ، ثم بعدها يبدأ ينادي على أمه و يقول :

- أمي أمي .. أمي أين أنتِ .. و فجأة نطق باسمها ووجهه يملؤه الحب « روح أنا قادم إليك .. أنا سأكون هناك منتظرك .. منتظرك هناك بالفستان الأبيض ».

ضحك في وجهي و وضع يدي التي تلوثت بالدماء على صدري حيث يوجد قلبي ثم قال لي « أخي أقصى لا تنسَ الأقصى تلك هي وصيتي».

صرخت فيه و أنا منهار أبكي دموعي تلاحقني تترل بغزارة فقلت له وقد أكذب على نفسي قبل أن أكذب عليه: سنحرره معًا يا فهد فأنت ستعيش ... سترى ... ستكون بخير أعدك بذلك .

ضحكت شفتاه الدامية و عاد إلى غيبوبته و ظل ينادي و هو يتألم و ينازع الموت روح.. أمي.. أبي أنا قادم إليكم أنا سآتي انتظروني فها أنا قادم.

بقي ينازع و أنا أشعر بالعجز أمامه فلم أكن أملك غير البكاء، و الصراخ حاولت قد حاولت أن أجد له سيارة إسعاف و لكن كان الطريق مغلقًا فقد أحاطونا بمصيدة و تركونا نواجه مصيرنا فيها

جمعت ما تبقى في من قوة و صرخت فيه ليفيق ففتح عيونه بضعف ورجع من غيبوبته للحظات، تمتم بكلام غريب لم أفهمه فقربت أذني من فمه لأسمعه فقال «عندما تعرف لا تحكم علي يا أقصى.. أخي أقصى قل لها إني منتظرها ».

بعدها نظر إلى السماء ، و قال و كأنه يحدثها أنا قادم. ثم رفع سبابته ببطء و قال بسلام و هو يبتسم لمن حوله (أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدًا عبده و رسوله).

بقت الابتسامة على وجهه ، و لكن كانت روحه قد فارقت جسده . احتضنته و أنا أبكي فهد.. فهد، وبعدها بدأت تدب إلى روحي الآلام

فبدأت أشعر بها فمن كان يمنعها عني قد مات و انتهى.. من كنت أتحمل لأجله قد مات و تركني.. من كان أخي لم يعد موجودًا و ذهب إلى ربه.

أغمضت عيني و استسلمت للموت مرحبًا به. و أسندت رأسي على صدره مما جعلني أشعر بالراحة و سبحت إلي مخيلتي صورتنا نحن الأربعة حين كنا نجلس على الشاطئ نأكل الذرة المشوية و نضحك، نزلت الدموع من عيني قطرات، و تألمت نفسي فما فاض في قلبي من حنين دمرني.

***

الفصل التاسع

لمحة

كنا بين السماء و الأرض حيث أصبحنا مع السحاب في مكان واحد لا يفرقنا أحد. أحكم الجميع ربط حزام الأمان جيدًا و تـشبثوا بأيـدهم محكمين قبضتهم على مسند الكرسي، و كان بينهم من أمسك يد حبيبه فطلب الأمان الذي وجده معه ، و كان يوجد آخرون من لا يشعروا بهذه الهبة الرائعة التي لم يتوصل إليها الإنسان إلا بعد أن دفع للموت .

ارتفعت الطائرة و استقرت في السماء تسبح في المحيط الواسع، و أعلن الكابتن أننا نستطيع أن نفك الحزام و نتحرك كمـا نريـد. نظـرت إلى السحاب أتذكر الماضي و أفكر. . فأنا لم أكن أتوقع أن أكون هنا، فلـم أكن أصدق أني سأعيش لأصل إلى هنا.

هل تحب أن تشرب شيئًا ما ؟

سألتني المضيفة بأدب، وانتظرت جوابي الذي ظل معلقًا بداخلي يبحث عن طريق للخروج فكان مصدومًا ربما يتساءل هل أنا حقًّا هنا ؟ لا.. بل يتعجب أنه مازال موجودًا.

أستاذ.. ! !

انتبهت إليها ..

آسف خرجت مني بسهولة، ثم أجبتها « ربما ماء».

أعطتني كوبًا من الماء البارد به قطع ثلج مما أدى إلى صنع غمامة بخـار تحيط الكوب من الخارج فغلفته لي بقطعة منديل بيضاء .

تفضل ...

أجبتها بنفس الابتسامة الصافية، و قلت لها: شكرًا .. ! ، و آسف إذا أتعبتك.

لوحت برأسها علامة للنفي، و ابتسمت لي ابتسامة بها رقة و لطـف أكثر، و بعد أن أعطت للرجل الجالس بجواري عصير برتقال ذهبت و هي تتطلع إلي.

قال وكأنه يهمس لنفسه: عجيب..! ثم رشف رشفة صغيرة من عصير البرتقال و بعدها مسح فمه ثم عاد يكمل قراءة كتابة.

كفاحي..

كان هذا هو اسم الكتاب الذي جذب انتباهه و هم في قراءته بحماس كبير. و بعد قليل وجدته يضحك مؤكدًا تعجبه مـرة أخـرى «هـذا عجيب..!» قال ..

أردت أن أسأله ما هذا الشيء العجيب الذي يطلق فيك هذه المشاعر المتضادة بين الجدية و المزح ، و لكني شعرت أنه من العيب أن أتدخل في شئون الرجل لذلك لم أفكر ماذا كان يعني ؟ و رجعت أنظر مرة أخرى إلى السحاب.

- هل قرأته ؟

التفت يمينًا و شمالًا أتأكد من أني المقصود فسألته:

- عفوًا هل تتحدث معي ؟

ابتسم لي و قال: هل يوجد أحد غيرك يجلس بجواري ؟

أجبته بطفولية: لا ...

رد علي بنبرة المعلم الذي ينتظر جوابًا : إذن قرأته !

- اصطنعت أني أجهل ما يرمي إليه فقلت متعجبًا : عفوًا قرأت ماذا !

– كفاحي..!

– مع الأسف لم تتسنَّ لي الفرصة .

– آه .. أنتم الشباب دائمًا ما تتحججون بالوقت مع أنكم تملكـــون الكثير منه. فماذا أقول أنا، و قد أصبح بيني و بين الموت خطوات.

– الله يمد في عمرك . دعوت له بأدب .

– ابني هل سنعيش أكثر مما عشنا. خلاص خلفنا و أولادنا أصــبحوا رجالًا فتحوا بيوتًا، و الله رزقهم بأولاد و أصبحنا جدودًا.

– ربنا يديم عليك الصحة.

– خلاص يا ابني مثلما قلت الصحة لم تعد موجودة.. ذهبــت مــع سنوات العمر الطويل الماضي.

صمت لفترة قصيرة .. ثم سألني أمتزوج أنا ؟

ترددت في نفسي للحظات، و فكرت أيجب أن أشــركه في حيــاتي، وأخبره عن شهد.

– نعم .. قطعت ترددي و قلت له نعم.

– ألك أولاد ! سألني .

– سيكون إن شاء الله .

لم أرد أن أقول له أني و شهد ننتظر طفلنا بعد ثلاثة أشهر، لا أعلم لماذا و لكني شعرت برغبة في الصمت،مد يده إلي و عرفني بنفسه .. أنا رامز !

– أقصى..

– اسمك أقصى، جميل !! مرحبًا بك يا أقصى تشرفت بمعرفتك.

– و أنا أيضًا.

عاد يقرأ في الكتاب ، و لكن هذه المرة صوته كان واضحًا لي حين قال : « يا للحياة فإنها مليئة بالعجائب ..! » .. ثم تنهد ..

شعرت أن الفرص قد أتيحت لي لأعرف ما هذا الشيء العجيب الذي يتحدث عنه فكان الفضول يأكلني .. سألته و قد أخفيت فضولي و قلت بلهجة باردة و كأني لا أهتم.. لماذا ؟

لم يقل شيئًا و لكنه فتح الكتاب و قرأ علي فقرة منه

« و قد أتيح لي أن أخالط (صانعي) الآراء و ناشريها . فأدهشتني السهولة التي يستطيع بها هؤلاء أن يخلقوا تيارًا معينًا و أن يوجهوا الجمهور وجهة تتعارض في بعض الأحيان مع مصلحة الجماعة. ففي بعض الأيام يمكن الصحف أن تجعل من حادث تافه بحد ذاته قضية تهز الدولة، و يمكنها كذلك أن تسدل ستار النسيان على القضايا الحيوية فلا يلبث الجمهور أن ينساها ».

– أليس هذا بعجيب يا أقصى !

– نعم هذا عجيب، و لكن الشيء العجيب حقًّا أن يتخلى الإنسان عن منطقه في رؤية الأمور فيصير يحكم وفقًا لها فأين ذهب حسه ؟

فتح صفحة جديدة من الكتاب و قال : ربما ندع هتلر يجيب عليك .

اعتراني الغضب فأمسكت يده، و أخذت الكتاب منه بعنف و صرخت فيه : لا أريد أن أسمع .. فلن أدع قاتلًا كهذا يجيبني.

صمت الرجل و ظل يتطلع إليّ في ذهول .. و لم يفعل شيئًا .

نظرت إلى حالي و شعرت بالخجل فكيف أصنع مثل هذا فقلت له محاولًا أن أتدارك الموقف:

– آسف.. لم أقصد أن أرفع صوتي.

أكمل متعجبًا و كأني لم أفعل شيئًا: أو كان هتلر قاتلًا حقًّا !

نسيت حالي مرة أخرى ، و رفعت صوتي أكثر حتى نظر الركاب إلينا و قلت بنبرة تهكمية :

– عفوًا و لكن أعندك شك في هذا .. أعندك شك أن هتلر مجرم قتل أبرياء و أحرقهم بأبشع الطرق ، و الآن أنت تقرأ مذكراته و تخرج منها بمواعظ .

أجابني بهدوء يملؤه حكمة: ربما هذا يكون أدعى أن تقرأ و تعرف سيرته فتدرك ما كان يفكر به، لتدرك لماذا عادى اليهود ؟ .. لتدرك الحكمة التي ضاعت .. !

هدأت من نفسي و أجبرتها على الاستماع و قلت همسًا لنفسي رجل عجوز لا يدرك ما يقول اصبر سأصل قريبًا إلى الأرض.

أكمل الحديث قائلًا : ربما تساءلت بداخلك بصمت لماذا تطلعت إليك تلك المضيفة ؟ .. ألم تلاحظها !

هربت منه بخجل، و قلت لا، ثم بتردد أجبته فقد شد انتباهي بسؤاله: و إذن.. ! ماذا تريد أن تقول؟

ابتسم و قال: نبرتك.. كانت نبرتك التي جاءت من زمن أصيل جاءت تحمل تقديرًا لصنيع بسيط، كالتي سمعتها منك منذ قليل.

سألته بلهفة : ماذا بها ؟

قال : صادقة ، فالكل الآن صارت لديه كلمه شكرًا أو ميرسي مجرد كلمة تقال بالفم قد اعتادوا على قولها عندما يقدم أو يصنع لهم الآخرون شيئًا ، و لكنهم في الحقيقة نسوا في أنفسهم ماذا تعني، و لكنك كنت تعنيها حقًّا فشعرت بصدقها كما شعرت المضيفة بصدقها أيضًا .

سألته : ما علاقة نبرتي و المضيفة بهتلر .

قال : الكل يصب في مكان واحد فما يفتقر إليه الناس هي المصداقية فأصبحت كالكنز الضائع عندما يكتشف مع أحد يلتف إليه الجميع حتى لو كان هذا الشخص بمعاييرك لا يملك منطقًا واضحًا . فهتلر كان يملك تلك المصداقية و عندما قرر قتل اليهود كان يرى أنه بذلك ينقذ البشرية من قوة تسعى إلى تدميرها لذلك شعر أنه يتصرف بمعاونة الخالق العظيم من أجل تحقيق أهدافه السامية لمصلحة البشرية حين يدافع عن نفسه ضد اليهود و يعلن عليهم الحرب ، وقف يخطب في الناس حاملًا ما يؤمن به وقد التفت إليه الجميع حتى الشعب المصري فقد تطلع بعض منهم إلى تلك المصداقية التي كان يتحدث بها آملين أنه سيساعدهم في التخلص من الإنجليز .

قلت : و لكن هذا لا يمنعه أن يكون قاتلًا فقد أحرقهم أحياء بأبشع الطرق ..عذبهم فما فعله هو كان معاديًا للإنسانية .

قال : و ماذا فعلوا هم ؟

صمت أتذكر الماضي .. أتذكر تلك اللحظات التي ملئت بالألم . فعدت و كأني أشهد تلك اللحظات مرة أخرى ، وكأن يدي مازلت ملطخة بالدماء .

***

قالوا لي إن خرجت من هنا فهذا يعني موتك. تطلعت إليها وعينها مشبعة بالدموع فكانت كلها رجاء « لا تذهب.. أرجوك فيكفي هذا، عد إلي و دعنا نذهب من هنا » هكذا كانت تتحدث.

أغلقت الباب ورائي و لكنهم حاولوا أن يمنعوني بالقوة فأمسكني أربعة منهم ووقفت ممرضة تحمل معها حقنة بها مهدئ تستعد لتغتنم الفرصة وتضعها بداخلي، و لكن كانت صرخاتي أقوى منهم فأفزعتهم، و دموعي

التي نزفت كانت حاجزًا بيني و بينهم فلــم يــستطيعوا أن يمنعوهـــا.. لم يستطيعوا أن يمنعوني. فتركوني و ذهبت.

كانت الضمادة تحبس الدماء عن النزول ، و لكنها لن تصمد طويلًـــا هكذا أخبرني الطبيب عندما كان يحذرني لآخر مرة فقال:« عمليتك كانت صعبة كثيرًا يا أقصى قد نزفت الكثير من الدماء و لولا أن فصيلة دمـــك كانت متوافرة لدنيا كنت ميتًا الآن ، فجسمك في حالة صدمة يحتـــاج إلى كثير من الراحة ، و أنت طبيب لا تحتاج أن أقول لك إنك معرض لارتفاع في درجة الحرارة ، و عندما ستأتيك الحمى لابد أن تكـــون مـــستريحًا ، ويوجد من يعتني بك » .

كان كلام شهد يدور في رأسي .. كان يتكرر وأنا أنزل على الـــدرج فاهمتني بأني لا أحبها، إني لا أشعر بها، أني قد تخليت عنها .

كانت تبكي بشدة وهي تحكي لي عن مشاعرها :

– هل تدرك كيف قضيت ليلتي يا أقصى ؟ و كيف سيطر علي القلق و أنا أهيم في كل مكان أبحث عنك كالمجنونة. ذهبت إلى كل المستشفيات أسأل عنك تركوني أنتظر طويلًا قبل أن يخبرني أحد أنك لم تصل إلى هنـــا فأطمئن لدقائق ثم يسيطر علي القلق و أقول ربما أصيب و ذهبوا بـــه إلى مستشفى آخر فأجري أكمل بحثي و أنتظر و أنتظر حتى علمت أنك جئت إلى هنا . قد رأيتك يا أقصى.. رأيتك و الدماء تسيل منك. كنت جـــسدًا باردًا أوشكت روحه أن تفارقه. و كادت روحي أن تفارقني أنا أيضًا فلم أحتمل أن تظل روحي في جسدي و أنت هناك ملقي بين الموت و الحياة. أردها بشدة أن تتركني و تذهب تبحث عنك لتعانقك و تعيدك إلى الحياة.

اقتربت منها و مسحت دموعها بيدي و ضممتها بين ذراعي المتعبـــة طلبت منها أن تغفر لي و قلت لها: سامحيني يا شهد و لكن لا أســـتطيع أن أبقى.. لابد أن أبحث عنهم .

صرخت فيّ تخبرني بأن أتوقف فقد انتهى كل شيء فهو قد مات.. قد مات .

لم ألتفت إليها ، لم أصدقها فذهبت و تركتها..

وصلت إلى المشرحة مترددًا أبكي بداخلي أتقــدم خطــوة ثم أرجــع خطوات، فأقف أشجع نفسي ثم أتقدم ، و لكني كنت أرجع مــرة ثانيــة وأتوقف . حتى جاء رجل يسألني أجئت للتعرف على الجثة أشرت برأسي و تبعته في صمت، وقال يخبرني قد جاءت فتاة الليلة البارحة و تعرفت عليه قالت أن اسمه فهد و لكنها لم تكن تعلم كنيته . وعندما وصلنا دخلت إلى حجرة بها الكثير من الخزانات و يتوسطها سرير يشبه الحوض الكبير.

و قبل أن يتحرك الرجل نظر إلى نظرة طويلة يشجعني، ثم فتح إحدى الخزانات و خرج منها سرير متحرك طويل بها جثة عليها غطاء أبــيض ثم نظر إلي نظرة أخيرة و كأنه يريد أن يقول اصمد، و بعدها كشف الغطاء عن الوجه.

- نعم هو ..

- هل لديه عائلة هنا ؟

- لا .. فأنا كنت كل عائلته.

- نستطيع الآن أن ننهي جميع الإجراءات .

سقطت على الأرض أخفي وجهي بعيدًا عنه، كنت أتحــدث معــه في صمت أتساءل إلى أين ذهبت و تركتني ؟ إلى أين ذهبت يا فهد ؟ إلى أين ؟

كنت على وشك الانهيار فقد ألمت بي الآلام، و سيطرت علي فكــرة كيف أني سأعود إلى المترل بدونه ؟ كيف سأعيش تلك اللحظات القادمة ؟ و كيف ستكون مليئة بالوحدة و الألم ؟ فقد فقدت عمر مرة ، و الآن أنا

أفقد فهد. كيف أقوى على التحمل مرة أخرى ؟ دعوت و أنا ألتجــئ لله أن يصبرني و يساعدني .

صرخت ...

يا رب ... يا رب ...

جاء إلي الرجل يجري يحاول أن يساعدني سألني:

– أستاذ.. أستاذ، ماذا بك ؟

– أنا بخير و لكن أشعر ببعض الدوار .

– استرح سأذهب و أطلب إحدى الممرضات.

– لا .. لا بل أنهِ الإجراءات أولًا .

– كيف لا أذهب.. ! انظر إلى حالك أنت تترف !

أمسكت يده وأوشكت أن أقبلها طلبت منه في رجاء:

– أرجوك أنا أناديك بإنسانيتك يجب أن أدفنه أولًا، و قد لا أملــك الوقت لذلك.. فأرجوك عجل أرجوك أنا أتوسل إليك أن تساعدني.

قال: و لكنك تترف يا أستاذ أما هو فقد مات، و لكنك مازلت حيًّــا فلماذا ترمي بنفسك إلى الهلاك ؟

قلت: أنا أريد أن أكفنه و أصلي عليه بنفسي،و عندما أدفنه سأعود إلى المستشفى سريعًا أعدك بهذا . فهل تساعدني ؟ أرجوك !

***

سألوني من الشهيد ؟

قلت لهم هذا أخي ..

قالوا لا تحزن فهو إلى الجنة قد ذهب.. ثم أشاروا لي وقالوا تقدم فصلّ على أخيك .

ارتصف الناس صفوفًا كان عـــددهم كـــبيرًا لم أســـتطع أن أحـــصيه فتقدمت، و ترك لي الشيخ مكانه و ربت بيده علي و قال « لله ما أعطى ولله ما أخذ فاصبر و احتسب ».

الله أكبر .. التكبيرة الأولى، فقرأنا سورة الفاتحة.

الله أكبر .. التكبيرة الثانية، فصلينا على رسولنا محمد – صلى الله عليه و سلم –.

الله أكبر .. التكبيرة الثالثة، فدعونا له (اللهمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَعافِــهِ وَاعْفِ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نَزْلَهُ وَوَسِّعْ مَدْخَلَهُ وَاغْسِلْهُ بالماء والثلج وَالبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الخطايا كما نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دارًا خَيْرًا مــن دارِه وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ وَنَجِّهِ مِنَ النّارِ، وَقِهِ عَذابَ القَبْرِ) .

الله أكبر .. التكبيرة الرابعة، فدعونا لأنفسنا (اللَّهُمَّ لاَ تَحْرِمْنَا أَجْــرَهُ، وَلاَ تَفْتِنَّا بَعْدَهُ).

حملناه ووضعناه في الصندوق أمسكته بقوة أحمله على ذراعي فكـــان يسبقني و يجري فأجري معه لألحقه.. كان يجري و نجري معه حتى وصلنا به إلى القبر.

حملته بذراعي وحدي و ساعدني إياد الذي قرر هو الآخـــر أن يـــأتي ليودع فهد ، ووضعناه في القبر ودموعنا تتساقط عليه ضممته بقـــوة إلي وانتحبت و ارتفع شهيقي حتى أبكى من حولي فلم أكن أريد أن أتركه ، ولكن كان يجب علي أن أتركه فودعته ووضعت الطوبـــة تحـــت رأســـه وذهبت.

***

مر أسبوعان علي و أنا أنازع الموت فبين الحمى و الهـذيان قـضيت أيامي، و لكن لم يكن مقدرًا لي أن أموت.. فقد عشت، ووصف لي الجميع كيف كنت ؟ كيف كنت أهذي باسم عمر و فهد و أتحدث معهما ، حتى تملك الخوف من بعضهم و قالوا أنه يتحدث مع الموتى.و لكن قد احتلت الشفقة قلوب آخرين.

عندما استيقظت كانت يدي شهد مشبكة في يدي فلم تتركني و ظلت بجواري.. رغم كل شيء ظلت بجواري، ابتسمت لها.. و كانت هذه أول ابتسامة لي منذ وقت طويل مر عليه الدموع.

***

عدت إلى المترل و كلي حنين و شوق فتحت البـاب بـبطء شـديد لينتج عنه صرير عالٍ جدًّا، و كأنه قد مر عليه دهر منذ آخر مرة فـتح فيها .

وقف إياد ينظر و يتأمل كل شبر، و كل ركـن في بيتنـا . كانـت الذكريات تسبح إلينا مسرعة حيث جاءت برائحة مـن الأيـام الماضـية فملأت قلوبنا بحنين و اشتقنا إلى هذا العمر الذي قد مضى و لا سبيل لـه أن يعود .

دخلنا إلى المترل و كل منا يستند على الآخر .. لم نتحـدث و لكنـا جلسنا فقط .. أكنا نبكي.. لا ، لم نبكِ . فكنا ننكر ما حدث بل خيل إلينا أننا كنا هكذا منذ البداية . كنا نتخيل و لكن دائمًا يأتِي الواقع يحمل سيفًا طويلًا حاد الشفرة ليقطع هذا الحبل الواهم أو الذي يتوهمه الإنسان .

كانت بيضاء طويلة طويت بعناية و كتب عليها اسمي و يسبقه (إلى) وضعت بعناية على دفتر سميك الحجم.. أحمر الغلاف ، فالأحمر لونه و لكن خامته كانت قطيفة ناعمة بدا عليها القدم . فكانت حقًا قديمة لم أرَ مثيلها من قبل فيبدو أنها صنعت في الثلاثينات.

تركني إياد و كأنه يعلم ما بداخل هذه الورقات . فبقيت أنا و هي في الغرفة وحدنا. أكنت متلهفًا لأعرف ما فيها. نعم .. كنت ، و لكني بالقدر الذي أردت فيه أن أعرف ما بداخلها. كنت بمثل هـذا القـدر خائفًـا فأمسكت الورقة لم أفتحها و لكني قربتها من أنفي و عندما فعلت وجدته فيها.. وجدت فهد.

« أخي أقصى ،

لا أعلم لماذا ؟ و لكني وجدت نفسي ها هنا أجلس حيث تجلس الآن علي هذا الكرسي البني، و أستند باسترخاء بيدي علي الطاولة التي ذهبنا واشتريناها سويًا عندما كنا معًا.استندت عليها لأكتب لك هذا .

لا أعلم هل سيعني ذلك أني سأموت ؟ فلا أعلم لماذا أفكر بـالموت ؟ فصار يسيطر علي و صارت أشباح الماضي تلاحقني في كل مكان، و كلما حاولت أن أهرب منها تجري ورائي و تطاردني أكثر فتذكرني بما حاولـت أن أنساه.

لا أعلم من أنا ؟ من صرت ؟ فقد فقدت نفسي منـذ زمـن بعيـد حاولت.. أقسم لك أني حاولت، ولكن لم يكن يومًا لأجلي. بل كان مـن أجلهم هم من أجل روح و مصطفى.. من أجل من أحب .. قد حاولت أن أعود.

دائمًا ما تساءلت لماذا يقضي الناس سنوات من عمرهم يملأون تلـك الصفحات الفارغة بتاريخهم و ذكريات عمرهم ؟ لماذا يكتبون اللحظـات السعيدة و بجوارها لحظاتهم الحزينة في دفتر واحد؟ و في الأغلب دائمًا ما يقرأها غيرهم في النهاية.

تساءلت لماذا احتفظ أبي بتلك الدفاتر التي تشابهت من الخارج و لكن اختلفت صفحاتها من الداخل؟ ففي صفحة تجد الأمل يزحف إلى الأمام ، وصفحة أخرى يعيش اليأس .

لماذا لم يدفنها مع جدي ؟ و لماذا ترك لي هذا الدفتر الفارغ ؟ هل اعتقد أني أستحقه ؟ فهو رغمٍ كل شيء إرثي من جدي فقد ملأ جدي باقي الدفاتر و ترك هذا فارغا لأنه قد انقضى عمره و أنا واثق إن كان مازال حيًّا ربما كان سيستمر و يملؤه بذكرياته .

و لكني كنت مختلفًا، فعندما فكرت أن أكتب فيه و أن أملأ صفحاته لم أكتب غير اللحظات القاسية التي أردت أن أهرب منها و أمحوها من ذاكرتي.. أردت أن أدفنها بداخل هذا الدفتر لأتخلص منها للأبد، ولكنها كانت تذهب معي حيث ذهبت فلم أتخلص منها حقًّا.

أخي أقصى ..

كنت أخي و لكني لم أستطع يومًا أن أفتح لك صفحة ذكرياتي فهي مؤلمة للغاية.. حزينة لدرجة أنك قد تخاف حتى من الاقتراب منها. لا ألومك إذا غضبت مني، و لكن أنا أريد فقط أن تعذرني و ألا تحكم علي.. عِدني يا أقصى ألا تحكم علي ».

- أستاذ أقصى...! ابني أقصى...!

- آه .. نعم ،عفوًا أستاذ رامز .. شردت قليلاً .

نظرت إلى الرجل كان يتطلع إلي باستغراب و كنت أعلم أنه متعجب مني ففي وسط الحديث تركته و ذهبت عائدًا إلى ذكرياتي فلم أعد حتى أتذكر أين كنا ؟

- هل أنت بخير ؟ سألني.

- نعم بخير .

- يبدو أني قد أزعجتك بحديثي.

حاولت أن أظهر له عكس ما أشعر و قلت نافيًا: لا أبدًا و لكني فقط متعب بعض الشيء. فعاد يسألني مرة أخرى لماذا أنا ذاهب إلى إسطنبول ؟

- لأقابل صديقي . قلت له .
- هذه هي المرة الأولى لك بإسطنبول ؟
- لا ... جئت قبل ذلك إلى هنا .

وجدته يخرج من جيبه كارتًا ، و أعطاه لي و قال : هذا عنواني وأرقامي في إسطنبول إذا احتجت إلى شيء لا تتردد بالاتصال و أتمنى يا أقصى .. صمت لثوانٍ و هو ينظر إلي ثم سألني : أتسمح لي أن أناديك أقصى .

- طبعًا أكيد .
- أتمنى ألا أكون قد أزعجتك فيبدو أن لك ذكريات سيئة مع هتلر .
- لا .. أبدًا ، ليس هتلر المشكلة و إن كان جزءًا منها، و لكن ما خلفه هي المشكلة الحقيقة . فدائمًا ما تساءلت ماذا لو قبلهم هتلر بداخل المجتمع ؟ ماذا لو لم يعذبهم ؟ هل كان سيمنع هذا سعيهم وراء بلادنا ؟

قال لي: ربما كان هذا سيظهر حقيقتهم أمام المجتمع حقيقتهم الدموية التي تسعى لتدمير الغير من أجل بقائهم هم ، فهم يذرفون دموع التماسيح و يصفون للجميع أنهم حرقوا و عُذّبوا و يتحججون بما حدث ، و نسوا ما فعلوا بهذا الشعب المسكين و أشقائهم العرب . لقد بدأ مخططهم لصنع دولة لهم من قبل ظهور هتلر يا أقصى و ما كان ظهوره إلا سببًا و دافعًا أكبر لتحقيق حلمهم . لذلك أسألك أكان هتلر حقًا قاتلًا ؟ فإذا نظرت إلى الحال اليوم وإذا كان هتلر مازال على قيد الحياة ستجد نفسك حائرًا هل أنت معه أم ضده ؟ .. نعم قد تستنكر عليه طريقته في تعذيبهم و إحراق الأطفال و النساء و الرجال والشيوخ ، و لكن ألم يحرقوا هم أطفالنا ونساءنا و رجالنا و شيوخنا قد أحرقوهم بطلقات نيرانهم و صواريخهم التي هدمت و قتلت الآلاف . نعم ستكون حائرًا و لكن ليس لوقت طويل فستقول في النهاية لنفسك هذا قصاص عادل فالسن بالسن و العين بالعين و البادي أظلم.

أجبته باستسلام وأنا أتذكر ما شهدته من موت: معك حق ، ربما معك حق .

استعد الجميع للهبوط وعاود الكل ربط حزام الأمان ، و قد تشبثوا مرة أخرى ببعضهم ، و لكن هذه المرة بسعادة أكبر فقط ظهرت أضواء اسطنبول و نهر البوسفور صانعة صورة ساهرة .. فكان المنظر جميلًا رائعًا وكلل ذلك بهذا الهبوط الهادئ الذي توج بتصفيق الركاب لإظهار امتنانهم للطيار.

و صلت إلى اسطنبول حاملًا فهد معي ، فكنت أحمل دفتره الأحمر الذي عندما قرأت صفحاته أدركت من هو على الحقيقة أدركت أنه لم يمت فمازال موجودًا .. لذلك جئت إلى هنا لأجده.. لأجد فهد مرة أخرى.

***

الفصل العاشر
الفُسْتانُ الأَبْيَضُ

كان الجو باردًا فحبات الثلج كانت تتساقط بكثافة في كل مكان محولة معها لون كل شيء إلي الأبيض. كنت أسير في الطرقات واضعًا يـــدي في معطفي لأحصل على بعض الدفء، و لكن كانت نسمات الهواء البـــاردة المختلطة بالثلج تلامس وجهي فيشعرني هذا بالحياة فابتسم و أغمض عيني لأجلها تتسلل إلي أكثر فتنعشني أكثر فأكثر، و قد لفحت جسدي أيـــضًا من الخارج الذي أستعصم بهذا المعطف. جلست على مقعـــد أمـــام نهـــر البوسفور أتطلع إلي طيور النورس التي تسبح في أسراب هائمة بحرية حيث الأفق الواسع . فشعرت بالسعادة لها ، و تحسست وجهي الـــذي صـــار كقطعة من الثلج و أنفي التي أحمرت من البرد. و لكن كنت بـــرغم مـــن ذلك أشعر بداخلي بالدفء فهذا ما كنت أحتاجه .

كنت أفكر فيما قد مضى فأعلم أن قد مر عام علي موت فهد، و لكني لم أدرِ كيف مر ؟ و كيف جرت الأيام هكذا ؟ و كيف صارت الأشـــياء المستحيلة ممكنة و صار ما هو ممكن مستحيلًا ؟ فكانت اللحظات التي تلت استيقاظي مليئة بالغموض و علامات الاستفهام ، و كـــان أول اســـتفهام واجهني هو ماذا يجب أن أصنع مع شهد ؟ فقد كانت يدها تمسك يـــدي بقوة فلم تتركني، و لم تحاول أن تجعلني أفكر أن أتركها فضمدت جراحي بصمتها، و نظرتها المتفهمة لي. فكانت تبتسم لي بحب و عنـــدما كانـــت تأخذني أحزاني بعيدًا كانت تضغط علي يدي أكثر تذكرني أنها هنا بجواري و لن تذهب إلى أي مكان.

لذلك كان يجب علي أن أذهب فقد قررت أن أخلف كل شيء ورائي و أبدأ من جديد. ذهبت دون أن أقول وداعًا، ولملمت ذكرياتي و دفنتها

حيث دفنت فهد و عمر، فعدت إلى بلادي أطلب النسيان، وعندما وصلنا أنا و شهد إلى مصر كانت عائلتي هناك تنتظرنا بلهفة المشتاق. فحبهما الذي غمراني به ساعدني علي أن أرى طريقي الذي أظلمه الموت.

أما شهد فكانت فرحتها لا توصف فلأول مرة ألمس تلك الابتسامة الصافية على وجهها، فكانت تتحرك بسعادة دون خوف ، و عندما زفت إلى عائلتها أخبارنا كانوا سعداء فأرواحهم التي كانت ترتجف قد وجدت أخيرًا الراحة ، فقد رحل هاجس الموت ، وانتهى القلق من عقولهم وقلوبهم ، و تبقى الحب .. الحب فقط الذي سعدوا أنه دق قلب بنتهم.

سافرنا جميعًا إلى دبي و كلنا لهفة لعيش تلك الأيام المقبلة لأننا كنا نؤمن أنها ستكون سعيدة فرحة ، خالية من الألم . وقف خالي و زوجة خالي بجواري، و تشابكت يدي و يد شهد معًا .. يدها التي كانت تحمل خاتم أمي، و فتح لنا الباب .. قد فتح لي بابًا أخرى للأمان، و أخيرًا بعد هذا المشوار الطويل وجدته.. وجدته حين وجدت شهد .

كان أفراد عائلتها سعداء بنا استقبلونا بحفاوة كبيرة و كانت دموع الفرح تملأ عيونهم ، لم نتحدث كثيرًا فقد كانت النظرات تكفي فكانت أرواحنا تتحدث تتعانق فتسد هذا الشوق الذي خلّفه البعد . و رسمت الضحكات و البسمات طريقًا جديدًا لنا ووضعت ألوان الأمل على حياتنا، و كان أول شيء رسمته هو يدي و يد والد شهد التي امتدت لتوثق هذا الحب بكلمات أنزلت علي خير البرية..

تحدثنا أنا و شهد كثيرًا عن منزلنا و كيف سيكون ؟ فكنا نتناقش في أدق.. أدق التفصيل، حتى لو ظهرت مملة و لكننا كنا لا نهتم فهذا كان يسعدنا أكثر فمجرد التحدث عما هو قادم يجعلنا نتأكد أننا هنا حيث نقف علي الأرض، فنحن نلمسها و نحلم.. فهو لم يعد مجرد حلم بعيد، و لكنه أصبح حلمًا ، حلمًا يتحقق مع كل دقيقة تمر .

جرت الأيام و اقترب موعد العرس و قد قررنا الاستقرار في دبي ، واستطعت أن أدبر لنفسي عملًا في إحدى المستشفيات الكبرى مما جعل شهد تفرح أكثر ، و قالت و هي تتابط يدي براحة و تستند رأسها على كتفي « شكرًا لك يا أقصى قد حققت لي كل أحلامي » .

خرجت و هي ترتدي الفستان الأبيض .. عيونها كانت تلمع، و خداها قد اكتسبا حمرة التفاح.. كانت تلتفت و تدور في خفه وكأنها أصبحت طيرًا يطير. جريت إليها و أمسكت يدها في شوق فأخفت رأسها و نظرت إلي الأرض تهرب بعيونها مني و ساعدها هذا الوشاح الأبيض الذي لفح وجهها فأخفى نظراتها عني، و لكني كنت أعلم أنها سعيدة و ترقص فرحًا بداخلها فما حلمنا به قد صار واقعًا.. قد صار حقيقة .

وقفت بجوارها ولويت ذراعي الذي سمح لذراعها أن يتشابكا معًا . كنا نمشي ببطء و الجميع ينظر إلينا يتطلعون و يتهامسون لا أعلم ماذا كانوا يقولون ؟ و لكن من المؤكد أنهم كانوا يتحدثون عنا، وعن شهد و جمالها، و فستانها الأبيض الذي أسر العقول فكانت تبدو فيه و كأنها ملاك قادم من الجنة.. و كان يحفنا صوت الزغاريد الذي أطلقته النساء بقوة و فرحة كبيرتين فكان يحيطنا من كل مكان. فقد وجد الجميع أخيرًا السعادة .. وجدوها رغم كل شيء .

مضت الأيام و كانت كلها مليئة بالهناء و الأمل و شعرت و كأني لم أعش تلك الأيام المؤلمة ، وكأن ما حدث كان مجرد كابوس مزعج و لم يكن أبدًا واقعًا ، و لكن ملمس هذا الدفتر كان دائمًا ما يجعلني أفيق من هذه الخواطر الكاذبة، ويجعلني أتأكد أن ما مر كان مع الأسف واقعًا لذلك كنت ألوم نفسي فأنا من قرر الاحتفاظ بهذا الدفتر فأنبت حالي كثيرًا ، و تساءلت بصمت لماذا لم أتركه هناك ؟ .. لماذا لم أدفنه مع فهد ؟.. لماذا لم أغلق هذا الباب الذي يطلع علي كل هذا الألم ؟.. و ما أدركت الإجابة إلا بعد أن فهمت ما حل بي .. بعد ما فهمت ما صنعت

بنفسي فقد حفرت حفرة بداخلي و أدخلت فيها كل من فهـــد و عمـــر وأدخلت معهما حلمي بالأقصى الذي تخليت عنه معهما فدفنتـــهم جميعًـــا بداخل الحفرة و واريت عليها التراب لأني قد قررت أن أعيش.. قـــررت الحياة و ذهبت أبحث عن السعادة بعيدًا عنهم. فإذا لم أفعل ذلـــك كـــان سيعني هذا فنائي و سأكون بذلك قد اخترت الموت معهما، و لكن كـــان يجب علي أن أعيش.. كان يجب علي أن أستمر، كان يجب علي أن أتنفس من أجلها.. من أجل شهد، و لكن الشيء الذي لم أفكر به أني صـــحيح دفنتهم بداخلي و لكني أيضًا كنت أحملهم معي حيث أذهب. أحملهم معي طوال الوقت فما كان يأتي ذكرهما أمامي إلا وأجد عيوني تغرغر بالدموع و يمر أمامي شريط الذكريات فأغلق علي نفسي و أستسلم للألم.

حاولت كثيرًا أن أسيطر علي عقلي و أن أجمح خياله الذي كان طالما يعود إليهما.. قد حاولت أن أنظر إلي شهد و أغوص معهـــا و أذوب في حبها و أنسى معها كل شيء فكان منظرها و هي تجلس تأكل و قد انتفخ بطنها و أوردت خدودها و كأنها كالطفل الصغير يجعلني أحبها و أتمـــسك بها أكثر و أنسى معها الماضي و أحلم بالمستقبل فهي تحمل ابني.. ابني الذي بحثت عنه في حطام غزة فهو الآن ينمو في أحشاء من ســـلبت لي روحـــي وأسرت لي عَقلي بحبها .

ذهبت و أمسكت الدفتر و أمام الشعلة وقفت فقد أيقنـــت أني إذا أردت أن أستريح يجب أن أتخلص منه للأبد فلا مفر من ذلك.. فيجب أن يحترق و تذهب معه الكلمات و تختفي الأسرار و ترحل إلى الماضي كمـــا ذهب فهد.. فأمسكته بقوة مُجبِرًا يدي و قدمي على التحرك إلي الأمـــام نحو لهيب النار حتى داست قدمي على آخر موضع قدم موجود ، و صرت أنا و النار في مكان واحد لا تفصلنا سوى خطوة واحدة ، و لكن تلـــك الخطوة منعتني و فجرت بداخلي هذه الأبواب المغلقة التي أحكمت غلقها بداخلي ففتحت علي مصاريعها مدمرة كل ما صنعت .

تراجعت باستسلام و جلست علي الكرسي المواجه للمدفأة و فتحت الدفتر و قد خلت الصفحات من أي تواريخ تذكر و قد ملئت بكلمات صنعت منها سطورًا تلت بعضها البعض . شعرت وكأنها تمتد إلي لا نهاية ، وقد اختلطت بصور رائعة رسمت بمهارة عن طريق (قلم فحم) و قد كانت تعكس صورًا أوشكت أن ألمس الحياة فيها فهناك صورة لمنزل ذى أحجار عتيقة و حوله أشجار و طيور تحلق ، و كان هناك أيضًا صورة لفتاة اختفى نصف وجهها المستدير وراء شعرها المنسدل المتعرج ، و ظهر في النصف الآخر عيونها السوداء الكحيلة التي برزت مع حاجبها الثقيل ، وثغرها الذي أظهر عن نغزة في خُدُودِها النديةْ.

أغراني كل هذه لمطالعة الكلمات و كشف الحجاب عن تلك الأسرار التي دفنها فهد في ذاك الدفتر فرجعت إلي البداية ألتمس وجه الحقيقة فبدأت أقرأ، وسمحت ليد الماضي أن تتحرك، و هكذا بدأت الحكاية.

لم يتسن لي أن أقول لأبي ليلة سعيدة فقد دخل إلى غرفته حين عاد وكان في حالة عصبية حرجة ، و عندما رأته أمي هكذا تركتنا و ذهبت وراءه لتعرف ماذا أصابه ؟

.. لم نسمع سوي صوت صراخ أعقبه صمت طويل.. حاولنا أنا وأخي مصطفى أن نعرف أي شيء، و لكن باءت محاولاتنا كلها بالفشل. فقد خرجت أمي فقط لكي تأمرنا بالذهاب إلي غرفتنا و النوم في الحال .

تذمرنا أنا و مصطفى، و قبل أن نقول أي كلمة أخرى نظرت أمي إلينا بنظرتها التي إذا نظرت إلينا بها نعلم جيدًا أنه لا مجال للنقاش و أننا يجب أن ننفذ ما أمرتنا به بدون أن ننبس بكلمة. لذلك باستسلام ذهبنا إلى غرفتنا واندس مصطفى في سريره سريعًا فقد خاف أن تلحق بنا أمي و تراه خارج سريره فيصيبه منها موجة غضب جارفة ، أما أنا فبعد دقائق مرت حاولت فيها أن أستشف ما يحدث يئست و اندسست أنا الآخر في فراشي .

وضعت رأسي علي وسادتي و كنت أتابع تحرك أجنحة المروحة، فكانت تلف في دائرة بسرعة هائلة. ففكرت هل لهذه السرعة القدرة أن تقضي علي هذه الحرارة التي أشعر بها الآن ؟.. بقيت أتابعها حتى وجدت نفسي أغوص في النوم الذي استسلمت له في النهاية.

فهد ...فهد ...

كانت هزات عنيفة وكأنها زلازل، و صاحبها صوت بعيد لم أرَ ملامح صاحبه بوضوح. استيقظت في فزع و قفزت من السرير أتلفت يميني وشمالي أبحث عن الشخص الذي صنع بي هذا، و صرت أقول كلمات غير مفهومة:« من هناك...؟ ماذا حدث ؟ »

عرفت أن الشخص الذي صنع به هذا هو أبي ، فكان يقف بجواري ينظر إلي وعيونه قد امتلأت بالحزن.. نظرت إليه باستغراب و تساءلت في صمت لماذا يوقظني بتلك الطريقة؟ مرت ثوانٍ علي وقد بدأت أستوعب ما يدور حولي فوضعت يدي على قلبي لأهدئ نفسي ، وقد بدأ يدب في بعض الراحة ، حاولت أن أفهم منه ما يحدث فسألته : أبي ...! ماذا حدث؟

هزني مرة أخرى وكأنه يريد أن يتأكد أني قد أفقت تمامًا ثم قال: استيقظ يا فهد يجب أن نذهب.

أعدت عليه السؤال: ماذا حدث يا أبي ؟ و نذهب إلي أين ؟

قال : يجب أن تنهض و ترتدي ملابسك سريعًا... ثم صمت برهة من الزمن و بعدها أكمل بنبرة متقطعة: سنغادر المترل.

سألته : إلى أين سنذهب ؟ هل سنذهب لعمي بالضيعة ؟

قال : لا لن نذهب إلى عمك ، و لكن سنغادر المترل إلى أين لا أعلم بعد .

كانت الصدمة علي كبيرة فتوجهت إليه بالحديث، و سألته محاولًا أن أعرف السبب.. لماذا ؟

قال لي بغضب: لا تسأل فليس معنا وقت فقط انهض و استعد للرحيل.

قاطعته: ولكن يا أبي هذا منزلنا فإلى أين تريدنا أن نذهب و نترك منزلنا؟

صمت .. ظل صامتًا يتطلع إلي وعيونه دامعة، ثم نظر إلى مصطفي الذي كان مازال نائمًا و قد بدت على وجهه عاطفة حزينة فأمسكت يده و قبضت عليها بحب و قلت له: ماذا حدث يا أبي ؟ ما بك ؟

جلس بجواري بانكسار، و لأول مرة أرى أبي منهارًا هكذا فأخذني بقوة و ضمني إليه وأجهش بالبكاء... ظل يبكي حتى وجدت نفسي أنا الآخر أبكي فأبي رمز القوة لدي منهار أمامي.

.. أبي الذي يمثل لي المثل الأعلى الذي طالما أردت أن أكون مثله يبكي أمامي بدون حجاب.

لم تهتز صورته أمامي بالقدر الذي اهتزت به نفسي، فقد أدركت أن شيئًا كبيرًا و عظيمًا قد وقع أو سيقع، و أدركت أن أبي أضعف من أن يواجهه وحده .

صرخ في فجع و كأنه يستغيث بي و قال: ابني ... ابني ... سيأخذون منزلنا ... سيقتلعون جذورنا و جذور آبائنا ... قد ضاع كل شيء ... كل شيء ... ضاع تعب السنين .

صعقتني تلك الأخبار فمن لديه الحق أن يأخذ منزلنا و منزل أجدادنا منا ... هذه أرضنا ورثناها جيلًا بعد جيل فنحن هنا من قبل أن يكونوا هنا. تحركت في دمي نخوة الأرض ... و صرت أصرخ بأبي و أقول: لن نتركها يا أبي... لن نتخلى عن أرضنا و منزلنا... سنحارب من أجلهما حتى لو كان ثمن هذا هو الموت...

رد علي أبي بخوف و قال: لا يا ابني قد أتحمل أن أفقد منزلي، ولكن لن أتحمل أن أفقد أحدًا منكم.

– ولكن يا أبي هذا منزلنا ... فإذا تركناه أين سنذهب ؟ أين نعيش؟ ... سنكون لاجئين لا مكان لنا... سيعاملنا الناس هكذا، و سيسألوننا لماذا ذهبنا و تركنا منزلنا و تخلينا عن أرضنا ؟

– دعهم يتحدثون فإنهم دائمًا يتحدثون، ولكن الأهم عندي هو أنتم.

كان يجب علي أن أرفض... كان يجب أن أمتنع و أقول لا... لن أذهب ... وقف أبي يجذبني جذبًا ... يشدني لكي أسير للخلف ... لكي أتحرك و أتراجع ، ولكني امتنعت عن التحرك ... وصرخت بقوة في وجوهم لأؤيد هذا الرفض ، و أبي المسكين كان يقف بشجاعة أمام الجنود الإسرائيليين لم يفكر في نفسه ، و لكن كان كل تفكيره منصبًّا في كيف يمنع أيديهم الظالمة من أن تطولني ؟ ... و قال يسكتهم :

- هذا ولد لم يبلغ غير ثماني سنوات ، لا تأخذوا على كلامه فهو لا يعرف ماذا يفعل ، سنذهب و سنترك المنزل أمهلوني فقط بضع دقائق ... إذا سمحتوا.

صرخت بصوت عال بعدما ضاقت نفسي من توسلات أبي لهم، و قلت لهم بشجاعة لم أكن أعلم أني أملكها:

– لن أترك بيتي ! لن اذهب إلى أي مكان !

قال الجنود لأبي يحذرونه لآخر مرة : أذا أردت أن تحافظ علي حياة ابنك خذه من هنا و اترك المنزل في الحال فهو لم يعد ملكًا لكم بعد الآن.

تحركت باندفاع إلى هذا الجندي الفاجر فكيف له أن يقول هذا ؟ ... و من أعطى له الحق أن يسلب منزلنا منا ؟ ... و كيف يقول أنه لم يعد ملكنا ؟

... فقلت له بغضب : من أنت ؟

ضحك ضحكة باردة و تحرك فمه الذي كان يمضغ علكه مما جعل منظره أشبه بالنساء، و قد اختفت عيونه وراء نظارة شمس سوداء.

استفزتني ضحكته و صرخت فيه و قلت أهاجمه: لماذا تضحك ؟ ... هل ترى شيئا ظريفًا هنا ؟ ... فتوقف عن الضحك، و قال لي كلمه عبرية تعني تحرك، ثم انتقل بالحديث إلى العربية و قال: اذهب من هنا أذا أردت أن تعيش.

قلت بتحدٍّ : و إذا لم أفعل !

فوجه بندقيته أمامي و قال: إذن سيعني هذا أنك اخترت الموت.

التقطت صخرة سريعاً من الأرض و حملتها بيدي بقوة ثم رفعتها عاليًا لكي يراها ثم نظرت في عينه و قلت له بتحدٍّ أكبر: إذن سيكون هذا مصيرك أيضًا.

دارت بيننا نظرات مليئة بالتحدي فعلى الرغم أن فارق الطول بيني وبينه كان كبيرًا إلا أنني كنت ندًّا له فشعر هو بذلك و يبدو أنه قد تملكه الخوف فقرب بندقيته نحوي ووضعها بتهديد في صدري وكأنه أراد أن يقول ستموت قبل أن تفكر أن تقذفها .

تدخل أبي في هذه اللحظة و حاول أن يبعد الجندي عني ، وكانت أمي و أخي مصطفي في ذلك الوقت خارج الدار كان يبدو عليهما الأسى والحزن فأصواهم المنبعثة من الخارج التي نادت علي و علي أبي أكدت ذلك ، و كلما حاولوا الاقتراب كان الجنود يمنعوهم و يهددوهم بالسلاح فتخاف أمي و تبتعد و هي تحتضن مصطفي بين يديها ثم تقف تنتظر في رجاء.

أمسكني أبي ... حملني بالقوة ... كنت أصرخ و أقول له: لا... لا تفعل هذا يا أبي ... لا تتخلَّ عن مترلنا ... هذا عار عار عليك يا أبي .

ألقيت علي أبي كلام ندمت عليه بعد ذلك كثيرًا، و لكني كنت في حالة جعلتني أري الموت أهون بكثير من تلك المذلة. تمكن أبي أخيرًا أن يخرجني من المنزل، و خرج ورائي الجنود و ابتسامة النصر تلوح على وجوههم. استفزني هذا فقررت العودة و قررت معها الموت.فجريت عائدًا إلى المنزل فتحرك الجنود ورائي، ولكنهم كانوا أسرع مني فانطلقت من بندقيتهم رصاصة استقرت في النهاية بداخل صدر أبي الذي فداني و هو ينادي علي فهد انتبه.

ف...ف...ف....فهد ...

جريت عليه ولكنه انهار و سقط على الأرض و نزلت رأسه على يدي فارتطمت بها بقوة. كانت أنفاسه لاهثة و نزلت دموعي التي كانت سيلًا ينزف على وجهه ، كان ينظر إلي و أنا أضع يدي الصغيرة على جرحه الذي نزف بغزارة .

ناديته برجاء :

- أبي .. أبي ما بك ؟
- أنا آسف لم أقصد ..
- لم أعنِ ...
- لم أكن أريد أن يحدث هذا ...
- أبي أجبني ... ماذا تشعر ؟
- أبي أرجوك لا تمت .

لم يجبني فكان فقط ينظر إلي بعين الرضا، و أنفاسه تتسابق صعودًا ونزولًا فقد بدأت لحظات الموت، وبحركة بسيطة رفع سبابته و ابتسم نحو السماء ثم فارقت روحه الحياة .

استطاعت أمي و أخي أن يتملصا من أيدي الجنود... و بسرعة جريا نحو أبي و لكنه كان قد مات... قد فارقت روحه الحياة فلم يعد موجودًا بيننا، صرخت أمي صرخة مدوية أفزعت الجنود و ظهرت على ملامح وجوهم الخوف مما جعلهم أن يرفعوا أسلحتهم أمامنا ، واتخذوا موضع الاستعداد للقتال، التفتت أمي بشجاعة إليهم و وقفت في مواجهتهم ، وقبل أن تنطق بكلمة قذفوها هي الأخرى برصاصة اخترقت جمجمتها فصنعت بها حفرة فسقطت وسال مخها على الأرض .

تسمر مصطفي من المفاجأة و ظل يصرخ و ينادي على أمي و هو يمسك جثمان أبي و بعدها جرى نحوها ثم أخذها بين أحضانه و دفن رأسه في صدرها و بكى... كان يجرى عليها بينما أنا في ذهول... كنت لا أصدق ما قد حدث.. اعتقدت أني مازلت نائمًا كما كنت البارحة... اعتقدت أن كل هذا مجرد كابوس مزعج سينتهي بعد دقائق قليلة، و لكن صرخات مصطفى و صراخ الجنود جعلني أفيق... جعلني أتأكد أن كل هذا واقع... جعلني أتحرك لكي أنقذ أخي الصغير من أيديهم فذهبت أجري عليه و أناديه:

– مصطفى... لا تفعل شيئًا ... اصمت ... تعال إلي ..

وعندما وصلت إليه أشاح بوجهه بعيدًا عني ، و أبعد يدي عنه بغضب ، و تطلع إلى وجهي و عيونه تملؤها تلك النظرة وكأنه أراد بها أن يتهمني، أراد بها أن يلومني، وكأنه أراد أن يقول أنك السبب... أنك من قتلتهم فابتعد عني، و لكني لم أكن السبب.. لم أكن أنا من أراد تدمرينا، لم أكن أنا من أراد تشتيت عائلتنا وفنائها، لم أكن أنا من قضى على آخر ذكرياتنا.

نظرته حطمتني أكثر مما أراد هو، ففطرت قلبي و شقته إلي حبات صغيرة متناثرة ، و ملأت نفسي بشعور الذنب ، الذنب الذي لا يوجد منه مفر ، و تملك روحي إحساس الإجرام فأنا صرت قاتلًا .. مجرمًا ، و من قتلت يا ترى ؟ قتلت عائلتي .. قد صرت قاتل عائلتي. حاولت أن أتمالك

نفسي و أغلق أذني و لو دقائق عن هذا الصراخ الذي يحيطني و ذهبت إلى أخي و أمسكته بقوة و حملته علي ظهري متغاضيًا عن الـضربات الـتي أصبت بها منه ... متغاضيًا عن نظرات الانتصار التي ملأت عيون الجنـود ... متغاضيًا عن جثة أبي الملقاة على الأرض و التي تقع بجوارها جثة أمـي ... متغاضيًا عن منزلنا الذي لم أملك الوقت لكي أودعه ... متغاضيًا عن نفسي التي فارقتني منذ لحظات فقد ضاع فهد معها و لم يعد موجودًا ...قد ضاعت نفسي و صرت الآن إنسانًا غريبًا ... ذهبت و أنا متغاض عن كل هذا فلم أفكر في شيء سوى أخي ... لم أفكر في شيء سوى مصطفى .

عندما وصلنا إلى بيت عمي أفلت مصطفي نفسه مـني و جـرى إلى حضن زوجة عمي التي ضمته بجذع و هي تجهل ما حدث، فلم تكن ترى سوي دماء... دماء حمراء قاتمة لوثت معها وجوهنا و أيدينا و ملابـسنا. كان مصطفى يبكي ، ينتحب ، يصرخ . أما أنا فسقطت على الأرض من التعب فقد بدأت أشعر به أخيرًا فقد فارقني طوال هذا الطريـق الطويـل الذي حملت فيه مصطفى ، و لكن الآن بعد أن وصلنا إلى الدار الذي وجد فيها أخي حضن الأمان بدأت أشعر بهذا التعب ، و بـدأت اللحظـات الماضية المؤلمة تعود إلى حاملة معها كل مشاعر الحزن و الانكسار .

دوى صدى صرخاتي التي أطلقتها الأرجاء ، و تجمع حـولي الجـيران والناس فكانوا ينظرون و يتطلعون إلى بشفقة فشق علـيهم حـالي فقـد أمسكت التراب و حملته بين بيدي و أنزلته علي رأسي أندب كما تنـدب النساء، جاء عمي مهرولًا بعد ما سمع ما حدث ... جاء يجرى إلينا و هو يحمل معه أمل أن يكون ما سمعه كذبًا. و بعد أن تطلع إلى وجوهنا، ورآنا أنا و مصطفى هكذا تأكد من صدق الخبر.

لا أعلم أكان يريد أن يضربني... أن يقتلني فقد كنت أنا السبب وراء موت عائلتي ، السبب وراء موت أخيه موت أبي، أم كان يريد أن يأخذني في حضنه و يعتصرني بداخله و يقول لي :

« ابني لا تخف صرت بأمان معنا » ، و لكن لم يفعل عمي شيئًا من هذا فظل فقط ينظر إلي في فجع فكانت صدمته كبيرة فلم أرَ عيونه تتحرك مثلما رأيتهما تتحركان ذلك اليوم ، لم أرَ وجهه حزينًا مثلما كان ذلك اليوم . سقط بجواري و ألصق رأسه برأسي و اختلطت دموعه بدموعي، فبكينا معًا و صرخنا معًا، ونحن هكذا نجلس تقدمت إلينا روح... تقدمت تلك الفتاه الصغيرة بنت الأربع أعوام نحونا... تقدمت و هي حاملة بلسم جروحنا معها فمنديلها الأبيض الذي كان يتدلى من يدها و الذي صنعته لها زوجة عمي و طرزت عليه اسمها أعادنا إلى الحياة... فتقدمت روح و هي تحمله و جلست بجوارنا و بدأت تمسح دموعي و دموع أبيها المتساقطة ثم مدت يديها الصغيرتين واحتضنتنا معًا. فحملتني معها و طارت بي بعيدًا كما كنت دائمًا ما أحملها على يدي و أقدم لها الحلوى... فحملتني بيدها وأبعدتني عن الألم و مسحت يدها الصغيرة همومي التي غمرتني فأدخلت البسمة على حياتي مرة أخرى.

***

سألت نفسي كيف لفهد أن يبتسم بعد كل ما حدث له ؟... كيف له أن يتنفس و أرواح الماضي تطارده و الذكريات القاتمة تلاحقه ؟ ... كيف له أن يعيش بعد ذلك اليوم وهو يحمل بداخله كل هذا الذنب ؟ ...

و ما قرأته بعد ذلك ساعدني كثيرًا أن أفهم سر تلك الابتسامة التي طالما صاحبته دائمًا و لم تفارقه. فعرفت كيف كان له أن يبتسم رغم كل شيء؟ ... ربما ستتفكرون في روح، أكانت هي السبب ! سأقول لكم لا ... إذن ستعتقدون أن وجود مصطفى بجواره هو السبب الحقيقي ! ربما... ربما أنتم على حق... أو سيسبح خيالكم إلى مكان آخر و تسألوا أم كان هناك سبب آخر وراء ذلك ! في الحقيقة نعم هو ذاك ، فما قرأته أجاب على هذا .

وقفت روح أمام نهر البوسفور و شعرها يتطاير مع نسمات الهواء العليل فكان الجو ربيعًا و الشمس مشرقة و النهر يضحك و يتحرك بمرح . كانت سعيدة و سعدت أنا لسعادتها فعلي مدار العشرين عامًا الماضية كنا أنا و روح و مصطفى معًا فلم نفترق أبدًا فبعد أن تركنا بلادنا و ذهبنا إلي تركيا تغير كل شيء و أصبح للحياة لون مختلف مبهج لولا تلك الغصة التي لازمتنا دائمًا و أشعرتنا بمرارة الماضي فالاشتياق إلى تراب الأرض ورائحة الزرع و الخبز دائمًا ما طاردتنا . حاولنا جميعًا ألا نتحدث عن الماضي فعندما كنا نجتمع على طاولة الطعام كان عمي يجلس علي رأس الطاولة و عن يمينه زوجة عمي و عن شماله أنا و كان مصطفى يجلس بجواري و روح تجلس بجوار أمها كنا ننسى كل شيء ولا نتذكر إلا شيئاواحدًا هو عائلتنا الصغيرة و كيف نحافظ عليها ؟ فنترك الأبواب للضحكات و المزاح المفتوح بدون أي قيد يذكر.

لم يكن لعمي غير ابنته روح و لكنه بنا صار لديه ثلاثة أبناء. أحبنا عمي كثيرًا و عوضنا عن حنان الأب الذي فقدناه و استطاع هو بكلماته العاقلة المتفهمة أن يداوى الآلام التي أصابت مصطفي فساعده أن ينظر إلي بحب مرة أخرى و أن يتخلي عن نبرة اتهامه لي بتدمير عائلتنا و قتل أبائنا ، و لم يتركني عمي أيضًا و حاول جاهدًا أن يخلصني من ذلك الذنب الذي تغلغل بداخلي، و ذلك السؤال الذي سألته لنفسي آلاف المرات هو « ماذا لو ؟!... ماذا لو لم أفعل هذا ووافقت على الذهاب ؟ ... ماذا لو لم أتحداهم وتركت المترل بهدوء ؟ » نعم قد ساعدتني كلمات عمي كثيرًا أن أحيا بعض الأيام بسعادة و أن أتخلى عن ذلك الذنب ، و لكن بطريقة ما كان يعود إلي فيعصف بي و يدمرني فكنت أخبئ هذا الألم وراء ابتسامة يخيل إلى الناظر إنها حقيقية ولكنها لم تكن ، و مع مرور الوقت اعتدت عليها ووجدت الحل معها ... الابتسامة، فالابتسامة كانت الحل ففي أصعب اللحظات كنت أبتسم هذا ليس لأني تخطيت تلك اللحظات و لكن لأخدع نفسي و أوهمها بأني تخطيتها فأبتسم هاربًا منها لأن مجرد العبوس..

مجرد أن أقطب حاجبي و أغير صفحة وجهي كان هذا يدمرني، يحرقني لآن كان ذلك يذكرني بذنبي.. يذكرني كم أنا كنت مخطئًا.. يـــذكرني كيــف صرت قاتلًا ؛ لذلك اعتدت على الابتسامة حاملاً كل همومي و أحـــزاني وراءها مؤكدًا لنفسي و لغيري أني بخير .. أني سعيد فرح .. إني لا أتـــألم، فطوال العشرين عامًا الماضية كنت أبتسم محتملًا كـــل هـــذه الآلام إلا في ذلك اليوم.. إلا في تلك اللحظة التي كانت فيها روح في قمـــة الـــسعادة حيث الطبيعة الساحرة تحيطها و تنعم عليها بالهناء لم أستطع أن أخـــدعها وأخدع نفسي أكثر من ذلك.

قلت لها: سأذهب يا روحي.. !

التفتت إلي والخوف علي وجهها ظاهر فسألتني بحذر: إلى أين ؟

قلت : إلى غزة .

شهقت شقة الموت ووضعت يدها الاثنتين علي فمها تكتم صوت نحيبها و جلست بانهيار على المقعد تبكي كما يبكى على الميت ثم التفتت إلي وقد التصقت خصلات شعرها مع دموعها المسالة على وجها و قالت و هـــي تحاول أن تكون قوية: أنت تمزح... ! أليس كذلك، قل لي يا فهد إنـــك تمزح.

اختفت ابتسامتي و ظهر الحزن على صفحة وجهي و قلـــت بجديـــة: لا...لست أمزح.

وقفت من جلستها بسرعة ثم صفعتني على وجهي و أخذت تـــضربني بغضب على صدري و هي تبكي و تكرر سؤالها علي: لماذا ؟ لماذا ؟

ضممتها بين ذراعي محاولًا تهدئتها فاستسلمت لي و هي تبكي، قربتـــها إلي وعصرتها بين أحضاني محاولًا أن أحتفظ برائحتها بين أنفاسي لآخر مرة.

كانت تبكي بحرقة مما أهاج ذلك دموعي فبكيت أنا الآخـــر فكنـــت مضطربًا لا أعلم ماذا يجب علي أن أفعل، فلم أكن أملك أي إجابة لسؤالها

فكنت مشوشًا.. تائهًا، و أيضًا خائفًا فرأسي كانت مليئة بالأفكار الكثيرة و العجيبة (العائلة.. بلدي فلسطين .. الأرض المسلوبة.. القدس.. الأقصى.. غزة وحصارها الباغي.. حبيبتي روح .. أخي مصطفى .. عمي و زوجته، وغيرهم من الأشياء التي صنعت حاضري و التي كانت جزءًا من ماضي)، و لكن كان أكثر شيء أفكر فيه.. أكثر شيء اشتقت إليه هو منزلنا و تلك الذكريات التي ترفرف منه عائدة إلى. ففي الحقيقة سألت نفسي مرات عديدة هل يستحق أن أخاطر و أتخلى عن هذا الواقع الذي صرت أعيشه الآن و صار جزءًا مني حيث جلب لي السعادة و الراحة والاستقرار وجلبها أيضًا لمن حولي من أجل واقع قد انتهى ؟ .. نعم هو كان واقعًا ، و لكنه مضى و انتهى و رجوعه الآن شبه مستحيل بل هو المستحيل بعينه.

قالت لي روح بهدوء متعجبة تنظر إلي في حيرة:لماذا عليك أن تأخذ تلك الخطوة التي تعلم جيدًا إنها قد تعصف بك إذا دست أقدامها ؟ ألست سعيدًا معنا، ألم تعد تحبني يا فهد... !

وضعت يدي على فمها أمنعها من الحديث و قلت لها و أنا أستنكر عليها كلامها هذا: كيف تشكين بحبي للكِ يا روحي ألا تعلمين مكانتك عندي.

قالت : أعلم و لكن أحتاج منك لإثبات فما معني أن تقرر أن تتركني و تذهب و لم يتبقَّ على العرس سوى أيام ... أنا أتحدث عن عرسنا نحن يا فهد.. عرسنا الذي مضت علينا سنوات و نحن نحلم به و نخطط له و كيف سيكون ؟ و من سندعو ؟ و كيف سنقضي شهر العسل ؟ أنسيت أم تناسيت يا فهد ؟ أنسيت أن البارحة فقط كان يوم كتب كتابنا ، لقد صرت زوجتك أمام الله و الناس جميعًا يا فهد ، و الآن تقول لي إنك ذاهب فماذا تراني فاعلة ؟

- أعلم أني مهما حاولت أن أشرح لكِ و مهما أعطيت لـــكِ مـــن كلمات لن يكون ذلك كافيًا.. أعلم ذلك جيدًا يا روح، و لكني مـــا لا تعرفينه أني أذهب لأجلك.

صرخت في .... و قالت متعجبة: من أجلي أنا.. أمن أجلي أنا تذهب ألا تعلم أنك بذهابك هذا تعني تدميري، و القضاء علي ، أنـــا بـــدونك وحيدة لا أستطيع أن أتنفس لا أستطيع أن أحيا فكيف لك أن تتـــركني ثم تقول في النهاية إنك تفعل هذا من أجلي ، هذا لا يعقل !

أمسكت يدها و ضممتهما بين يدي ثم نظرت إلى عينيهـــا الحـــزينتين وقلت لها و أنا أحاول أن أتحدث إليها بصدق : روح أنا أفعل كل هذا من أجلك أنتِ، و من أجل عائلتنا الصغيرة ، من أجلنا نحن ، فأنا لا أريد أن أرى دموعك التي تنهمر اشتياقًا للأرض تنزل هكذا ، هل تعتقـــدين أني لا أشعر بك ؟ ، هل تعتقدين أني لا أرى ألمك ؟ .. أعلم جيدًا أنكِ تتألمين يا حبيبتي... و هذا طبيعي ففلسطين بلدي كما هي بلدك و أعلـــم أنـــكِ لمْ تستمتعي بها و لم تشبعي من رائحتها فقد رحلتي عنها و أنـــتِ صـــغيرة، ولكني حاولت أحلف لكِ أني حاولت.. حاولت أن أنسى و أبدأ معكِ من جديد حيث الأمان و الحياة السعيدة الهانئة الهادئة ، و لكني اكتشفت أني أخدع نفسي و أوهمها بأمر صعب أن يتحقق فأعتقد أني عندما أدوس تلك الخطوات تجاهك سيردعني هذا عن التفكير في العودة اعتقدت أن قلبي لن يرى إلا سواكِ و لكن عندما اقتربت مني و صرتِ لي خفت عليكِ أكثـــر واقتنعت أنه لا مفر .. لا مفر من الذهاب.

ضحكت ضحكات هيستيرية و اقتربت من النهر فكانت على حافـــة الهاوية و التفتت إلي و قد أوشكت على الانزلاق فجريت إليها مـــسرعًا وأمسكتها بقوة حيث جذبتها تجاهي إلى موضع فيه أمان. صرخت عليهـــا وقلت لها : يا مجنونة ماذا تفعلين ؟

كانت مازالت تضحك و قالت: يبدو إنك لم تقرر التخلي عني بعـــد، ولكنك تريدني أنا أن أتخلى عنك بعد أن صرنا كيانًا واحدًا ، تريـــدني أن أتركك تذهب بدون حتى أن ألبس فستاني الأبيض، ما كل هذه القسوة يا فهد لم أعهدها منك من قبل ، فكيف صرت هكذا ؟ .. قل لي أخبرني حتى أستطيع أن أفهمك، فأنا أحتاج إلى ذلك فيبدو أن تلك السنوات الماضـــية كلها كانت خدعة... مجرد خدعة خدعت بها .. صـــرخت فيّ و التفـــت الناس ينظرون إلينا بشك و قالت بغضب أكبر: أخبرني.. ها تحدث فأنـــا أسمعك، قل لي لماذا يجب أن تذهب للموت بدل أن تستعد للذهاب معـــي نحو حياتنا الجديد ؟ ... لماذا تريد أن تتخلى عني و عن اللحظة التي حلمنا بها معًا ؟ .. فإلى أين تذهب و تتخلى عن منزلنا و أولادنا الذين ســـهرنا الليالي نفكر في أسمائهم ؟ ألم تختر اسم إبراهيم...! قلت لي أن أول ولـــد سيكون اسمه إبراهيم و إن كانت فتاة سنسميها أمل ، ألم تخبرني بذلك .. ألم تعاهدني أنك ستكون دائمًا معي و بجواري، ستظل يدي تعـــانق يـــدك إلى الأبد فنشيب معًا إلى أن تفرقنا لحظة الموت، و حتى الموت لن يكون حاجزًا بيننا فسنجتمع مرة أخرى في الجنة حيث المتحابون في الله .

انفجر بركان الغضب بداخلي و لم أهتم بتطلعات الناس مـــن حولنـــا وصرخت عاليًا و قلت و كان الجميع مستغربًا مصدومًا صـــحيح هـــم لم يفهمونا و لكنهم شعروا بآلامنا فقلت لها أذكرها: نعم وعـــدتك أني لـــن أفارقك، و لكني ألم أعدكِ أيضًا بأرضنا.. ألم أجفف دموعك المنهارة وأرفع يدي إلى السماء و أقول « أعدك أننا سنعود » ألم أقل لكي هذا .

قالت: كلام... هذا كله مجرد كلام يا فهد، و لكن كيف لك و لنا أن نعود و قد سلبت الأرض، و انتهى المنبت و ضاع معه الأصل ؟! كيف ؟!

قلت برقة : و لكنه لم يضع يا روح فهو موجود بوجودنا نحن فنـــسلنا وعرقنا مازال موجودًا فهم لم يستطيعوا أن يسلبونا إياه و لا أحد يستطيع

... صدقيني، و قد حان الوقت لنخبره و نذكرهم بذلك قد حان الوقت لنا أن نعود.

قالت بانكسار : و لكن لماذا الآن ؟ لماذا يجب عليك أن تعود الآن بعد أن أوشكنا أن نكون معًا أخيرًا ، فقد انتظرتك كثيرًا يا فهد فمراحل دراستك من جامعتك و تخصصك الهندسي و سفرك للخارج لأخذ الشهادة و عودتك إلينا ، كل هذه الأيام قضيتها بشغف و خوف فدائمًا كان يطاردني هاجس أني سأستيقظ في الصباح و لن أراك مرة أخرى ولكن كنت أنفي تلك الهواجس بصورتك التي حملتها بداخل نفسي وعلقتها في قلادتي التي اقتربت من قلبي فكانت تعطيه بعض الأمان الذي كان يحتاجه ، والآن و بعد كل هذا بعد هذا الصبر و النجاح الذي حققته و بعد أن صرنا معًا تريد أن تتخلى عن كل شيء و تذهب .

- لأني لن أستطيع أن أكون معكِ يا روح إذا لم أذهب و سيعني هذا ظلمك معي فقد تحملت العشرين عامًا و قلت للجميع أني سعيد و أني بخير و لكني لست سعيدًا و لست بخير فروحي و قلبي تشتاق إلى أمي و أبي تشتاق إلى الثأر من قاتليهما .. تشتاق إلى الجهاد و أذا لم أفعل ذلك سأدمر سأنتهي و ستضيع نفسي إلى الأبد .. هل تفهميني ؟ أنا أريد أن أجد نفسي أن أتخلص من هذا الحمل الذي يثقل كاهلي أريد أن أبتسم بهدوء و سعادة أريد أن أتذوق طعم السعادة فقد سئمت من اصطناعي أني سعيد أريد إذا غضبت أن أظهر هذا الغضب بدون أن أخاف أن يدمرني و يذكرني بما مضى أريد أن أتخلص من شعوري بأني قاتل .. أريد أنا أريد أن أعود إليكِ يا روح خاليًا صافيًا من الحزن .. أنا أريد أن أراكِ بالفستان الأبيض والابتسامة تعلو وجهك و الأمل يغلفه و أكون مثلك مرتديًا الأبيض يكون قلبي مرتديًا هذا الفستان الأبيض فنزف معًا و يحيطني هذا الشعاع الأبيض الذي يغلفه الحب . أنا أريدك لذلك أنا ذاهب.

قالت : و لكنهم إن ذهبت إليهم لن يتركوك تتنفس فسيواجهونك بالمدافع و الدبابات و الرصاص فخيوط الخيانة ستحيطك و تخنقك وستقودك إلى الموت إلى الهلاك فحينها سيتحقق ما كنت أخشاه و يضيع كل شيء ، فلن تستطيع أن تصمد لوحدك .. لن تستطيع .

قلت: و لكني لست وحدي فالجميع معي، فستتوحد الكلمة و ستتحرر الأرض، وسيجد الناس طريقهم إلى القدس فيشدوا رحالهم إلى الأقصى. نعم قد لا أستطيع الآن ، و لكن كل شيء يبدأ بخطوة فما جناه القائد العظيم صلاح الدين من نصر و فتح لم يكن وليد لحظة فقد سبقه كثيرون فلم ييأس عماد الدين زنكي و لم يستعجل الأمر و بعده جاء نور الدين محمود زنكي فوحد و جمع الكلمة بعد أن قيل أن الزمان قد أفلت.

أهو الإيمان أم التفاؤل ؟ ... سألتني.

أجبتها :

- الاثنان معًا فيجب أن نؤمن أن بقاءنا و وحدتنا هي السبيل للنصر

علمت أنه لا مجال، و نظرت إلى عيوني و قالت:

- إذن قد حان موعد الوداع.

قلت بارتباك و بداخلي رغبة صغيرة أن تقول لي لا تذهب:

- نعم .. الوداع ، وداعًا يا " روح " وداعًا يا أعز الناس.

ذهبت و أخذت تقول لي وهي تنظر إلي و عيونها تودعني و تحاول أن تحفظ معالم وجهي بداخلها :

- سأنتظرك.. سأنتظرك بالفستان الأبيض في الأرض أو في السماء.

الفصل الحادي عشر

وا حبيبتاه ... وا إسْلاماه

في خضمّ العراك بين المغول وجيش قطز تمكّن بعض المغول من الوصول لخيمة زوجة القائد سيف الدين قطز "جلنار حب الرمان" فاعتدوا عليها بالضرب ، حتى جاء بعض الحراس فتمكنوا من ردعهم فهلع قطز إلى زوجته وتلقاها بدمائها فصرخ عليها عندما رآها تكاد تموت و قال : "وا حبيبتاه"!! ..

فقالت له: لا تقل وا حبيبتاه بل قل وا إسلاماه!!

فقام قطز من فوره مقاتلًا ، حتى فقد فرسه فاستمر يقاتل علي رجليه فجاء أحد رجالِهِ و عرض أن يترل له عن فرسه ، فقال له بل ائتني بغيره فهذا فرسك أنت .

فقال الرجل: أنت إن قُتلتَ هُزمنا؛ أما أنا فلا. فأجاب القائد المؤمن: أنا إن قُتلتُ فمآلي الجنة ، وأما الإسلام فإن له ربًّا لا يضيعه.

وبعد قتالٍ كبيرٍ من أجل النُصرة قُتل قائد المغول "كتبغا" ، وانهزم المغول في عينِ جالوت .

" لكن " تلك الكلمة التي تفصل بين ما قبلها و ما بعدها ، تلك الكلمة التي قد تكون نقطة لبداية اعتراض على الرغم من هذا الاتفاق الذي كان قد وقع منذ البداية .

تلك الكلمة لم ينطقها أحد ، و لكن تلك الحركات التي شعرت بها بداخلها هي من أعلنت عن وجودها ، فعندما جلسنا أنا و شهد نتحدث سويًا على هذه الطاولة ذكرت لها فهد فأخبرتها عن تلك الذكريات الذي اخترقت جدارًا سميكًا بداخلي و اطلعت على أسرار الماضي ، اطلعت على ما كمن في قلب فهد أكثر من عشرين عامًا .

قد أخبرتها عما دار في رأسي، و عن تلك الأشياء التي يجب أن أفعلها، و بعد أن شرحت لها كل شيء نظرت إليها و أنا لا أعلم ماذا ستقول، ولكني أخبرتها رغم هذا عن ضرورة ذهابي إليهم..

صمتت للحظات و نظرت إلي نظرة مختلفة وكأنها تحاول بها أن تكون روح فتنازلت عن موقعها و تخيلت نفسها مكانها حيث أنها تنتظر في شوق كلمة من صديق الطفولة و حبيب الصبا و عندها قالت لي :

- نعم سأود بالتأكيد أن يحدثني أحد ما بعد طول هذا الغياب عن حبيبي فيخبرني منه كلمة و يطمئن قلبي المتلهف له ثم صمت لفترة قصيرة و أردفت ...

يخبرني أي شيء حتى لو كانت تلك الكلمات التي ستخرج من هذا الفم قاسية صادمة، و لأن الانتظار صعب... أصعب بكثير من الموت ، لا .. الموت صعب و الانتظار صعب كلاهما صعب ، و لكن انتظار الموت هو الأصعب بالتأكيد، فمن المؤكد أن هاجس الموت يحتل عقلها و فكرها الآن ففي كل يوم هي تتألم، و تحزن، لذلك يجب أن تعرف الحقيقة و ينتهي هذا الانتظار صحيح أنها ستتألم كثيرًا ، و لكن بالتأكيد في النهاية ستنسى أو ستتناسى حتى تعيش و تستمر .

و فجأة قفزت شهد و قد بدا الألم واضحًا على وجهها، ارتعبت وخفت كثيرًا عليها و على ابني و سألتها بخوف« هل أنتِ بخير ؟ هل تشعرين بأي تعب؟ هل أطلب الطبيب ؟ ».

لم تجب و لكنها فقط أمسكت يدي ووضعتها على بطنها بخفة فشعرت بشيء يتحرك بداخلها فكان ابني هو من يتحرك ضحكت و ضحكت شهد معي من السعادة فتلهفت نفسي له و نزلت على الأرض لأكون قريبًا منه فوضعت رأسي بالقرب منه لأسمع صوته و قد احتضنتنا شهد بيديها معًا فبدأت أحدثه .

- تعلم جيدًا يا بني أني لا أريد أن أتركك أنت ووالدتك وأذهب، لا أريد هذا بتاتًا فأنا أتحرق شوقًا لهذا اليوم الذي ستخرج فيــه إلى الــدنيا وتسعد بصرخاتك الجميع.. آه يا بني لو تعرف كم أنا أحبكم.. ! فــأنتم روحي و حياتي و عمري القادم، أعلم أنك غاضب مني، و لكن لا تغضب و لا تتعب والدتك معك فلا ذنب لها.. الذنب ذنب أبيك يا إبراهيم فقد قطع وعدًا لصديقه و يجب أن يفي بهذا الوعد فهذا أول درس أعلمك إياه (الوعد) يجب عندما تقطعه لأحد أن لا تنكــصه أبــدًا مهمــا كانــت الظروف.

ابني إبراهيم ..

يا سبعي ..

يا ولدي الحبيب ، تعلم لقد سميتك باسم رسول كريم فأنا أدعــو الله وأتمنى أن تتبع خطاه و أن تكون لعائلتنا مثل ما كان هو لعائلته الشريفة ، فتمسك بالحق دائمًا و أسعى في طلبه فاعلم أن أيامك ســتكون أصــعب بكثير مما كانت على أبيك ، و لكن أنت أملي فلا يصدك أحد عن هــذا الحق فحارب لأجله دائمًا .

لم تقل شهد شيئًا و لكنها كانت تبكي و هي تستمع إلى الكلمات التي ألقيها على ابني و هذا جعلني أشعر بالذنب تجاهها فلماذا عليها أن تتحمل هذا الألم ؟ أردت بقوة أن أعتذر لها، ولكن هل هذا الاعتذار يكفــي ؟.. وهل سيكون كفيلًا أن يمسح واقع أني سأتركها وهي حامل و أذهب؟

و لكن رغم كل شيء أردت أن أستخلصها لنفسي فقلت لهــا و أنــا أتجنب النظر إلى عيونها:

- أنا آسف حقًا يا شهد.

و مثل ما اعتدت منها دائمًا فصدمتني بتفهمها و ضمتني إلى صدرها الرحيم الذي ذكرني كثيرًا بصدر أمي الحاني الذي كان يضمني و ينقذني في أصعب لحظاتي، قالت لي و هي تمسح على رأسي:

- لا بأس يا أقصى أنا أفهم جيدًا ضرورة ذهابك..أنا أفهم و أشعر بك لذلك لا تحمل نفسك أكثر مما لا تطيق ، و لا تشعر أنك قصرت تجاهي لأنك لم تقصر قط معي يومًا ، أعلم أنك فقدت الكثير ممن تحب وقد ترك هذا بداخلك حزنًا إلى جانب الحزن الذي تعيشه فتلك القضية حمل ثقيل يصعب على إنسان حمله وحده ، و لكنك حملته بداخلك بشجاعة رغم تلك الصعوبات التي واجهتها ، أنا فخورة بك يا أقصى فأنا محظوظة لأنني زوجتك .

نظرت إلى عينيها فأردت أن أرى ذلك و أستمتع به، فكانتا صادقتين تنطقان بكلمات العشق و الهوى. أردت أن أقول لها أنا أحبك أيضًا ولكني وجدت أن الكلمات ستكون ظالمة لها فلن تستطيع أن تعبر عما يدور بداخلي فتلك المشاعر الفياضة التي أملكها لها.. ليس بمقدار أحد أن يعبر عنها فإنها تفوق الوصف.

ودعتني شهد بابتسامة ، و يداها كانتا تلوحان لي بحب ، و أنفاسها كانت تتمنى لي التوفيق ، وعيناها كانتا تخاطبان عينيّ بعشق ، و قلبها كان قد اشتاق إلى عودتي إليها بالفعل، ظلت تودعني حتى اختفيت وسط الزحام و لم أعد أراها و لم تعد تراني .

و عندما صعدت إلى الطائرة كان قلبي يرتجف و نفسي حزينة و عقلي يفكر بهما، فسألت نفسي ولمتها فكيف لي أن أتركهما هكذا ؟ و تملكتني فكرة العودة و كنت سأنهض لولا أني سمعت هذا الرجل الجالس بجواري يتحدث أعتقد أنه يحدثني أنا، و لكنه كان يحدث نفسه و يقول «عجيب..! هذا عجيب ...! » فتملكني الفضول للجلوس و انتظرت لأعرف ما هذا الشيء العجيب.

وصلت إلى المدينة العريقة و أنا لا أملك أي شيء قد يصلني إلى عائلة فهد سوى كنيته، و أنه كان يعيش في مدينة اسطنبول ، تلك المدينة الواسعة الرائعة التي لا يقتصر جمالها على معمارية مبانيها و تاريخها الذي يشهد عليه الجميع ، و لكن ظهرت روعة جمالها في تلك الطبيعة الساحرة التي أحيطت بها فالجو و الخضرة و البحر كان كفيلًا أن يسلب العقول والقلوب .

قررت أن أبحث في دليل الأسماء عن أي خيط قد يوصلني بهم فبالتأكيد سأجد لهم رقم أو عنوان فقد مر على وجودهم هنا زهاء العشرين عامًا، ولكن وجدت الكثير بكنية " القاسم " فدونتهم جميعًا و بدأت أطلب الأرقام الواحد بعد الآخر ، كنت بداخلي أشعر أني سأتعب كثيرًا قبل أن أجد أي أثر لهم ، و لكن ما حدث كان العكس تمامًا فسبحان الله بعد مكالمتين استطعت أن أعثر عليهم فحمدت الله لأنه ساعدني فقد علم نيتي ورأى عزمي .

رد علي شاب و قال لي باللغة التركية: مرحبًا، وهي تنطق كما تنطق بالعربية. فقلت له مرحبا و تحولت بالحديث إلى الإنجليزية كما صنعت في المكالمات السابقة و تمنيت أن يفهمني حتى لا أواجه تلك الصعوبات التي واجهتها عندما تحدثت مع من سبقه .

فقلت له إن اسمي أقصى و أبحث عن عائلة فهد القاسم الفلسطينية ، وعندما أخبرته عن فهد ظل صامتًا لفترة اعتقدت في البداية أنه لا يفهمني فكررت عليه كلامي محاولًا أن أبطئ من سرعتي حتى يكون كلامي واضحًا أكثر ، و لكنه في الحقيقة كان يفهمني جيدًا و رد علي بالعربية بعد أن سألني هل أجيدها ؟

فأجبته أني مصري ...

قال دون أن يسمع مني: أنا مصطفي أخو فهد..

ثم سألني عنه و كيف هو ؟ و هل سيعود قريبًا ؟

ففضلت ألا أقول أي شيء حتى أراه فأخذت منه العنوان بعد أن شرحت له ضرورة رؤيته و رؤية باقي أفراد العائلة و سألته عن روح، ولكنه لم يخبرني عنها شيئًا و قال فقط: سأنتظر قدومك.. ثم أغلق الهاتف .

كنت سعيدًا بالانتصار الذي حققته ولكن بعد دقائق تملكني القلق والخوف فكيف لي أن أواجههم جميعًا و أخبرهم أن ابنهم قد مات ؟ ..كيف؟

توكلت على الله و أوقفت التاكسي و أعطيته العنوان مكتوبًا في ورقة ولكنه لم يفهمه جيدًا حيث كان مكتوبًا بالإنجليزية و بعد أن نطقته له هز السائق رأسه فقد عرف مكانه و انطلقنا.

ففتحت زجاج السيارة لأستمتع بنسمات الهواء على الرغم من برودة الجو، و لكن ظهر علي السائق الضيق، وتحدث معي بكلمات لم أفهمها فسألته بالإنجليزية ماذا يعني ؟ و لكني لم أفهم شيئًا مما قال ، و بعدها لم يجد الرجل وسيلة غير أن يستخدم معي لغة الإشارة فانطلق يشير إلي أن أغلق الزجاج ثم مد يده للمدفأة و حينها ففهمت مقصده فأغلقتها على مضض مني احترامًا لرغبته .

لم أشعر بالوقت كيف مضى و لكن كنت أستمتع بكل لحظة فيه فكانت الشوارع في انسجام تام مع الطبيعة التي أعشقها كثيرًا فكان لها مذاق خاص جميل لم أجده في مكان غير اسطنبول .

وصلنا إلى المترل .. و كان بيتًا كبيرًا يبدو أنه فيلا أو قصر وكان يطل على منظر جميل للبحر، في الحقيقة قد تعجبت و اعتقدت أني أخطأت العنوان و لكن السائق أكد لي أنه العنوان الصحيح ، فلم أتوقع أن تكون عائلة فهد بهذا الثراء فقد عهدته بسيطًا متواضعًا ، و لكن لا ينفي التواضع

أن يكون الإنسان غنياً بل هي ميزة فوق ميزة ، و لكـــن لقـــد هـــاجروا وتركوا أرضهم فكيف .... ؟

لا ، لا يجب أن أسأل فإن الله يرزق من يشاء بغير حساب ...

توقفت عن التفكير وذهبت إلى البوابة ووقفت أمامها، و بعد أن جمعت شتات نفسي و تنفست بعمق ضغطت على الجرس، و بعد ثـــوانٍ قليلـــة فتحت لي البوابة الحديدية و ظهر رجل يلبس بذلة سوداء و قبل أن أعرفه بنفسي قال لي :

- « أقصى بيك .. » .

هززت رأسي باستغراب و قلت له نعم حتى أنني قلتها بالمصرية (أيوه)، فأشار إلي حتى أتبعه فتحركت معه نحو المترل و عندما وصلت إلى الباب وجدت أمامي المفاجأة الحقيقة.

حقًا كانت مفاجأة فكيف لوجهين أن يتشابها بمثل هذا الحد ؟ ... كيف لتلك الخطوط أن تتفق فترسم صورة واحدة فتعجز عن إيجاد الأصـــل ؟ كيف يتفق القوام بهذه الدقة ؟ ... كيف ؟ ، و لكن هل (لكيف) هنـــا وجود، فكيف نسأل عن صنع الخالق ؟ كيف نشك في رابطة الـــدم ؟ ... فهي صحيح تربط النسل و تجعله يستمر، و لكنها أيضًا تربط صور الوجوه فتظل خالدة تشق طريقها نحو النهاية.

للحظات سألت نفسي في حيرة فقد أخذتني الصدمة و تملكني الشك، فمن الذي يقف أمامي الآن ؟ هل هو فهد في صورته التي عهدته عليها ... ؟! أم كان مصطفي ؟! ..

و لكن فهد قد مات فأنا وضعته بيدي في قبره فكيف يكون هـــو ؟ ، ولكن رغم ذلك غلبت العاطفة العقل و الواقع معًـــا فتقـــدمت وكـــأني مسلوب الإرادة يسوقني ما هو أقدر مني و أكبر من أن أجمحـــه ، فكـــان يسوقني شوقي لهذه الروح التي بغيابها عني فقدت جزءًا مني ..جزءًا مـــن

نفسي ، فتقدمت إليه و أنا أفتح يدي بحرارة المشتاق فقد وجدت فهد بعد طول هذا الغياب ، فهو الآن يقف أمامي يبتسم كما عهدته دائمًا يبتسم ، فعيناه كانتا صافيتين ، ووجه هادئ رزين كعادته ، و لكنه لم يتقدم إلي بل ظل ينظر في حيرة فتقدمت نحوه و عندما أوشك لساني أن ينطق اسمه " ف...ف.... فهد " حينها فقط .. حينها فقط أدركت أني كنت على خطأ ... أدركت أني فقدت فهد للمرة الثانية .

اختفت تلك الابتسامة التي كانت تلفح هذا الوجه ، و حل محلها صدمة لا قبل لأحد أن يتحملها فقد فطن مصطفي بمصير أخيه فتلك الذلة التي قادتني إليها مشاعري نتج عنها كشف حجاب الماضي بشيء من القسوة ، و لكني لم أكن أريد أبدًا أن يعرف مصطفى ما حل بأخيه بهذه الطريقة ، لم أكن أريده أن يتألم كما يتألم هو الآن فكانت خطتي أن أدرج له الخبر حتى تكون صدمته أهون مما هي عليها الآن ، و لكن بغبائي دفعته ليعرف الحقيقة بأبشع الطرق .

حاولت أن أتحدث إليه فكلمته بهدوء راجيًا أن يسمعني: مصطفي... أنا.

لم يرد علي ، و لكنه فجأة انهار على الأرض و بدأ يبكي و ثم رفع رأسه و نظر إلى عيني و بخوف و شك سألني وكأنه كان يريد أن يكذب ما توقعه فأراد أن يتأكد ، و لم يكن هناك شخص أجدر أن ينهي شكه مني أنا فقال : « هل هذا صحيح ؟ هل مات فهد حقًا ؟ هل ذهب و لن يعود ؟».

و هل ... وهل ... وهل...

ظل يتعجب و يتساءل و أنا صامت لا أجيبه بل كنت فقط أبكي في صمت تاركًا الدموع تنحدر مني و تسبح في وجهي بحرية ثم أدع بعضًا منها يتساقط فيترل في يدي ثم يتساقط البعض الآخر فيرتطم بالأرض ويسقيها ، و في تلك الأثناء فتحت البوابة و دخلت سيارة مرسيدس

سوداء أفزعتني سرعة دخولها ووترتني أكثر ، و عندما توقفت لم ينتظر الجالس بالخلف أن يفتح له السائق الباب بل فتحه هو بنفسه و أظهر عن نفسه لنا ، و لكنه لم يكن رجل بل كانت فتاة شاحبة الوجه تمسكت بقوة بمقبض الباب و بعد أن فتحته حملت نفسها ووقفت ووجهها كله لهفة واشتياق و يبدو أن هذا الاشتياق قد دفعها أن تعاند المرض و تتغلب على ما تشعر به من ضعف فوقفت بثبات و تقدمت مسرعة و لكنها عندما رأت مصطفى منهارًا هكذا على الأرض يبكي، و رأت دموعي أنا الآخر تحققت من هواجسها و صارت مخاوفها واقعًا ينتظر فقط أن يعلن أحد عنه

ازداد شحوب الفتاة ، و اغرورقت عيناها بالدموع و اكتست ملامحها بالألم ، لا أستطيع أن أصفها فكيف لي أن أصف هزال جسدها و ضعفه ، و يديها المرتعشتين الخائفتين ، وخدودها الذابلتين الذي ضاع منهما نضرة الشباب ، و جلدها الأبيض الذي عكر بالسواد الذي أحيط من جوانب عينيها الغائرتين .

كيف أصفها فهل يمكن أن تكون هذه هي روح ؟ هل هذه روح التي تعجبت يومًا من جمالها و حسن طالعها ؟ ماذا حدث لها ؟ كيف تحولت بهذا الشكل و صارت أشبه بهيكل.. مومياء تنتظر أن ينتزع منها الروح، نعم هي روح قد تعرفت عليها ليس من خلال ملامحها التي اختلفت كثيرًا عما كانت عليه، و لكني عرفت من هي من هذا الشجن و هذا الحزن الذي نطقت به نفسها وتغلب كل كيانها.

أكان يجب علي أن أتحدث... أن أنطق بأصعب الكلمات ، و أصف أصعب اللحظات ، كيف لي أن أفعل هذا أمام دموعهما التي تتساقط وقلبيهما اللذين امتلآ بهذا الحزن ؟ ربما المنديل هو الحل فهذا سيكون كافيًا لهما ، فالمنديل سيقول كل شيء و حينها لن يبقى لي أي شيء آخر لأقوله

فأخرجت المنديل من جيبي ببطء و أنا أتحسس ملمسه الناعم بيدي وألمس فيه حروف اسمها التي نقشت عليه فقد أخفاه فهد وسط الصفحات

ووضعه بعناية بالغة بعيدًا عن أي شيء قد يلوثه أو يشوهه ، فقد أخفـى تلك القطعة بداخل قلبه فأعلم كم كانت مهمة بالنسبة له ، كما أعلم كم هي مهمة بالنسبة لها ... لذلك أعلنت خروجه فظهر لها و لهم جميعًا .

أمسكت طرفه بيدي بينما كان الهواء يلعب و يمرح معه جاعلًا طرفـه الآخر يتحرك في كل مكان وقد انبعثت منه رائحة فهد التي أحاطت المكان فأغمضت عيني و أخذت نفسًا عميقًا حتى أحافظ عليه بداخلي على قدر المستطاع، و في تلك اللحظة طفقت روح تتحرك بجنون رهيـب ليست تصدق ما تراه وظلت تقول و كأنها تحدث نفسها:

« لا... مستحيل، هذا مستحيل.. قولوا لي أن هذه ليست الحقيقة »

و بعدها سقطت بقوة رهيبة علـى الأرض و قـد تـشنج جـسدها وجحظت عيناها في مشهد أليم ، جرى إليها مصطفى محاولًا أن يثبتـها ، ولحظتها أصابني الذهول فكنت متصلب الجسد و العقل لا أعلم ماذا أفعل ، و لكن قلة حيلة مصطفي في معالجة الأمر جعلتني أتحرك و أتغلب علـى صدمتي، فوضعت يدي على كتفه و قلت له تحرك ، و لكنه نفض يـدي بعيدًا و قال اذهب ارحل فهذا يكفي و كأني من قتل فهد ، صرخت فيـه وقلت له بلهجة آمرة تحرك فأنت لا تساعدها ، فأنـا طبيـب ... و دون رغبة منه تخلى عن مكانه لي و ذهب ليطلب الإسعاف.

كان جسمها كله يتشنج ... ينتفض.. يتحـرك بعنـف و غـضب . حاولت أن أثبت رأسها و أحافظ على هدوئها فما لبثت أن جاءت عربـة الإسعاف فساعدهم على حملها، و ركب مصطفى معها بعد أن نظـر إلي نظرة امتزجت بين الغضب و الامتنان.

لم أجد نفسي و إلا أتبعهما فأوقفت التاكسي و أشرت لـه أن يتبـع سيارة الإسعاف و عندما وصلنا جميعًا إلى المستشفى كانت نوبة روح قـد

هدأت علي الرغم أنها ظلت فاقدة للوعي ، لم أكن أعلم ما بها ولكن كان واضحًا للناظر أنها مريضة للغاية .

هذا كل ما كنت أعرفه و لكن كان واجبي كطبيب ، وواجبي أيضًا تجاه فهد أن أهتم بها و أقدم لها كل العون و إن أبت ذلك ، لهذا وقفت بالساعات أنتظر في الاستراحة حتى ظهر مصطفى يمشي بتثاقل وكأن شيئًا قد أثقل نفسه و فاق احتماله ، جريت عليه صحيح كنت أمامه و لكنه كان يعاملني بجفاء ظاهر فلم يلتفت إلي و لا لسؤالي على روح ، فقد أخذ كوب قهوته و جلس على أول منضدة وجدها فارغة . فجلست بجواره وقال وكان يتحدث رغم عنه: «أرجوك اتركني أريد بعض الهدوء، إذا سمحت ».

حدثته بما في نفسي و ما جال بخاطري حين طرفته عيني فقلت له:

– هل تعلم أنك تشبهه كثيرًا ...! ملامحك، صوتك... حتى غضبك، فأنت تشبهه في كل شيء حتى في أدق التفاصيل ، فاعذرني ، أتمنى أن تعذرني يا مصطفى فكيف لأحد مهما يكون أن يكتم بداخله صدى صوت صيحة فرح اللقاء فأنا رغمًا عني وجدت لساني ينطق باسمه على الرغم من أنك لست هو ، حتى لو كنت تشبهه ... فهل تصدقني إذا أخبرتك بأني قد اعتقدت لثوانٍ أنك فهد.. فقد كنت فهد الذي يقف أمامي.

بعصبية التفت إلي مصطفي و قال اصمت... توقف إذا سمحت ، اتركني و ارحل ، وأدت عصبيته إلى أنه أوقع كوب القهوة فانتشرت في كل مكان ولوثت ثيابي و ثيابه .

– آسف ، حقًا أنا آسف .

خرج مصطفى غاضبًا حزينًا يجري وكأنه يهرب . كنت أعلم أنه يهيم بداخله فهو تائه يشعر بالضياع فصعب أن يفقد الإنسان آخر شخص له

من عائلة و لكن كان يجب أن يسمعني ، فكان يجب علي أن أؤدي مهمتي و أفي بوعدي .

تركت المستشفى و ذهبت إلى الفندق فبعد هذا اليوم العصيب كان كل منا يحتاج إلى راحة و أردت أن أفكر بما يجب أن أفعل ، فهل أذهب وأعود فقد أديت واجبي ووفيت بوعدي تقريبًا فشهد الآن تحتاجني أكثر من أي شخص آخر ، ولكن كيف لي أن أترك مصطفى و روح في هذه الحالة المؤسفة فهما في حاجة لشخص يقف بجوارهما حتى يخرجا من هذه الأزمة و يعتادا على الوضع ، فلابد أن أطمئن عليهما أولًا ثم أذهب ، نعم هذا هو الصواب ، و لكنهما لن يسمحا لي بذلك فلن يتركني مصطفى أن أتحدث معه فهو يعاملني بجفاء، و روح تمنعني دموعها حتى من الاقتراب منها و الحديث إليها بما يجب أن يقال، فكيف لي إذن أن أساعدهما ؟

الصبر... الصبر هو الحل فيجب أن أصبر... فإذا أردت أن أساعدهما حقًا يجب أن أصدق الصبر، ففي النهاية سيحبان أن يستمعا لي ليس لأني من سيتكلم بل لأني سأتكلم عن فهد. فهدنا نحن.

***

بعد مرور أيام لم أفعل بها سوى الصمت والجلوس بانتظار في الإستراحة دون أن أنبس بحرف فقد كنت أتتطلع تاركًا صمتي و صبري دواء لمصطفى الذي كان يدخل و يجدني جالسًا فيأخذ قهوته و هو يتطلع إلي بصمت ثم يذهب ، استمر هذا الحال نحو أسبوع ، و قد علمت من الممرضة المناوبة على روح أن حالتها قد تحسنت و استقرت بعض الشيء ، و لكني لم أكن أعلم ما هي طبيعة مرضها بالضبط و لكن كان عندي شكوك ، مجرد شكوك لا دليل عليها و تمنيت أن تظل مجرد شكوك .

وعندما كنت أجلس أطالع كتابًا فاجأني مصطفى بقدومه في اتجاهي وكان يحمل معه كوبين من القهوة ، و عندما وصل إلي حيث أجلس مد يده و أعطى لي كوبًا منهما و قال لي بنبرة لطيفة :

« هل نتمشى قليلًا بالحديقة »

أومأت له بالإيجاب بدون أن أقول شيئًا و أغلقت الكتاب بعد أن علمت الصفحة التي وقفت عليها و قمت معه ، فقد سعدت كثيرًا بتلك المبادرة المتوقعة.

كنا نسير و نستمتع بهذا المنظر الذي حاول المهندس الذي صمم تلك الحديقة أن يجعله مريحًا بقدر الإمكان فيترك في النفس هدوءًا وراحة تزيل بها بعض التعب و الهموم التي خلّفها المرض ، و قد ساعدته كثيرًا طبيعة المكان وجوه الجميل النقي فكان بالفعل هذا المكان يصلح أن يكون مستشفى حيث تتوافر فيه كل الصفات التي قد يحتاجها المريض من هدوء و سكينة و نقاء ، جعلني هذا أتذكر المستشفى الذي عملت فيه بغزة فكان المنظر الوحيد المتكرر هناك هو منظر الدماء ... و هذا اللون الأحمر الذي يتساقط في كل مكان .

- إذن لم تذهب..!

سألني مصطفى بعد أن شرب رشفة من كوب القهوة فأجبته بنعم، فعاد يسألني.

- لماذا ؟

قلت له :لأنني أردت أن أطمئن عليكما قبل أن أذهب.

فقال لي :

- في الحقيقة لقد تعجبت من بقائك كل هذه المدة ، و كنت أستغرب كل مرّة أجدك جالسًا فيها هناك، فأحد غيرك ربما قد مل وذهب، و لكنك لم تذهب. تعلم لقد ذكرتني بفهد فكان عنيدًا دائمًا ، يصر على رأيه مهما كانت التحديات ، فلا يترك أي شيء يقف أمامه .

- ربما... ! ربما قد كان .

– ربما، ما هذا الجواب يا.... ، ظل يفكر لثوانٍ ثم قال بخجل: اعذرني لقد نسيت اسمك فما حدث سلب عقلي مني ، أتذكر أنه كان اسمًا مميزًا يبدأ ب أا...

– أقصى ... اسمي أقصى ..

– أقصى ... صحيح وكيف لي أن أنسى اسمًا كهذا...! العفو منك يا أقصى، أرجو أن تعذرني.

– لا بأس أتفهم صعوبة الأمر عليك .

بعدها عاد يسألني باستغراب قائلًا:

– و لكن لماذا هذا الشك، أعني أنك تتحدث وكأنك لا تعلم كيف كان فهد؟ ألم تكن صديقه المقرب ..!

– بلى ، ولكن في الحقيقة يا مصطفى على الرغم أن فهد كان من أقرب الناس لي إلا من العجيب أني لم أعلم أشياء كثيرة عنه إلا بعد وفاته ، صحيح أني قد عشت معه ما يقرب العامين و لكنه كان دائمًا صامتًا لا يتحدث كثيرًا، فعلى الرغم أنه كان يتحدث أحيانًا عن حياته و لكنه كان كلامه بالنسبة لي مبهمًا غامضًا . فأعتقد أنه فضل أن يحتفظ بأسراره لآخر دقيقة، فأنا لم أعلم بوجودكم إلا بعد موته عن طريق دفتره الذي تركه لي.

– كيف هذا ؟

– هذه هي الحقيقة، قد لا تصدقني و لكن هذا هو الواقع ففهد كان شخصًا غريبًا يمتزج بين الصمت و الجدية، و بين الضحك و المرح، أحيانًا كنت أجده في قمة التفاؤل والانطلاق و أحيانًا أخرى يكون في قمة... في قمة الصمت و الغموض، أما إصراره فنعم فقد شهدت عليه بالفعل ، وأستطيع أن أقول أنه من الأشخاص القلائل الذين يرسخون على أمر مهما بدا صعبًا أو مستحيلًا فهو كان يرى تحرير القدس و فلسطين حلمًا و لكنه حلم سيتحقق بإذن الله ، و قد شاركته أنا أيضًا فيه بكل حماس فهذا كان

حلمنا الذي حاربنا لأجله ، ولكن كان العديد من الناس لا يــرون هــذا الحلم كما يراه هو و أنا ، فالجميع كان ينظر إلى الأمور بشيء من ... لا أعلم و لكن كان الواقع هناك قاسيًا و مازال قاسيًا لذلك كان التشاؤم هو الذي يحتل المرتبة الأولى ، و كانت دائمًا أصابع الاتهام تمتد و تشير إلى بلاد الوطن العربي و كيف أنهم تخلوا عنهم و تركوهم مع الموت ، و لكن كان فهد يؤمن أن القائد سيظهر يومًا ما و سيأتي موحدًا الكلمة و سيحمل معه راية الجهاد و التحرير من جديد .

عندما سمع مصطفى كلامي عن فهد وقف مضطربًا يدور في حلقة حول نفسه واضعًا يديه وراء ظهره و منكسًا رأسه للأرض، متطلعًا بغضب إلى لا شيء، وبعدها بثوانٍ تطلع إلي بأسف وقال:

- و لكن ماذا حدث يا أقصى ؟ ... ماذا كانت النتيجة ؟ ... فقد مات و نزف دمه هباءً، فانظر جيدًا فمازالت فلسطين أسيرة مكبلة، فماذا صنع هو بجهاده..! فماذا استفاد بموته غير أنه حرمنا منه... !

توقف لثوانٍ يفكر و بعدها تحدث بنبرة فيها استهزاء كبير:« أعتقد أنه قد قتل بصاروخ قذف على منزلكم فلم يتح له حتى الفرصــة ليحــارب كالرجال » .

اشتطت غضبًا منه و كان لابد أن أصرخ فيه أن أوقفه فليس له الحــق مهما كان غاضبًا من فهد أن يتحدث عنه بهذا الشكل و تلــك الطريقــة المسيئة ، فاقتربت منه بغضب وأمسكته من ياقة قميصه و صرخت فيه و لم أجد عيوني إلا و هي تدمع و قلت له أؤنبه :

- لقد عاش فهد رجلًا و قد مات رجلًا ، فهو لم يهــرب مــن أي مواجهة قط ، فلم يختبئ مثل الملايين من الناس ، ولم يقل أن هــذا الأمــر مستحيل فماذا يصنع رجل واحد أمام آلاف الرجال؟ ، بل حمل روحــه بشجاعة و قدمها فداء للأرض ، و في المقابل تخلى عن أحب الناس إليــه

واختار الجهاد و نصرة الإسلام ، فعندما ذهب و ترك روح حبيبته و التي صارت زوجته نزف قلبه إلى حد الموت لفراقها ، فقد تجرد قراره من كل المطامع البشرية فما كان يسعى إليه هو صلاح الدين و الدنيا ، وحتى ألمه دفنه بداخله فكان يتعذب وحده و لم يحاول يومًا أن يخفف هـذا الحمـل الثقيل عنه و يشاركه مع أحد غيره فظل بداخله إلى لحظة موته ، وأنـت الذي عشت عمرك تلومه على موت والدك و أمك ألم تعلم كم أحبك ، كم خاف عليك وكم تمنى لك مستقبلًا باهرًا ، فذنبه فقـط أنـه أراد أن يدافع عن أرضه ... أيكون هذا ذنبًا يعاقب عليه..! لماذا كل هذه القسوة يا مصطفى ؟ هااااا ، أتريد أن تعلم كيف مات أخوك ؟ سـأقول لـك ...سأقول لك كيف مات و هو يحملني على ظهره و أنا جريح أنـزف ؟ كيف كان يحميني من طلقات الرصاص ؟ ... و كيف أصـابته رصاصـة غادرة و قضت عليه ؟ بينما كان ينادى عليكم أنتم أهله الذي عاش عمره كله و هو يفكر بكم. لو تعرف ماذا قال لي قبل أن يموت ؟ لو تعرف...!

انكمش مصطفى و أخفى وجه بخجل و ذهب بعيدًا و هو يمسح دمعة سقطت منه

- ماذا قال ؟

سألني و قد بدا الندم عليه واضحًا فقد أثرت كلماتي فيـه فـشعرت بروحه الحزينة ، و لكني كنت مازالت غاضبًا منه حتى أني كرهت النظـر إلى وجهه الذي أحببته كثيرًا لتشابهه مع فهد فقلت له متثاقلًا الرد:

- ربما روح هي الوحيدة التي لها الحق لتعرف ؟
- أرجوك أخبرني ...

ترجاني كثيرًا و لكن كانت نبرة استنكاري له مازالت واضحة فقلت:

- ولماذا علي أن أخبرك؟

قال مدافعًا عن نفسه :

- صحيح أنني لمت أخي و لكنه كان لوم المحب فكنت من داخلي أعرف جيدًا أنه بطل. فعندما توفي والدنا كنت مازلت ابن خمس أعوام فقد كنت طفلًا صغيرًا لا يفقه شيئًا غير حنان أمه و أبيه ، و أخيه الكبير الذي يلعب معه و يحميه من شرور باقي الأطفال ففهد لم يكن لي فقط أخ بل كان قدوتي و الرجل الذي تمنيت أن أكون ، و لكن عند الموت تختلف المقاييس و تنقلب المفاهيم فيبرز الانتقام لمجرد الانتقام .. لا ليس لمجرد الانتقام فقط ، و لكنه حق ، حق لي أن أنتقم فعندما حملني فهد و ذهب بي إلى منزل عمي لم يحملني أنا فقط و لكنه حمل انتقامي معه أيضًا ، فقد حمل انتقام طفل لا يعي سوى أمر واحد و هو الحرمان فقد حرمت من عائلتي وكان يجب أن يتحمل أحد ما هذه المسئولية كان لابد أن أجد شخصًا يحمل هذا اللوم .. شخصًا أستطيع أن أقتص منه و كان هذا الشخص هو فهد فلم أجد غيره فقد كنت أضعف أن أواجه اليهود وحدي فجمعت غضبي وقذفت به في وجه فهد على الرغم أني يقينًا أعلم أنهم هم السبب ، تمنيت يومًا أن يسامحني عما صدر مني من اتهامات وجهت يومًا إليه ، صحيح قد قالها لي قبل أن يذهب و أنهى كل خلاف ولكني لم أشعر ... أعني رغم أنه قالها لي و لكن هذا لم يذهب عني ذاك الشعور فشعرت وكأني أنا الذي دفعه للذهاب فقد دفعته دفعًا لقتل لنفسه.. فذهابه كان يعني موته لا محالة، وكانت آخر كلماته لي:

- « سأذهب لأقتص لك منهم يا مصطفي فكن طيب النفس مرتاح البال »

و لكني لم أرتح بل ازداد قلقي و انشغالي و تحولت روح علي و صارت تتهمني بأني السبب في ذهابه وأنني من حرضته على ذلك، و لكنها لا تعلم أن فهد لم يتوقف يومًا عن فكرة العودة و الانتقام من قاتلي أبينا وأمنا فإن بدا لنا سعيدًا و مرتاحًا بهذه الحياة الهانئة إلا أنه كان بداخله يستشيط

غضبًا عندما يرى جرائم اليهود تزداد في بلد عشنا فيها بسلام و أمان يومًا ما فقد صارت الآن مكانًا يشهد كل يوم على القتل و الخراب فكان هذا شعوري و إن لم أتذوق كفاية طعم بلدي فماذا عنه هو الذي ترعرعت بداخله حلاوة الزيتون وطيب الأرض ، و ما كان لأحد منا أن يمنعه و لكن بذهابه أضعفنا وأحزننا ، و قد تألمت روح كثيرًا وتركت نفسها صريعة للمرض فقد استسلمت له فأشعر إن هذا أودى بها إلى مرضها هذا .

انتابني القلق فشعرت أن مرض روح عظيم الخطورة فسألته عنها بشك خوفًا من أن تكون هواجسي حقيقة:

- روح، مم تشكو يا مصطفى ؟

تردد لحظات قبل أن يقول إنها معها سرطان في المعدة و أخبرني أنها قد تعذبت كثيرًا في رحلة علاجها و لكن باتت الآمال ضعيفة ، وفي اليوم الذي قدمت فيه كانت قد قررت بعد ضغط العائلة عليها أن تسير في إجراءات عملية قد تساعدها على الشفاء أو قد تمهلها بعض سنوات أو شهور ، و لكنها كانت خطيرة و نسبة نجاحها غير ثابتة فتختلف من حالة إلى أخرى ، و لكن رغم ذلك كانت العائلة متمسكة بالأمل على عكس روح التي كانت قد فقدته بعد اختفاء فهد و غيابه الطويل عليها ففي تلك المدة الطويلة لم يهاتفهم إلا مرات قليلة لذلك كانت في لهفة دائمة لمعرفة أخباره والاطمئنان عليه فعندما هاتفها مصطفى ليبشرها بأن هناك خبرًا من فهد حيث كان يعتقد هو أيضًا أني قادم له بأخبار مطمئنة تركت المستشفى مسرعة دون أن تخبر أمها أو أباها من لهفتها وجاءت إلى المترل و عندها حدث ما قد حدث . قال لي مصطفى أن نيته كانت صالحة فهو أراد أن يشجعها أكثر على القدوم في إجراءات العملية فقد أصبح يوجد أمل تستحق أن تعيش لأجله و لكنه لم يتوقع أن ينطفئ الأمل حين وجد .

عندما علمت ما حل بروح أدركت أن رسالة فهد التي حملتها معي لها سيعني بالتأكيد موتها والقضاء عليها فهو يقول لها إنه ينتظرها فكيف لها ألا

تسرع إليه مجيبة دعوته فتقرب اللقاء الذي انتظرته طويلًا ، لذلك عزمت أمري أن أخفي تلك الرسالة إلى أن يحين موعدها ، و بدأت أبحث عن طبيب ماهر قد يجد حلًا لمرض روح فأعلمني صديق لي بعد بحث أن هناك طبيبًا في ولاية شيكاغو قد نجح في أن يتخلص من ورم كان لحالة شبيهة بحالة روح و أن الشخص الذي أجرى له العملية يعيش الآن بصحة جيدة ، لذلك شعرت أن هناك أملًا كبيرًا في شفائها فأسعدني هذا فقد أستطيع أن أكون سبب في أعاده البسمة على وجوههم الحزينة فرغم اعتراض روح وصمتها إلا أن دموع الجميع منعتها من الرفض فوافقت في النهاية على السفر و العلاج على مضض منها ففي النهاية هم من بقوا لها وإن كانت سعادتهم ببقائها حية فليكن هذا ، ولكن كان يجب علي أن أسافر معهم لأطمئن على كل شيء ، و قد أضطر أن أشارك في العملية أيضًا، ولكن الأمر الذي أوقفني و جعلني أتردد عن الذهاب هي شهد فعندما هاتفتني وأنفاسها كانت لاهثة متقطعة و صرخاتها المكتومة واضحة فقد كانت تعيش لحظات مؤلمة قاسية ، فكانت في المخاض حيث تلد ابني إبراهيم فصرخت تستنجد بي وقالت :

- أقصى أنا ألد...

- أنا بحاجة إليك..

- أين أنت يا أقصى ؟

- لا تتركني ..

- تعال إلي ..

- أنا أتألم .

و بعدها انقطع الخط و دوى صوت صراخها في أذني فشلت حـــركتي وسلب لبي، فوقفت عاجزًا أمامهم فهم يتطلعون إلي في خوف و ترقـــب، بينما أنا أتطلع بعجز و قله حيلة مني.

***

الفصل الثاني عشر
ولادة

مرت الثواني كالدقائق ، و الدقائق كالساعات ، و الساعات كالأيام ، و لكني لم أكن أملك غير الانتظار ، و الدعاء فبت أتخيل منظرهما معًا وأتصوره في عقلي ، فدائمًا ما كنت أشاهد في الأفلام و المسلسلات عندما تلد الزوجة و تكون في أصعب لحظاتها حيث تعاند الألم و تتحداه ليخرج طفلها و يصرخ صرخته للحياة ، و أثناء ذلك يشاركها الوالد هذا التعب بقلقه عليها وعلى طفلهما فيقطع الحجرة مجيئًا و ذهابًا ، و تضطرب روحه بالتفكير في تلك اللحظة التي سيخرج ابنهما فيها، و عندما ينقطع صوت صرخات الأم فتفسح المجال لصوت صرخة رضيعها الذي بصرخته يوقف دقات قلب أبيه فتحتل البسمة حياته ، و تنبسط أساريره . فعندما يأذن الطبيب له يدخل عليهما بشوق و حنين فيجد الصبي بين يدي أمه تحمله بالقرب من صدرها و تستند رأسها على رأسه و كأنهما اتحدا معًا ، فتغرغر عين الأب من منظرهما البهيج و تشتاق روحه إليهما فيجلس بجوارهما فيقبل الأم بين جبينها بحنان ، و يأخذ رضيعه بين أحضانه فينطق بشفتيه بسم الله و يمسكه و نفسه تحمل عاطفة جديدة لم يشهدها و يشعر بها إلا الآن ، فقد ولدت لتوها مع رضيعة وتلك هي عاطفة الأبوة التي غرزها الله في قلب الإنسان ، فيضمه إليه بقوة ترافقها اللين و الحب ، فيقربه من أنفه و يشم رائحته العطرة، ويقبل يديه الصغيرة الناعمة، ثم يلتفت إلى زوجته حيث ترقد في فراشها فيبتسم إليها بحب ثم يعود فينظر إلى ابنه الذي ينظر إليه هو الآخر متفحصًا وجهه محاولًا أن يتعرف عليه فيبتسم له و يكبر هامسًا في أذنه بكلمات جليلة عظيمة ..

تمنيت أن أكون بجانبهما حين تحين تلك اللحظة ، و أصنع ما يجب أن يصنع ، ابتسم متى يجب أن ابتسم ، أردت أن أضمهما بين أحضاني وأشبع

من رائحتهما ، و لكن ربما أنا لست مثل باقي الآباء فقد حملت أوزار من سبقني و صرت بها مقيدًا مغلولًا حتى أني لم أعد أعرف ما أريد ، فهل ما أفعل هو ما أريد ؟ أم بات ما أريد هو ما يجب أن أفعل ؟

ربما كان قرار روح هو المنقذ الوحيد لي من تلك الأزمة ، فكانت حقًّا أزمة وكأني كنت أقف على حبل رفيع دقيق وعلى كلا الجانبين يقف أحد من أحبابي فكان يجب علي أن اختار جهة واحدة لأني لن أستطيع أن أقف إلى الأبد فقد أسقط ، و في نفس الوقت صعب علي أن أختار أحدهما وأترك الآخر ، لأني باختيار واحد منهم يعني هذا أني سأتخلى عن الآخر فهذا الحبل ضعيف وسينقطع حتمًا وحينها ستختفي تلك الوسيلة التي ستنقلني للجهة الأخرى إلى الأبد ، ولكن روح مدت ذلك الحبل وثبتته وقوته حتى صار سلمًا متينًا فكان من السهل علي الذهاب هنا و هناك ، فبقرارها أن تعمل العملية في دبي حيث المستشفى التي أعمل بها و فر علي هذا قرار كان من الصعب اتخاذه ، و بعدما تأكدت من توافر جميع الأجهزة التي قد نحتاجها في إجراء العملية و بجانب موافقة الطبيب الأمريكي الشهير الذي رحب أن يأتي هو فريقه الطبي إلينا صار كل شيء على ما يرام .

و عندما أخبرت شهد أني في طريقي إليها و لن أتركها إلى الأبد صارت تبكي و كأنها أخيرًا سمحت لنفسها أن تعبر عن مشاعرها الدفينة التي كتمتها بداخلها لأجلي أنا حتى لا تثقل على نفسي فتحزني أكثر ، و لكن كل شيء قد انتهى الآن و نستطيع أخيراً أن نعيش كعائلة واحدة إلى الأبد بهدوء و سعادة . هكذا اعتقدت ... لا بل حلمت، و لم أدرك أني أخدع نفسي إلا عند النهاية فطلب السعادة الأبدية كمن الذي يطلب الخلود فهما أمران لا يتحققان مهما بذلنا لهما و مهما تمنيناهما ، و لكن رغم كل شيء وصلت إليهما واستطعت أن أشبع عيني من منظرهما وهما نائمان بجوار بعضهما في سعادة وهناء ، مرت الأيام و كأنها لحظات ملئت بالبهجة فكأني كنت أعيش قصة خيالية حيث السعادة الأبدية .

و عند الليل كان إبراهيم يبكي حيث هو في سريره يرقد ، يبدو أنه كان يريد حليب أمه فمازال صغيرًا ضعيفًا يستقوى من ذاك الحليب الذي فتح الله له السبيل من صدر أمه ، فتحمله وهي تضمه حينًا و تطعمه حينًا آخر ،صحيح أن معظم الآباء يضيقون ذرعًا من صراخ الأطفال الذي يثير الضجيج و يقضي على الصمت و الراحة التي يسعى إليها الرجل بعد يوم حافل بالعمل و الاجتهاد فيطلب من الأم التي لا تحتاج إلى طلب أن تقوم وترضع الصغير حتى يهدأ فيسكن و يسكن الجو معه فيعم الصمت ويستطيع الوالد أن ينعم ببعض ساعات من الراحة إلى أن يحين موعد الصباح فيذهب إلى عمله مودعًا الصغير و بداخله شوق للحظة التي يعود إليها إلى المترل فيلعب معه و يضمه إليه .

هذا هو حال كل الآباء أما أنا فلا ، فقد كنت اغتنم كل فرصة للبقاء مع ولدي إبراهيم ، و كان أكثر شيء يسرني عندما أجده على صدر أمه ترضعه فأجلس بجوارهما ساندًا شهد على صدري فتنام عليه بينما هي ترضع الصغير، فتربية الطفل ليست عمل الأم وحدها فيجب أن يشاركها الأب في كل الأمور مهما كانت مشاركته هذه بسيطة ، و إذا تركنا أمر ما يجب و ما لا يجب لباب الواجب ، وتركنا الحب و العاطفة هما من يتحدثان سينجم عن هذا أمور عظيمة و أفضلها هو البر الذي لا ينتج إلا من بر مقابل له فلا يجب أن تطلب من أحد ما لم تعطه ، و خصوصًا ولدك الذي سريعًا ما يكبر فيشبهك.

***

و أتى الصباح حاملًا معه بسمة جديدة و أملاً لروح أن تعيش و تسعد من حولها فتعطي لهم سببًا للحياة ، فخلال أسبوعين تبدد كل شيء فحديثي إلى روح ذكرني كثيرًا بفهد فكنت أحيانًا أنسى أني أتكلم معها هي ، فعلي رغم ما رأيته من ألم علي وجها إلا أن روحها كانت تحمل شقاوة

الأطفال و فطرتهم الطليقة الحرة التي لا تخشى القيود و لا تأخذ بأسباب الحياة و تدابيرها .

فكانت كطفلة عندما تبتسم ، و عندما تحلم ، و عندما تبحث ، فأول حديث دار بيننا في المستشفى كان عن الأمل في الشفاء و أن الحياة قد تبتدئ عندما يعتقد البعض أنها قد انتهت و ضربت لها أمثلة كثيرة و رغمًا عني ذكرت فهد و كيف كان يتمسك دائمًا بالأمل ؟ و عزيمته التي لم يستطع أن يهدمها أحد ، كنت أنا من يتحدث و هي من تنصت فلم تتحدث كثيرًا فكانت واجمة معظم الوقت ، و لكن عند لقائي الثاني بها تبدد كل شيء فقد اصطحبتها لعمل بعض الفحوصات اللازمة للعملية وحينها سألتني فجأة عن ابني إبراهيم فأخبرتها أنه بصحة جيدة و الحمد لله..

ابتسمت وهي تنظر إلي و قالت: لابد أنك تشتاق إليه كثيرًا فأنت لم تشبع منه بعد... أليس كذلك ؟

قلت لها : نعم ... كثيرًا.

قالت : أراهن أنك تريد الآن أن تأخذه بين أحضانك و تشم رائحته فتملأ نفسك منها، و لكنك لا تستطيع هذا فأنت معي و قد نذرت وقتك لي، آه كم يجعلني هذا آسفة يا أقصى فأشعر بأني أحول بينك و بين ولدك وزوجك.

كان كلامي واضحًا لها ونبرتي جادة فقلت لها الحقيقة فما كان عليها أن تحمل نفسها بهذا الأفكار فما أصنعه معها هو بري بقسمي الذي أقسمت عليه عندما امتهنت الطب ألا و هو أن أقدم يد العون لكل من يطلبها في أي بقعة من الأرض و مهما كان الأمل ضعيفًا فيجب أن نحاول مادام هناك نفس و مادام القلب يدق ...

صمت بعدها لدقائق ثم قلت لها و أنا أتذكر فهد:

- وهذا بالإضافة لمكانتك عند فهد فأقل شيء أستطيع أن أقدمه له هو الاعتناء بكِ فأرجوكِ لا تعودي لمثل هذا الكلام مرة أخرى.

شكرتني روح ووعدتني بما أريد، و بعدها حاولت أن تغير مجرى الحديث و تذهب الوجوم الذي كنت عليه فقالت متعجبة و كأنها تذكرت شيئًا لتوها:

- ابنك... !!

سألتها: ما به ..!!

قالت و هي تضحك: تصور لقد نسيت أن أسالك عن اسمه..! فأنا أتحدث عنه كل هذا الوقت و لا أعرف اسمه حتى الآن، أليس هذا عجيبًا ؟

ظلت تضحك بانطلاقة و ضحكت معها، و عندما علمت أني أسميته إبراهيم... لا أعلم بما شعرت و لكنها قالت:

- أراد فهد أن يسمي ابننا أيضًا بإبراهيم، فكان يحب هذا الاسم كثيرًا حبًّا لسيدنا إبراهيم عليه السلام.

- عليه السلام .. و أنا كذلك أحبه كثيرًا، و قلت بصوت خفيض أحدث نفسي: فأنا أردت ما أراده فهد.

لا أعلم إن كانت سمعتني و لكنها ابتسمت لي ابتسامة بسيطة، ثم قالت: لعله يذكرك بفهد، ثم أردفت بوجوم و لكني أتمنى ألا يكون له نفس مصيره... أعني أن يعيش سعيدًا مرتاح البال وسط أمه و أبيه.

- أتمنى هذا أيضًا .. فهذا ما يسعى إليه كل أب فيحلم أن يرى ابنه سعيدًا و ناجحًا.

- إذن هل هو يشبهك...! أم يشبه أمه ..!

- لا أعلم حقًّا فمازالت ملامحه غير واضحة بعد، و لكني أتمنى أن يأخذ ملامح أمه.

ضحكت ضحكة بريئة و قالت: يبدو أنك تحبها كثيرًا يا أقصى فهنيئًا لها. يجب أن أزوركم و أهنئكم بالولد ، فأتمنى أن أراها فأنت تعلم لم يكن لي إخوة و تمنيت كثيرًا أن يكون لي أخت أتحدث معها و أفضفض بما في صدري لها ، و أأتمنها على سري ، و أعتقد أني لن أجد أفضل من زوجتك يا أقصى .

- هذا شيء سيسعدها فشهد فلسطينية مثلك، وهي تحب دائمًا أن تتواجد بالقرب من أبناء شعبها فلا تمر مناسبة أو مقابلة تتحدث عن فلسطين إلا أن تكون موجودة فيها.

- حقًا ...!!

- نعم، و قد أخبرتها عنكِ كثيرًا، و لولا الولد كانت جاءت وزارتك، و لكنها ستجيء قريبًا.. هكذا أخبرتني .

- سأحب أن ألقاها بالتأكيد فلترسل إليها سلامي الحار.

- سأفعل، و لكن الآن يتوجب عليك الراحة قد جئت إليكِ ببعض الكتب حتى لا تشعري بالملل فقد أخبرني مصطفى أنكِ تحبين القراءة.

- نعم أحبها كثيرًا ... شكرًا لك يا أقصى على كل شيء .

هكذا مرت الأيام بيننا فكنا نتحدث و نتحاور في كل شيء و عن أي شيء، و كثيرًا ما كنت أتفادى الحديث عن فهد ليس نكرانًا لذكراه ونسيانًا مني له، بل هي الرغبة الحقيقة في بداية، بداية جديدة بدون ألم وبدون ماضٍ تؤرقنا أحداثه ، هكذا أردت لنفسي و لروح ، و لكن بعد ما حدث أيقنتُ أننا لا نستطيع أن نتخلص من ماضينا مهما حاولنا الهرب منه، لأننا إذا صنعنا هذا فإننا نقضي بهذا على مستقبلنا أيضًا ، فالإنسان الذي لا ماضي له لا مستقبل له.

ففي اليوم الذي سبق عملية روح قررت أن آخذها في رحلة قصيرة بداخل حديقة المستشفى لأرفع من معنوياتها فقلت لنفسي ربما جو الطبيعة يعطيها دافعًا للحياة فتتمسك بها فتحارب لأجلها حين تقدم هي نحو الموت، و اعتمدت أيضًا على جمال معمارية المستشفى التي كانت مبنية على الطراز الأندلسي الفريد و الذي مازالت آثاره قائمة إلى يومنا هذا فكانت المستشفى أشبه بقصر من قصور قرطبة أو غرناطة فجدرانها و أرضيتها كانتا مرصعتين بالرخام ، و كانت لوحات الفسيفساء في كل مكان ونقشت الآيات القرآنية على الجدران من الداخل برسم عثماني جميل ، وعند الحديقة تجد الجنان التي شملت كل أنواع و ألوان الورد و بينها كان النخيل قائمًا بطوله ليكمل الصورة البديعة ، و في المنتصف تقع أحواض تحتوي على نافورات مياه من الرخام و على كل حوض ماء وضع على حافته سواري تضاء ليلًا فتعطي منظرًا بهيجًا فتضيء ظلمة الليل المخيفة وتبعث سرورًا في النفس ، وهذا بالإضافة إلى مجرى الماء الذي حفر حول النافورات وكأنها أنهار تسير .

تعجبت روح من كل هذا الجمال ولامتني أني حجبته عنها فلم آتِ بها إلى هنا من قبل و قالت :

– « يا لروعة هذا المكان أشعر وكأني في إحدى قصور قرطبة التي طالما قرأت عنها في الكتب ووصفها الشعراء و الأدباء» .

و عندما همست لي برغبتها في النهوض أذنت لها وتركتها تبتعد عن الكرسي المتحرك فوقفت برشاقة وفتحت ذراعيها للهواء و أغمضت عينيها لتستشعر روعة هذا المكان .كانت تتأمل المكان و تمشي بخفة بين الورود فتقف عند كل وردة منهم و تشم رائحتها و تتأمل في جمالها وحسن صنعها، فسبحان الخالق الذي وهب لنا كل هذا الجمال و أخلفنا في الأرض و علمنا ما لم نكن نعلم ، و بعد تأمل طويل ذكرت لي فهد فقالت:

- كان فهد يحب الطبيعة كثيرًا، كان يحبها إلى درجة العشق.. فكان دائمًا يحب التنزه و السير وسط الأشجار و استنشاق رائحة الورود والأزهار، وكثيرًا كان يذهب لركوب البحر ، فكان يجد في الطبيعة سلوته وملاذه فدائمًا سعى إلى الظفر بهدوئها و النعم بسكينتها ، وكان دائمًا يصحبني معه فكنت رفيقة روحه التي تأبى أن تتخلى عنه ، و أحيانًا كان يأتي معنا مصطفى وأحيانًا أيضًا أمي و أبي ، و عندما كنا نجلس سويًا كان هو من يتحدث و كنت من يستمع فلم أكن أتحدث كثيرًا ليس لأني لا أملك ما أقول ، و لكني كنت أحب دائمًا الاستماع إلى صوته والتعلم منه فكان محبًا للقراءة مطلعًا على كل جديد و كان أسلوبه في رصد ما قرأ به من التشويق ما يجعلني في لهفة لمعرفة المزيد و المزيد منه ، و كان يحب الأرض و الزرع و الورد فكان يقدرها ، و كان أكثر حديثة يدور عنها فتلك الوردة اسمها كذا ، وذاك النخيل عمره كذا و يظل يتحدث هكذا حتى أني كنت أغار من اهتمامه و حبه الكبير لها ، تخيل كنت أغار منها .. أغار من جماد لا ينطق ولا يتحدث، و لكني لم أكن أريد أن يحتل أحد مكانة كبيرة في قلب فهد سواي أنا ، فعندما كان يستمر على هذا الحال كنت أغضب منه فأقطب جبيني و أتهمه بعدم حبه لي فبدلًا من أن يقول لي كلام الحب و الهوى يحدثني عن شجر و ورد... فيضحك بعد ما علم ما في نفسي، و يقول:

- أتغارين من الورود يا روح..!

فأهرب منه و أبتعد عنه فيلحقني إلى أن يمسك بي فأهرب بعيوني منه فيقدم لي الوردة التي كان يخبئها في يده ، و التي انتشر عبقها العطر الفواح في نفسي فيضعها بين خصلات شعري و يقول و عيناه تتطلعان إليّ بحب:

- لا يغار من الورد إلا الورد .

فأشعر بالخجل و أهرب منه، فيجري ورائي نستبق معًا و كان دائمًا هو من يسبقني مهما حاولت أن أجتهد لأسبقه فيصل قبلي و يكون قد جلس

بجوار شجرة زيتون يستريح، فأقدم عليه و أنا أعتزم أن أخفف من نشوة انتصاره حتى لا يتملكه الكبر علي و أقول له :

– ما هزمتني إلا لأنك رجل فعضلاتك قوية و نفسك أطول من نفسي فلو كنت رجلًا مثلك لكنت سبقتك بلا ريب.

فيضحك غير مبالٍ بنصره علي و يقول :

– إذا كنتِ رجلًا فهذا يعني أن النساء ستخسر أميرة جميلة مثلك، وسأخسر أنا زوجة لن يأتي بمثل عقلها و جمالها أحد.

و عندما أسمع هذا الكلام أشعر بالغبطة فأستسلم له، وكيف لأحد أن يقف أمام هذا الكلام المعسول ؟ فسريعًا ما أنسى غضبي عليه و أجري أجلس بجواره في سرور.

فيبدأ يحدثني عن حياتنا ويحكي لي عن أحلامه و مشاعره التي تلد مع كل لحظة حلمًا جديدًا ، فمرة يحلم أننا وسط الأمواج نقطع البحار والأنهار و نلف حول العالم نستكشف أسراره الخفية ، و مرة يخبرني برؤيته لي حيث أقف مع صويحباتي و نحن في سعادة نضحك نجمع حبات الزيتون الناضجة من الأغصان وقد عصبت رأسي بمنديل أحمر أهدانيه هو إياه فيكون واقفًا بعيدًا مختلس النظر إليّ من وراء تلك الشجرة الكبيرة التي جعلها ستارًا ..

وفجأة يتوقف عن رصد الأحلام و يحدثني عما يشعر به ويلج في صدره فيقف ينظر إلى شجرة الزيتون التي كان يستند عليها منذ قليل و ينطق بأبيات شعر:

تبدَّتْ لنا وسط الرُّصافةِ نخلةٌ ... تناءتْ بأرض الغربِ عن بلدِ النخلِ

فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بنيَّ وعن أهلي

نشأتِ بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلــك في الإقــصاء والمنتأى مثلي

سقتك غوادي المزن من صــوبها ... الــذي يــسحُّ ويــستمري السماكين بالوبل

ثم يحكي لي قصة صاحب الأبيات وكانت لعبد الرحمن الداخل والذي لقب ب " صقر قريش " ففي يوم كان أبو جعفر المنــصور جالــسًا مــع أصحابه مرةً فسألهم: أتدرون من هو صقر قريش؟

فقالوا له : هو أنت.

فقال لهم: لا.. فعدّدوا له أسماء حتى ذكروا له معاوية وعبد الملك بــن مروان من بني أمية.

فقال أيضًا: لا.

ثم أجابهم قائلا:« بل هو عبد الرحمن بن معاوية، دخل الأندلس منفردًا بنفسه، مؤيّدًا برأيه، مستصحبًا لعزمه، يعبر القفر ويركب البحر حتى دخل بلدًا أعجميًّا فمصّر الأمصار وجنّد الأجناد، وأقام ملكًا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة عزمه ».

و بعد هذا يكمل فهد و يقول :

– أجدني أشبهه كثيرًا يا روح ، أشبهه في كثير من المواضع فهو قد خرج هاربًا من بلده لينجو بحياته و كذلك أنا فعلت ، و لكنه رغم بعده عنها إلا إنها عاشت بداخله طول الوقت فكان دائمًا في شوق إليها حتى أنه جاء بنخلة من المشرق ليزرعها في رصافة الأندلس لتكون مؤنسه في غربته، بل لتكون شريكته في تلك الغربة ، فعاشا غريبين هناك معًا ، وكان مرآها يهيج في نفسه مشاعر الشوق و الحنين فيتذكر بلده ، وكذلك أنا فعلت أيضًا ، فتلك الشجرة التي تستندين عليها الآن يا روح ما هي إلا تلك الكرمة التي جلبتها معي من فلسطين عندما غادرناها هاربين . فأردت أن

أحتفظ بقطعة من بلدنا لتكون معي إلى الأبد و فتؤنس اشتياقي و لهفتي لرائحة تراب فلسطين ، ولكنها كانت تثير في من الحنين ما تثير فكلما أراها أجد نفسي تتألم فأحاول أن أخفف على نفسي ما أشعر فينطق لساني بأبيات الداخل وكأني أجد فيها بعض السلوى.

أردفت روح و دموعها تتساقط :

– و عندما ذهب فهد و سافر كنت أجد أنا في تلك الشجرة سلوتي أيضًا فكنت أشم فيها رائحة فهد و أجد معها حلمي الضائع فأتصور نفسي على أرضي ..هناك حيث اعتدت أن أهيم و ألعب كما كنت تمامًا و أنا صغيرة ، آه .... ألا يبدو هذا عجيبًا يا أقصى فما قد تقدمه إلينا الطبيعة يفوق الوصف فإنها فقط لا تهب لنا الجمال ، و لكنها تجعلنا نتمسك بالذكريات فتؤنسنا حينًا و تؤلمنا حينًا آخر ، و لكنها في النهاية تساعدنا على القدوم نحو الأمام مهما كانت الظروف سيئة و مؤلمة .

– نعم يا روح ... إنها كذلك ... فخلق الله يفوق الوصف!!

ابتسمت و هي تمسح دموعها و قالت:

– أشعر بالنشاط فشكرًا لك على هذه النزهة اللطيفة، و لكن يجب أن أعود لحجرتي الآن.

– هل تشعرين بالتعب ؟

– لا ... أنا بخير و لكن يجب أن أستريح فلدي غدًا يوم حافـــل... أليس كذلك ..!!

– نعم هو كذلك .

***

في الحجرة التي قد يبدأ منها كل شيء أو ينتهي منها كل شيء اجتمعنا، دخل طبيب التخدير ووضع القناع على وجه روح و ابتسم لها وقال لهـــا

أن تعد تنازليًا فتبدأ من رقم عشرة إلى أن تصل للواحد ، و عند رقم خمسة دخلت روح في سبات عميق و غابت عن الوعي فأخذ كل واحد منا موضعه و استعد الجميع لبدء العملية .

كان كل شيء يسير على ما يرام فلم يحدث أي تعقيدات ، و لكن كنت خائفًا أتابع كل خطوة يخطوها الطبيب الماهر و أنا في قلق فماذا إذا أخطأت يده و أصاب شريانًا و أدى هذا إلى نزيفها حتى الموت ، أو ماذا لو كان الورم أكبر مما كنا نتصور فحينها لن يزال إلا بموتها ...

ظلت تلك الأفكار تطاردني فقد كانت حياة روح لي تمثل لي شيئًا كبيرًا أكبر من أن أصفه ، فلم يعنِ إنقاذها أن أساعد الإنسانة التي أحبها فهد فقط ، و لكن بإنقاذي لحياتها كنت أنقذ حياة فهد ... أنقذ نفسي ، فلم تتح لي الفرصة أن أساعد فهد فقد نزف للموت أمام عيني ، و مات بين ذراعي ، و لكن شاءت الأقدار أن أقف في هذا الموقف مرة أخرى بفرصة جديدة ، و أخيرًا أستطيع أن أغير الواقع أو حتى أغير جزءًا منه ، و أن أنقذ روح التي هي جزء من فهد ... نعم فروح كانت جزءًا منه عاشت بداخله طوال الوقت ، و إن عاشت الآن فسيعيش فهد مرة أخرى ، وبذلك سيبتعد عني الألم و كوابيس الماضي و أبدأ بداية جديدة ، و تلك البداية لن تكون لي فقط بل ستكون للجميع وستعيد البسمة لعائلة روح فسيعرف أبوها و أمها و مصطفى الابتسام من جديد ، و بهذا سأتخلص من شعور الذنب هذا و سأتحرر منه و أعود كما كنت .

لذلك دعوت الله كثيرًا أن تعيش... أن تظل تتنفس ، و بذلت كل ما في وسعي لإنجاح هذه العملية فتحدثت طويلًا مع الدكتور الأمريكي و كان يدعى موسى ، و كنت أناقش معه طريقة إجراء العملية و كان يستمع لي مقدرًا قلقي ، وكان يؤكد لي دائمًا نجاح العملية ما لم تحدث أي تعقيدات ، فأقف عند كلمة تعقيدات و أبدأ أقلق فيقول لي :

– دكتور أقصى أنت تعلم تختلف طبيعة الجسم عن الآخر و أحيانا تحدث بعض الأمور غير متوقعة أثناء إجراء العملية و أنت تعلم ذلك جيدًا، و لكن لا تقلق فحالة روح احتمالية شفائها كبيرة، و قد أجريت عمليات لحالات أصعب منها و نجحت.

فأعيد عليه السؤال و كأنه لم يقل شيئًا فأساله و أنا أريد أن أحصل على بعض الطمأنينة:

– و لكن، ما هي احتمالية شفائها النهائية ؟

فينظر إلي و يقول:

– كبيرة، و لكن عليك فقط ألا تقلق.

هكذا قضيت الأيام التي سبقت تلك العملية بين أسئلتي التي لا تنتهي للطبيب ، و بين أحاديثي مع روح الغنية بذكريات الماضي ، فتلك الأيام كانت بالنسبة لي كتلك اللحظات التي تسبق ولادة طفل جديد ، و لكني لم أكن أنتظر أن يولد لي ولد أو بنت بل كنت أنتظر حياتي ، أنتظر نفسي التي اشتقت إليها ... أنتظرها أن تعود إلي كما كانت من قبل، و هذا كان أصعب كثيرًا.. فأن تنتظر حياة رأيتها تنبض من وراء الموجات فوق الصوتية شيء رائع، و لكن أن تنتظر حياة لمستها و أحببتها و عشت معها لحظات جميلة فهذه تشبه انتظار حدوث معجزة فما يمضي لا يعود ، ولكني انتظرت .. أتنتظر نفسي لتعود إلي فتعود معها تلك الحياة مرة أخرى من جديد.

بدأت العملية و قد مرور ساعة لم أتحدث فيها بشيء ، فكان الجميع منشغلًا بالتفاصيل فلم يتحدثوا هم أيضًا كثيرًا ، فالصوت الوحيد الذي كان موجودًا كان صوت موسيقى بيتهوفن التي طربت آذان الجميع فكانت يدا الدكتور موسي ترقص بداخل جسد روح على نغمات تلك

المقطوعة الرائعة مقطوعة " ضوء القمر " و لكن فجأة كسر هذا الصمت صوت تحدث بالعربية و العجيب كانت اللهجة أقرب للفلسطينية فقال :

- أقصى ... اسمك يبدو مألوفًا لي، أهناك تشابه بينه و بين المسجد الأقصى.

بحثت عن الصوت الذي كرر السؤال و عندما وجدته صعقت فقد كان دكتور موسى هو من سألني فقلت له و أنا أحاول استدراج صدمتي:

- لا ... نعم، ثم سألته باستغراب أتتحدث بالعربية.

قال لي متفاخرًا حيث ترك النظر إلى روح و توجه بالنظر إلى ما وراء نظارته.

- أنا أتحدث العربية و العبرية و الإنجليزية بطلاقة فقد عشت فترة لا بأس بها في القدس .

بدأ عقلي يدور و يفكر سريعًا فهو يقول إنه يتحدث العربية و العبرية، و عاش في القدس، ولكن ماذا لو كان... ؟

... لا مستحيل، مستحيل فهو مقيم في أمريكا ، و يعيش في شيكاغو ، و لكن اسمه موسى، و ماذا يعني هذا ؟ فموسى اسم لا يدل على شيء، و لكن ماذا لو كان ...... لا لو كان هذا حقًا ، نظرت إلى روح في هلع و دون رغبة مني صرخت عليه :

- توووووقف .

تسمر كل من في الحجرة و نظر إلي الجميع بشك و استغراب فماذا أفعل ؟ لماذا أصرخ هكذا و نحن وسط عملية خطيرة ؟ كان العرق يتصبب مني، و لم أجد ما أقول حتى أفسر موقفي فحاولت أن أنقذ نفسي من هذا المأزق و قلت:

– آسف، و لكن تخيلت يدك... آسف حقًا.

قال لي :

– يبدر أنك متعب يا دكتور أقصى، قد تخرج لتمتريح بعض الوقت ثم تعود فنحن لا نحتاجك الآن.

لم أكن أريد الذهاب و ترك روح وحيدة معه، ولكن تلك كانت الوسيلة الوحيدة لإنقاذي من هذا الموقف العصيب فقلت له و أنا أنزع القفازات من يدي:

– معك حق ، سأذهب لاستنشاق بعض الهواء .

أومأ برأسه و عاد الجميع للعمل فخرجت مسرعًا و كانت عائلة روح بالخارج تنتظر في قلق أي أخبار ، و عندما رأوني و الفزع على وجهي خافوا وجرى مصطفى إلي يسألني هل أصاب روح مكروه ؟ هل فشلت العملية ؟

– كل شيء على ما يرام يا مصطفى لا تقلقوا يا جماعة روح بخير والعملية تسير كما خططنا لها، و لكني خرجت فقط ... خرجت لأجلب شيئًا نسيته.

اطمأن الجميع و عادوا إلى مقاعدهم بينما كنت أهرول إلى مكتب الاستقبال أسأل عن بيانات الطاقم الطبي الذي قدم منذ أسبوعين وعندما أخبروني أن أصعد إلى الحجرة التي في الدور الثاني و أسأل أستاذ علي المسئول هناك ، صعدت أجري حتى وصلت ، و بعد أن شرحت للرجل عن احتياجي لبعض البيانات لنقص في دفتر العملية أعطاني الملف رغم عدم اقتناعه بكلامي و لكنه رغم هذا أعطاني إياه . فبحثت عن بيانات الدكتور موسى، و لكن المفاجأة أني لم أجد أحدًا باسم موسى مما جعلني أشك أكثر فعندما سألته عن اسمه قال لي أن اسمه موسى ، فلماذا لا أجده هنا ؟.. فسألت أستاذ علي:

- أين هي أوراق الدكتور المسئول عن الطاقم الطبي ؟

أخذ الأوراق من يدي و بعد ثواني أخرج لي ورقة فكان الاسم المكتوب ليس موسى بل كان (ديفيد شمعون موسى) .

سقط الملف من يدي من الصدمة ، وخرجت أجري إلى حجرة العمليات و قد طرأ على عقلي ملايين المخاوف ، و الكثير من الأسئلة فهو يبدو أنه يهودي .. فماذا لو .... ؟ ... ماذا لو قتلها ...؟ ... يا الله ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت ؟ ... اشتعلت نفسي خوفًا و امتلأت بالذنب فشعرت أني سلمت روح لقاتلها فأكيد أنه يعلم أنها فلسطينية ، فماذا لو ...؟

صعدت و كان قلبي ينبض سريعًا بخوف و اضطراب ، و عقلي كان يدور في دوامة وكأني سأفقد الوعي بعد قليل، و لكن كان علي أن أخفي هذا الخوف و أركز في تلك اللحظات القادمة و التي كانت لحظات فاصلة في حياتي فقد تكون بداية لولادة حياة جديدة للجميع ، أو قد تكون هي النهاية لكل شيء جميل .

لذلك كان يجب علي أن أسرع و أعود و لكن ليس بهذا الوجه الخائف المضطرب الذي يجهل ماذا يفعل فكان يجب أن أجد أقصى القوي الذي كان دائمًا يتحدى الجميع فيقف ثابتًا مهما كان يتألم، كان يجب أن أعود أنا... كان يجب أن أجد نفسي حتى أنقذ روح، كان يجب أن أتذكر من أنا في النهاية.

لذلك بقوة دخلت إلى حجرة التعقيم و بدأت أغتسل سريعًا حتى أعود و أدخل حجرة العمليات فوضعت القناع الأبيض علي وجهي الذي أخفى ما أحمله من اضطراب أخفى شخصية أقصى الخائفة الحزينة اليائسة ، فعندما عدت إلى مكاني كنت بوجه آخر فكنت أحمل هذا الوجه الذي تطلع إليه فهد في يوم ما و كان يبتسم ، فكنت أبتسم و أنظر إلى الجميع فتطلع إلي الدكتور موسى أو ديفيد، و قال لي و كأنه لم يتوقع عودتي :

- قد عدت ... هل تشعر بتحسن ؟

- نعم ... أنا أفضل بكثير، كيف صارت العملية إلى الآن ؟

- كل شيء رائع حتى الآن .

قلت لنفسي هامسًا: أتمنى أن يظل هذا إلى النهاية.

- ستحتاج لفترة نقاهة طويلة بعد عملية كهـذا، و ستحتاج إلى رعاية كبيرة، أعلم أنك صديق للعائلة يا دكتور أقصى أليس كذلك...؟

- نعم، فهي زوجة أخي.

- حقًا ...!! لم أعلم أن لك أخًا ، فأين هو إذن لم أره منذ جئت إلى هنا ؟ سأحب أن أتعرف عليه بالتأكيد.

- للأسف لن تستطيع أن تراه فقد سافر بعيدًا، و لن يأتي الآن.

- كان يجب أن يؤجل سفره هذا ، فزوجته ستحتاجه كثيرًا بعد أن تفيق فأنت تعلم التضامن النفسي مهم في مثل هذه الحالات .

اعتراني الغضب فكنت أريد أن أصرخ فيه بكل قوة، و أقول له إنكم من قتلتموه وأبعدتموه عن زوجته و سلبتم منه أرضه، و لكني سيطرت على نفسي و منعتها، و مثل الأبله ابتسمت له و صمت.

مرت الدقائق باردة، و كنت أراقب يديه الماهرتين... البارعتين، و هما تسلكان برشاقة وسط الورم فيستأصلانه، و لكن فجأة اختفت تلك الصورة من أمامي وظهر سيل من الدماء.

فاضطرب الجميع و ازدادت الحركة و صرخ الدكتور موسى :

- اللعنة... هي تنزف، أحتاج لامتصاص هذا الدماء حالًا فأنا لا أرى شيئًا هنا.

- قد انخفض ضغط دمها يا دكتور...

و بعد ثوانٍ صرخت الممرضة و قالت:

- دكتور قد توقف قلبها ...

- ستحتاج لصدمة كهربائية حالًا ، اشحني لي ٢٠٠ ، استعدوا ...

وضعوها على صدر روح فجرت الكهرباء في جسدها مجرى الدم فانتفضت نفضة قوية حتى رجعت صامتة مرة أخرى.

صرخ الدكتور : اشحني لي ٣٠٠ .

و لكن لم يحدث أي تغيير فكان قلب روح مازال متوقفًا ليس راغبًا بالحياة، صرخت الممرضة وكأنها تنبهنا وقالت:

- نحن نفقدها.

لم يحفل الدكتور موسى بما يدور حوله فكنا نعيش لحظة تفصل بين الحياة و الموت و لكن كان بداخله عزم كبير و قرر عدم التخلي عنها فشحن جهاز الصدمات ٣٥٠ ، و بعد عدد من صدمات كهربائية عاد قلب روح للعمل من جديد بعد أن اعتقدنا أننا فقدناها للأبد ، بعد أن اعتقدت أني فقدتها .

انتهت العملية و كانت روح مازالت تتنفس ، كانت مازالت على قيد الحياة فشعرت أن فهد عاد من جديد فشعرت بسعادة كبيرة و ابتسم وجهي بصدق دون خداع وكأن حملًا كبيرًا انزاح عني . أردت أن أتأكد أن كل هذا واقع فصفقت لأنبه نفسي، فصفق الجميع للدكتور موسى لتهنئته بهذا النجاح المبهر الذي صنعه.

و بعد أن وضعنا روح في حجرة العناية المركزة ذهبنا للتحدث مع عائلة روح. ما حدث جعلني مشوشًا فمنذ لحظات قليلة كنت أكره هذا الرجل بشدة، فكنت غاضبًا منه لدرجة أني أردت أن أخنقه بيدي و أقضي عليه، و لكن الآن أشعر بشعور مختلف تمامًا... مختلف كل الاختلاف ، فقد

ذهب عني هذا الغضب الذي اعتراني و لم يبقَ في نفسي سوى شيء واحد إلا و هو الامتنان ، الامتنان له فقد أردت أن أشكره على صنيعه فهو من أنقذ روح من الموت ، و لم يتخلَّ عنها حين يئس الجميع حتى أنا ، فـــدافع عنها و نطق بلسانها، و اتحدت إرادته مع إرادتها حتى عادت من جديد .

وبعد أن اطمأننا عليها سرنا معًا أنا و هو إلى عائلـــة روح لنبـــشرهم بالأخبار السعيدة ، وإعطاء لهم بعض التعليمات و الإرشـــادات الخاصـــة بالعناية بها ، و قبل أن نصل إليهم وجدت نفسي أســـتوقفه فـــأردت أن أشكره بدون أن يراني أحد فقلت له :

- قد أديت اليوم عملًا عظيمًا يا دكتور موسى ، أريد أن أهنئـــك بشدة ، و أن أشكرك .

التفت إلي بفخر و قال :

- لا بأس فقد بذلت كل ما في وسعي، و لكـــن روح هـــي مـــن ساعدتني فكانت إرادتها و رغبتها في الحياة قوية فهي محاربة فظلت تحارب لآخر لحظة.

- و لكنك أنت من أنقذت حياتها، فأردت فقط أن أشكرك.

- قد أديت واجبي كطبيب ليس إلا، و أنا ما كنت إلا وسيلة فقد ساقني القدر أن أكون سببًا في نجاتها ، و لكن الحياة في يدي الله وحده .

تعجبت من قوله و زاد هذا من شعوري بالذنب اتجاهه فقد أسأت الظن به و اتهمته بجريمة لم يفعلها لمجرد أني اشتبهت بـــه ، فـــشعرت بـــضرورة الاعتذار له ، و لكن ماذا أقول له ؟ ... و حتى إن اعتذرت سيسألني عن السبب. فوقفت في تردد لا أعلم ماذا أقول ؟ فشعر هو بذلك و قال :

- هل من خطب ؟

عزمت أن أقول له الصدق ، وأن وضعني هذا في موقف سيء و لكن هو يستحق فصارحته و قلت له و أنا مهتز :

- آسف...

تعجب مني كما توقعت و سألني :

- على ماذا ؟

فقلت له : قد أسأت الظن بك ، و ......!! أعني أخبرتني أن اسمك موسى ، و ....!

لم يصنع شيئًا ، و لكنه ابتسم و قال:

- شعرت بهذا ففي غرفة العمليات عندما حدثتك بالعربية وأخبرتك أني أتحدث العبرية تغير لون وجهك و خفت ربما هذا جعلك تصرخ علي لأتوقف.

قلت له : بلى ..

قال : لا بأس .. أتفهم موقفك .

قلت له : و لكن ما حدث أثبت عكس هذا ، أعني قد أنقذتها فعلًا .. فشكرًا لك يا دكتور موسى.

قال وهو يمد يده لي :

- لا شكر على واجب ، و تستطيع أن تناديني ديفيد .. فاسمي (ديفيد شمعون موسى) فموسى هو اسم جدي ، و نعم أنا يهودي ، يهودي أمريكي إسرائيلي الجنسية.

فتحت فمي على مصراعيه من الصدمة و تحول لون وجهي ، و ثبت قدمي على الأرض بعجز، ووقفت و لم أتحرك أو أنطق بكلمة، فلم أتوقع أن أمر بموقف كهذا فدائمًا كان يدور في خيالي شيء واحد و هو الثأر من

أي إسرائيلي أمحه أو يمر علي و لكن هذا الواقف أمامي ليس فقط يقف هكذا ، و لكن كانت يده ممتدة لي تريد مصافحتي أنا ، ارتبكت ودارت في عقلي الكثير و الكثير من الأفكار ، وعصفت نفسي بكثير من المشاعر المتضاربة فحينًا أردت أن أمد يدي له و أنسى هويته و أفكر فقط بأنه الإنسان الذي ساعد روح و أنقذ حياتها و أخرجها من تلك الحالة ، و حينًا آخر كنت أفكر كيف لي أن أصافح يدًا قتلت و شردت شعبًا بأكمله ؟ ... كيف لي أن ألمس اليد التي كانت سببًا في قتل فهد و الملايين غيره ؟

صحيح هو فرد و لكنه بالنسبة لي يعكس شعبه، و لكن (وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا) فماذا يجب علي أن أفعل هل أرد عليه تحيته أو أمد يدي و أصافحه ؟

وجدت يدي تمتد له و تصافح يده، و لكني أردت أن أبرر لنفسي و له سبب مصافحتي له فقلت بنبرة مختلف غير النبرة التي كنت أحدثه بها منذ قليل :

- أنه لشرف لي أن أصافح طبيبًا نذر نفسه لإنقاذ الإنسانية وأعاد الأمل لهم، و لكن... ربما إن كنا أنا و أنت في مكان آخر، و موقف آخر سأجد نفسي كارهًا لتلك المصافحة.. و ربما أعتقد أنك تعلم السبب وراء هذا.

هز رأسه و قال :

- صحيح أعلم جيدًا يا أقصى السبب، و لكني جئت إلى هنا كطبيب و سأذهب من هنا كطبيب أيضًا، و أتمنى أن أكون في يوم ما صديقًا .

- صديق... ألا ترى أنك تطلب شيئًا صعبًا ، فأنت تعلم أنه شيء مستحيل ، و ....!!

- و ما جعله مستحيلًا .. ؟

قلت له و أنا أحدق في عينيه :

– كيف للأعداء أن يكونوا يومًا ما أصدقاء ؟ ألا ترى أنه شيء مستحيل .

– لا ليس مستحيلًا فقد يكون صديق اليوم عدو الغد، أو يكون عدو اليوم صديق الغد، تلك هي أحوال الدنيا و السياسة و من يقول لك عكس ذلك فيكون قد خدعك، و في الأساس من جعلني عدوك، فلماذا تحكم علي بهذا الحكم القاسي من دون أن تسمع مني و تنظر إلى أفعالي، وترى وجهة نظري، فأنت منذ دقائق كنت تشكرني، و الآن بعد أن علمت أني أحمل الجنسية الإسرائيلية أكون عدوك، فكيف يعقل هذا ؟

قلت له بهدوء :

– أرجو أن تعذرني فالجنسية الإسرائيلية التي تحملها ليست كمثل البقية... فتلك الجنسية حصلتم عليها بالكذب و الخداع و التلاعب ، فأحرقتم و قتلتم و دمرتم شعبًا بأكمله، و أخذتم أرضًا ليست لكم فسلبتموها من أهلها و طردتموهم شر طردة ، و حتى لم تتركوهم يحيون بل سعيتم وراءهم و قتلتموهم بدم بارد ، فتلك الجنسية التي تحملها ما هي إلا وصمة عار فهي ملوثة بالدماء ، و مهما حاولت أو حاول أحد منكم أن ينظف تلك الدماء فلن يستطيع .

– و لكن ليس لأني أحملها يجب أن أكون مثلهم، فلماذا تحملني هذا الذنب و تلوث يدي به ؟ ... فليس كل إرهابي مسلمًا ، و ليس كل مسلم إرهابي .

شعرت بالغضب يعتريني و صرخت فيه:

– عم تتحدث ؟ فمن تقصد بكلامك هذا ؟

فقال لي و قد احتدت نظرته :

– إذا أردت أن تعتبرني مجرمًا فلا بأس من ذلك، و لكن أنا بدوري يجب أن أعتبرك إرهابيًا، صحيح أن قومي قتلوا و شردوا الكثير و الكثير فلا أستطيع أن أقول أنهم أبرياء ، و لكن انظر إلى الأعمال الإرهابية التي صنعها العالم الإسلامي ألم يكن تفجير برج التجارة العالمي و غيره عملًا إرهابيًا يكرهه الله و رسوله ألم يقتل أبرياء يا أقصى و يقضي عليهم ، فما الفرق إذن فهناك دم مسفوك و لا ذنب لأصحابه إلا أنهم كانوا هناك حين وقع الحدث ، فنحن معًا ضحايا لظلم إخواننا .. ضحايا لذلك الصراع الذي جعل منا أعداء بدون حتى أن نعرف بعضنا البعض. لذلك لا تجعل غضبك يعمي بصيرتك و يوقف عقلك عن التفكير، فتوقف عن أن تحكم أحكامًا مطلقة هكذا.

وقفت أدافع عن نفسي :

– أنا لا أحكم أحكامًا مطلقة، و ليس هناك بيننا تشابه و لو صغير، فهؤلاء الذين تتحدث عنهم و الذي تقول عنهم أنهم إرهابيون نحن نطلق عليهم أيضًا متطرفين صحيح هم يعتقدون بأفعالهم هذه أنهم يجاهدون في سبيل الله ، و لكن تستطيع أن تسأل أي مسلم في أي دولة في العالم عنهم سيستنكر فعلتهم و إن أتيحت له الفرصة سيحاربهم و يوقفهم ، و إذا أردت أن تتأكد يمكنك أن تذهب لعائلة روح و تسألهم، و لكنهم لن يستمعوا إليك هل تعرف لماذا ؟ ... لأنهم طردوا و شردوا حتى تقام دولتك، قد قتل ابنهم على يد بني جنسك و فقدوا كل عزيز و غالي بسبب أن تحصل على تلك الجنسية ، فأنتم شعبًا و حكومة تسعون إلى القضاء على الشعب الفلسطيني، و القضاء على كل عربي فأنتم تريدون أن تكونوا سادة الدنيا و نحن عبيدها .

ازداد غضبي و لم أستطع التحمل، فالذكريات كثيرة و مؤلمة، فحاولت أن أتمالك نفسي و لكني فشلت فقلت له:

– لقد دمرتمونا، و قضيتم علينا، و الآن تقول أنه لا ذنب لك.

صمت، و لم يتحدث وقد لمحت نظرة حزن في عينيه، و لكني لم أتعاطف معه فكنت بداخلي مازلت ألومه، و لكني فكرت في عائلـــة روح الـــتي تنتظرنا في قلق فتمالكت و قلت له:

- لن ينفع الحديث بشيء الآن، فربما يجب أن نذهب لهم أولًا لنبلغهم بنتائج العملية فهم ينتظرونا، و ربما قد نتحدث لاحقًا.

لم يعترض و أومأ لي بالإيجاب فربما علم أنه لا فائدة من الحديث الآن ، و بعدها أكملنا الطريق القصير في صمت ، و عندما وصلنا كانوا ينتظرونا

وقف موسى أو ديفيد مبتسمًا يشرح لهم وضع روح و كانت وجوههم تبسط أكثر فأكثر كلما تحدث فقد استطاعوا أن يطمئنوا أخيرًا ، و لكن ماذا لو عرفوا أن من أنقذ بنتهم هو من قتل زوجها أستكون ابتـــسامتهم هذه موجودة .

***

الفصل الثالث عشر

بروتوكولات حكماء صهيون

كان لابد من الحوار فلا يوجد منه مفر ، و على الرغم أنه يبدو قاسيًا و صعبًا إلا أنه يكمن فيه الحل الذي أبحث عنه و يبحث عنه الجميع ، ولكن رغم ذلك فهم لا يريدونه وهذا شيء مؤسف ، فالكل يطالب بحل لتلك المشكلة و لكن في نفس الوقت يقذفون بالمسئولية على أشخاص غيرهم فيقولون أو يبررون بأنه من المفترض أن يفعل هذا الشخص أو تلك الجهة ما كان يجب أن يفعل ، و في نفس الوقت تدعي تلك الجهة أن هذا ليس من اختصاصها و أن هناك جهة جديدة هي من كان يجب عليها أن تفعل هذا ، و هلم جرااااااا فيبقى الحال كما هو عليه و تبقى تلك المشكلة قائمة بدون حل ، و الشيء المضحك أن الجميع يعتقدون أنهم على صواب و أن من أوجد تلك المشكلة هم الآخرون ويحملوهم مسئولية ما حدث ، و ما سيحدث .

و في بحثي عن بداية لهذا الحوار الذي أؤمن أنه سيأتي بالحل سألت نفسي و أنا أفتش عن جواب حقيقي بداخلي:

– هلِ أعلم أين هي البداية...؟ ... و هل فكرت يومًا فيها جيدًا، و احتلت جزءًا من عقلي فبحثت عنها بدلًا من أن أبحث عن تلك النهاية.. ؟ ... هل بعد أن تذكرها جيدًا استطعت أن أجدها أخيرًا... ؟

وجدت نفسي تجيب :

– لا .. فقالت مع الأسف لا لم أكتشفها، و لم يكتشفها أحد غيري بعد، و هذا لماذا... ؟ لماذا ... ؟ ربما هي لغز، بل لأنها صارت لغزًا يجهله الكثيرون على الرغم من أنه قد يكون واضحًا للجميع.

فعادت نفسي تسألني ثانيةٍ :

- وهذا لماذا...؟

فقلت و أنا أنظر لمن حولي:

- أفلا ترى أنهم لم يعودوا يعرفون أين هم.. ؟ ألا أترى أنهم ضاعوا في وسط عتمة الأحداث و صار أملهم الوحيد فقط هو إيجاد بصيص من الضوء فيجدون معه طريقًا للنجاة و العيش.

فسألتني نفسي مرة أخيرة :

- إذن كيف لك أن تجد البداية...!!

أغمضت عيني و أنا أستشعر خيوطها، فكان أول خيط ألمسه هو تلك الحجرة التي دخلتها فوقفت فيها أراقب روح وهي نائمة في سلام على سريها حيث جسدها أصبح متعلقًا بأجهزة تحيطها من كل جانب فمنهم من يساعدها على التنفس و منهم من يقيس نبض قلبها و أخرى تمدها بالسوائل ، فقلت لنفسي :

- لماذا أنا أقف هنا ؟

و عندما نطق لساني بتلك الكلمات التي كانت أشبه بكلمات سحرية فتح بابًا في رأسي ، وعندما سمحت لنفسي بالدخول فيه عادت الأحداث تجري في عقلي كما يجب لها فذكرتني بما قد مضى فرأيت أمي من جديد تقف أمامي و يداها ممدودتان إلي تريدان أن تحتضناني فأمسكتهما و قبلتهما ، ثم جاء صوت من بعيد ينادي فقالت لي أمي أن هذا الصوت صوت أبي فهو يناديني لكي أتبعه فنظرت إلى أمي لكي أسألها هل يجب أن أتبعه ؟ فأومأت برأسها و ابتسمت لي وكأنها تودعني ، فتركتها و تبعته على الرغم من أني لم أره ، و عندما توقف الصوت و اختفى ظهر لي شخص آخر من بعيد كان وجهًا يبتسم فكلما كنت اقترب منه كنت أتذكره أكثر حتى وصلت إليه فعرفت من هو فصرخت عليه غير مصدق عيني عمر ... إنك عمر فتبسم ضاحكًا لي كما كان يفعل دائمًا ، و لكنه بعدها تحرك وذهب،

فمشيت في أثره و لكنه كان قد اختفى هو الآخر، فوقفت في حيرة من أمري لا أعلم أين أنا و إلى أين يجب أن أذهب ، و لكن لم تطل حيرتي فظهرت لي فجأة شجرة من لا مكان فجريت إليها وأنا التمس طريقًا للنجاة فعندما وصلت كان فهد هناك جالسًا يرسم على حبات الرمال ذاك المسجد و هذا الرجل ، فرأيت نفسي على حبات الرمال تتطلع إلي و أنا واقف مندهش فقلت لفهد انظر .. انظر إنه أنا ، فنظر إلي و ابتسم.

نعم أنا هنا لأني يجب أن أكون هنا، فتلك هي حياتي فلم أصنعها بقدر ما هي صنعتني ، فإن عدت إلى البداية سأسير على نفس الخطوات لأصل إلى تلك النهاية ، سأصل هنا إلى تلك الحجرة و أقف حيث أقف أنا الآن أتطلع إلى روح و أتمنى لها الشفاء ، و لكن بعد أن لمست هذا الخيط الأول وفهمته ، وعرفت أنه هذا الواقع الذي صنعناه و صنعنا ، فكان لابد لي أن أمسك لجام الخيط الثاني فأحكمه و أجعله يسير معي على الخطى التي يجب أن يسير عليها لذلك كان لابد من الحوار فإنه الخيط الذي سيغير كل شيء فهو من يتحكم بما هو آتٍ فبناء عليه ستسير باقي الخطوط .

لذلك جمعت عزيمتي و اتجهت ألتمس طريقي نحو موسى أو ديفيد محاولًا أن أتخلى عن نظرة اتهامي له متيقنًا من شيء واحد فقط أنه طريقي الوحيد لإيجاد حل ، لذلك عندما وقفت و طرقت على بابه لم أكن أعتبره صديقًا أو عدوًا بل اعتبرته إنسانًا ، إنسانًا أتعرف عليه لأول مرة فوضعت كل أحقادي وغضبي جانبًا و سمحت لنفسي أن أدخل إلى عالمه و أنظر إليه بحيادية فأجد نقطة حوار مشتركة بيني و بينه فعندما أجدها سأجعل هذا الحوار يبدأ فأجد معه الحل .

***

مرت نصف ساعة و لم يتحدث أحد منا كنا فقط نختلس النظر إلى بعضنا البعض في خفية فعندما كانت تلتقي أعيننا كنا نهرب سريعًا و نلتفت ندعي النظر إلى شيء آخر فارين بهذا من الحديث، اعتقدت أن شجاعتي

ستكون كفيلة لبدء هذا الحوار المنتظر و لكني كنت على خطـأ فعنـدما جلست على موضعي هذا تبدد كل شيء و عاد إلي التردد و الخوف من أن تثور مشاعري و تفرط فأفشل في السيطرة عليها فتضيع تلك البدايـة التي أبحث عنها ، و لكن كان يبدو أن ديفيد أشجع مـني فكـان يملـك شجاعة مختلفة عني ، شجاعة اعتادت أن تواجه رغم الصعوبات ربما ذلك لأنه اعتاد أن يهاجم دائمًا ، فقال بعد أن ضغط أصابعه علـى النظـارة الطبية:

– لا أعلم السبب، و لكني كنت أشعر أنك ستعود.

قطبت جبيني و قلت له بعصبية حاولت إخفاءها:

– و من أين لك بهذا الشعور ؟

قال بعد أن ابتسم ابتسامة خفيفة:

– ربما لأننا رغم كل شيء نشبه بعضنا كثيرًا ، فنحن رغم اختلاف لغتنا و جنسيتنا و ديانتنا غايتنا واحدة فنحن نبحث وسط أطلال الحـرب على طريق يؤدي إلى سلام ... يؤدي إلى أمل ، نبحث عنه متحملين كل الآلام .

قلت له و أنا منكر نبرة الاعتزاز التي كان يتحدث بها :

– السلام... يا لها من كلمة جميلة فوقعها على النفس يبعث راحـة وطمأنينة هائلة ، و لكن هذا السلام الذي أبحث عنه ، و الذي تتحـدث أنت عنه يأتي دائمًا بعد أن يجلس الطرفان معًا على منضدة الحوار تلـك المنضدة التي لا يهم فيها من الغالب و من المغلوب فما يهم هـو أن تـرد الحقوق إلى أصحابها و يرضى الجميع بكافة الشروط التي لا تتعدى علـى حقوق الغير ،فلا سلام بدون أن يتحقق العدل ، فلو حدث هذا الـسلام على تلك القواعد العادلة سيكون خيرًا و نهضة للجميع و سيبدأ بناء مجتمع سليم النشأة متين القواعد ، و لكن إن بني على عكس ذلك فسريعًا مـا

سيتبدد و يدمر ويضيع ، و سيأتي معه بحرب لا قبل للطرفين بها ، قد تؤدي إلى بداية نهاية الكون .

لم يجبني بشيء بل نهض فقط عن مقعده و قد وضع يده في جيب سرواله و ضم فمه بحيرة، و بعد أن مرت لحظات قليلة وهو صامت يفكر قال لي :

– إن كنت تتحدث عن السلام كتجربة فنحن نعيشها بالفعل فقد مرت عليها أكثر من ثلاثين عامًا ، أم نسيت اتفاقية كامب ديفيد يا أقصى ، و إن كنت تتحدث عن تحقيق العدل .. فإنه قد تحقق هو الآخر ، وقد عادت إليكم الأرض و انتهت الحرب بيننا ، وقد رضي جميع الأطراف بهذا لذلك وقعوا تلك الاتفاقية فلم يجبرهم أحد على هذا بل كانت مبادرة من الجميع ، و قد توج هذا السلام بأخذ الرئيس الراحل أنور السادات جائزة نوبل فأصبح رجل الحرب و السلم معًا ، فقد انتصر في الحرب و السلم . أما إن كنت تتحدث عن فلسطين فهذا أمر آخر.

سألته و أنا أريد أن أؤكد له العكس :

– و ما يجعلها أمرًا آخر فهي جزء من أرضنا... جزء من عروبتنا ولن نتخلى عنها .

قال و هو يحدق في عيني بتحدٍّ ، و كانت نظرته مليئة بالاتهام:

– و لكنكم تخليتم عنها بالفعل يا أقصى، فقد كنتم أول دولة صافحت أيديهم، و كنتم أول من اعترف بوجود دولة إسرائيل، و كنتم أول دولة سنت أسلوب المفاوضات و التي يعادلها كلمة أسلوب التنازلات، ولن أقول أكثر مما قاله الشاعر العراقي أحمد مطر فيكم :

الثور فر من حظيرة البقر، الثور فر ،

فثارت العجول في الحظيرة ،

تبكي فرار قائد المسيرة،
وشكلت على الأثر ،
محكمة ومؤتمر،
فقائل قال: قضاء وقدر،
وقائل: لقد كفر
وقائل : إلى سقر ،
وبعضهم قال امنحوه فرصة أخيرة ،
لعله يعود للحظيرة ؛
وفي ختام المؤتمر ،
تقاسموا مربطه، وجمدوا شعيره
وبعد عام وقعت حادثة مثيرة
لم يرجع الثور، ولكن ذهبت وراءه الحظيرة

أنتم من تخليتم عن عروبتكم يا أقصى في بادئ الأمر، فقد اعتقد السادات أنه سيكون الرابح من تلك المعاهدة ، و أنه سيعيد الأرض بدون حرب و لا أنكر أنه أراد أن يجد حلًا للقضية الفلسطينية و أن يقيم دولتها و عاصمتها القدس، و لكنه لم يكن يدرك أنه أوقع نفسه في شرك الصياد فحين ذهب إلى الكنيست الإسرائيلي كان ذلك أول خطواته للوقوع فيه ، فبدأ يسلك الطريق خطوة بعد خطوة ، و للأسف مع كل خطوة كان يتخلى عن حق من حقوقكم ، و حلم من أحلامكم ... كان يتخلى عن عروبتكم أنتم يا أقصى ، يتخلى عنها رويدًا ... رويدًا . حتى جاء اليوم الذي مد يده و تشابكت معهم ، فصار شريكهم في كل شيء ... في الدمار و الخراب و الدم الذي حل على شقائقكم العرب ، لذلك إن

أردت أن تناقش و تبحث عن الأسباب التي مزقت و أضاعت الهوية الفلسطينية ، و الروابط العربية فيجب أن تبدأ أولًا بالحديث معه ... الحديث مع رؤسائك فاذهب إليهم و اسألهم... حاكمهم.. كما تحب .

توقف للحظات ثم اقترب مني أكثر و عندما صار أمامي بالضبط نظر إلي و بعينه لمعة خبيثة و قال:

- و لكن للأسف لن تستطيع فأحدهما قد اغتيل و دفن ، والثاني متهم يحاكم الآن وراء القضبان، و لكن قد تستطيع أن تطلب إذن زيارته و تذهب إليه في السجن و تسأله فربما قد يجيب على تساؤلاتك ، و لكن قبل أن تجهز أسئلتك له يجب أن تسأل نفسك أولًا هل سيسمحون لك بزيارته؟ أم ستكون أسئلتهم عن السبب من وراء هذه الزيارة الغريبة ، وما هي العلاقة التي تربطك به ؟ هو كل ما ستتلقاه.

رغم أن كلامه كان حقيقيًا إلا أني شعرت بالغضب فكان كل ما بداخلي يغلي فأردت أن أوجه قبضتي إليه و أهشم وجه الذي يضحك ، فلا يبقى منه شيء سليم ، و لا يتبقى منه أي شيء يذكر ، و لكني تماسكت و أحكمت إغلاق قبضتي ليس لأني لا أملك أن أضربه ، أو لأني لا أستطيع أن أجد الرد المناسب له ، و لكني توقفت فقط لأني أخيرًا بدأت أفهم، فأخيرًا استطعت أن أجد تلك النقطة ، نقطة البداية ... النقطة المشتركة بيني و بينه التي بحثت عنها، فرغم أني أريد الحل إلا أن إحساسي تجاهه وتجاه قومه يمنعني و يقف حائلًا دون تحقيق ذلك فمهما حاولت أن أهدئ من نفسي و أسير على الخطى التي رسمتها أجد نفسي تعود مرة ثانية و تتذكر من هم ، وتذكره أيضًا من هو ، و من هم قومه على الحقيقة ، فيتحول الحوار بيننا إلى ساحة معركة تعتمد على الصد و الدفاع و مواجهة الاتهام بالاتهام ، و الكلمة بالكلمة ، فأدركت أني إذا استمررت على هذا الحال من الهجوم سيستمر هو أيضًا على هجومه علي ، و سينقضي الوقت و يضيع هباءً دون أن نجد أي حل يساعدنا على أن نخرج من تلك الحالة

البائسة ، و المحزن أن الشيء الوحيد الذي سنخرج به هو تلك الكراهية التي ستزداد أكثر فأكثر لأننا جعلنا صوت الغضب هو من يتحدث ويتحكم .

لذلك علمت بالتجربة أن الحوار الحقيقي يبدأ بالشفافية فيجب أن يكون صافيًا وواضحًا وخاليًا من اللوم و توجيه الاتهامات و يجب أن يتحلى جميع أطرافه بالصبر و التفهم و القناعة ، و أن يؤمن الجميع أن الغاية واحدة و إن اختلفت الطرق. فإن الحوار قد بدأ لمنقاشة الوقائع والحقائق، والاستفادة من آراء الجميع و خبراتهم، و ليس لإلقاء اللوم على أحد أو تجريح أحد، فقد بدأ هذا الحوار لإيجاد الحل..

لإيجاد السلام..

لإيجاد البداية..

و بعد أن وصلت لهذه القناعة وبدأت أستوعبها جيدًا أدركت أني حتى أبدأ هذا الحوار.. الحوار الحقيقي لابد أن أعترف بخطئي في حق ديفيد وأعتذر له ليس لأني قلت له كلامًا غير حقيقي ، و لكني كانت رغبتي في أن أجرحه و ألومه و أفعل فيه ما عجزت عن فعله لهم هي من تسيطر علي ، لذلك جمعت إرادتي وأخذت نفسًا عميقًا حبسته بداخلي لثوانٍ ثم أخرجته ببطء و مع آخر نفس قلت له :

- في الحقيقة يا ديفيد كلامك مضبوط ، فما قلته كان حقيقيًا، و لكن اعذرني فقد حاولت إنكار تلك الحقيقة كثيرًا و لكن يبدو أنه يجب علي أن أتقبلها في النهاية .

التفت ديفيد إلي و هو ضاغط على نظارته أكثر غير مصدق يحملق في وجهي في ذهول فقد وجد ما لم ينتظره مني فكان يتوقع أن أثور عليه وأغضب كما اعتاد مني ، فقال بعد أن هدأت حدة وجه :

- أنا أريد سلامًا حقيقيًّا يا أقصى... أنا أريد ألا أشعر بالخجل من هويتي ، أريد أن أتمتع بكوني يهوديًا ، أليست اليهودية ديانة أنزلها الله علينا كما أنزل عليكم الإسلام ، ألسنا نعبد إلهًا واحدًا ، و نصلي له ، إذن لماذا يجب أن نكون أعداء ؟! لماذا يجب أن تستمر بيننا الحرب ؟!

كانت نبرتي غريبة فأول مرة أسمع نفسي تتحدث هكذا فكنت أتحدث بنبرة المرشد الذي يريد أن يساعد بكلامه إنسانًا تائهًا فيوجه إليه كلمات النصح مع تمنياته الحارة بالنجاح فقلت له و أنا أضع يدي على كتفه:

- أتفهم وضعك جيدًا يا ديفيد ، فأعلم ما تعانيه و يجب أن أعتذر لك على هجومي عليك ، فأنت ليس لك ذنب فلم تختر هويتك و لم تختر أن تكون منهم ، ولكن هؤلاء لم يأخذوا أرضنا فقط ، ولم تكن علاقتنا بهم علاقة المحتل و الأسير فقط ، بل كانت علاقتنا بهم علاقة القتيل بالقاتل ... علاقة الفريسة بالصياد فهم قتلونا جميعًا ذبحونا إلى آخر قطرة دم، ففرقونا و أهانونا و سرقوا حياتنا فهم يحاولون أن يقضوا علينا إلى آخر لحظة.

نهض بعصبية وقد كان جسده ينتفض و صرخ بغضب وجهه قد اشتعل بالحمرة، و هو يشير بيده على نفسه بعصبية، و بات يكرر:

- و لكني لست منهم... لست منهم ... لست منهم، فقد اخترت ألا أكون منهم فحين عرضوا علي الإقامة بينهم و قدموا لي المنصب الرفيع و الأموال الطائلة التي قد لا يرفضها أحد ، رفضتها .. رفضت كل هـــذا واخترت الابتعاد عن كل ذلك لأني ببساطة لا أرغب أن أكون شــريكهم في جرائمهم.. لا أستطيع أن أتحمل ظلمهم و أكــون حجــرًا صــامتًا لا يتحدث و لا يشعر و لا يعترض.

كانت أنفاسه لاهثة و يده ترتعش و بدأ يبكي فدموعه كانت غزيــرة وصادقة ، وعندما رأيته هكذا شق علي حاله فأردت أن أضمه بين ذراعي ، و لكن صدمتي منعتني فقد أذهلني ذلك المشهد الفريد الذي تمنيــت أن

أصوره و أنشره للعالم كافة فلم أكن أصدق عيني فلأول مرة في حياتي أرى أمامي يهوديًا إسرائيليًا يبكي حزنًا على ما يحدث مع شعب ليس شعبه ، ويعترف بخجل من جرائم قومه التي لا يرتكبها هو ، صحيح أني سمعت من قبل أقوال معارضين للسياسة الصهيونية مثل " إسرائيل شامير " و هو كاتب و مفكر إسرائيلي فقال :

- « يتخيلون أنهم من الممكن حب فلسطين من دون فلسطينيين لكن فلسطين ليست جسدًا ميتًا بل هي بلد حي والفلسطينيون روحها وبدون الفلسطينيين تموت فلسطين وتجري في أنهارها مياهًا سامة وتجف ينابيعها وتتشوه تلالها وسهولها ».

و قال أيضًا :

- « حلم الصهاينة بجعل فلسطين يهودية كما هي إنجلترا إنجليزية لكنهم أخفقوا ففلسطين يهودية بقدر ما هي جمايكا إنجليزية ».

و قد سمعت أقوال غيره و لكن تلك المرة كانت بالنسبة لي مختلفة فشعرت بلذة و نصر، فسعدت أن أسمع هذا منه لأن ذلك ساعدني على أن أتقبله، ساعدني أن أوقف نظرتي إليه على أنه العدو، ساعدني أن أستمع إليه.

في ذلك اليوم ذهبت و تركت ديفيد بدون أن أقول أي كلمة ، ربما لأني قد شعرت أن ما وصلنا إليه يعد انتصارًا في حد ذاته ، أو لأني خفت فقد بدأ قلبي يتغير اتجاهه فخشيت أن أحبه و أعتبره صديقًا ، وما كان علي أن أحبه أو أتخذه صديقًا ، فماذا لو كان يخدعني ؟ ماذا لو أنه أظهر اعتراضه فقط لكي يجذبني لطرفه و يكون في الحقيقة يضمر شيئًا آخر ؟

لذلك قررت الحيطة معه ، و الاستماع إليه بدون الحكم عليه ففي النهاية سيظهر كل شيء ، فالنهاية دائمًا تأتي لنا بما نجهله فما يجب علي الآن هو الصبر و الانتظار .

مرت الأيام المتعاقبة في هدوء، فلم يحاول أحد منا الخوض في حديث مع الآخر فكنا نتقابل بالصدفة عند روح و عندما نتواجه نحيي بعضنا بابتسامة خفيفة ثم نذهب، و أحيانًا كنا نقف نتحدث مع مصطفى ونتناقش حول حالة روح فهي قد بدأت تتماثل للشفاء و لكنها مازالت في البداية ، و أحيانًا أخرى كنا نتقابل في المصعد ينتظر كل منا الطابق الذي طلبه ثم يذهب ، هكذا كان الحال بيننا فكانت تمر الأيام في صمت و تضيع بدون أن أصل إلى شيء وهذا لم يعجبني فأنا أبحث عن الحل وكنت أتمنى أن يساعدني ديفيد في إيجاد ما أبحث عنه فيفتح عيني على ما غفلته ، و يوجه عقلي و فكري و ذهني لموضع جديد قد ألتمس فيه بداية لأمل ، فالإنسان مهما وصل من العلم و الخبرة و الدراية يحتاج دائمًا لرأي آخر ، و لكن حتى يعود الحوار بيننا بنفع قررت أن أبحث وراء الفكر اليهودي لأدرك ما يسعون إليه لأصل إلى خيوط المؤامرة فبدأت أبحث بين الكتب لأكشف الخبايا و أفضح الأسرار التي بين السطور، و كان أول كتاب أمسكه بيدي هو (بروتوكولات حكماء صهيون) ذلك الكتاب الذي يدعي البعض أنه لا وجود له بينما يقول الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد في مقدمة الكتاب :

« إن هذا الكتاب لا يزال لغزًا من الألغاز في مجال البحث التاريخي وفي مجال النشر والمصادرة، فقلما ظهر في لغة من اللغات إلا أن يعجل إليه النفاد بعد أسابيع أو أيام من ساعة ظهوره، ولا نعرف أن دارًا مشهورة من دور النشر والتوزيع أقدمت على طبعه من تكاثر الطلب عليه، وكل ما وصل إلينا من طبعاته فهو صادر من المطابع الخاصة التي تعمل لنشر الدعوة ولا تعمل لأرباح البيع والشراء ».

قد نشرت تلك بروتوكولات و التي تتكون من أربعة وعشرين بروتوكولًا و قد تخاطفها العالم و سعى للحصول عليها أملًا منه أن يكتشف مخطط الغزو الصهيوني العالمي و الذي ظهرت بذوره من قبل الميلاد في

أوروبا سنه ٤٢٩ في اليونان عصر بركليز و التي انتهت اليوم بالنزاعات العربية و احتلال فلسطين و القدس و تخريب المسجد الأقصى و التخطيط لتدميره و أقامة الهيكل الثالث مكانه .

و قد بات واضحًا للجميع أن الغزو الصهيوني لم يتوقف عند احتلال الأرض و تفريق كلمة العرب، بل امتدت جذوره و تعمقت في مجتمعنا العربي بصورة خطيرة فصار هو محور الحياة التي نعيشها في كل النواحي الاقتصادية و الثقافية و السياسية.. فاستطاعوا أن يوجهوا أنظار الجميع نحو العالمية ، فالآن العرب يتقاتلون ليصول لها محطمين بذلك كل الروابط والاعتقادات الدينية التي تجعلنا أمة واحدة ، و قد نسوا أن العالمية ما هي إلا أفكار قادمة من بلاد الغرب تلك البلاد الذي استطاعت القوة الصهيونية التغلب عليها و السيطرة عليها عن طريق احتلاهم مقاليد الأمور الاقتصادية فصاروا هم يعكسون الطبقة البرجوازية في المجتمع الأمريكي تلك الطبقة التي تتحكم بأموالها الكثيرة وعلاقتها الوثيقة في كل ما يهم من الأمور التجارة و الصناعة ، و هذا بالإضافة إلى سيطرقم على النواحي الثقافية و الفكرية في المجتمع و التي تتبلور و تظهر بشكل كبير من خلال صناعة السينما ، ووكالات الإعلام ، و الصحافة ، و للأسف صارت هوليود معقلًا لليهود فعكسوا أفكارهم و حملاقم التخريبية التي تسعى لانتشار الفسق و المجون وسط المجتمع العالمي ، و التي سريعًا ما تصل إلى المجتمع العربي التي يتلهف لتلك الأفكار و يطلق عليها حرية ، و أفكار معاصرة ، و هذا بالإضافة إلى قدرقم الرهيبة على تزييف الحقائق حيث سعوا إلى إخفاء جرائمهم الدامية وراء ستارة بيضاء مزيفة صنعوها من خلال أفلام كتبت و صورت بعناية لتطهرهم و لتظهرهم على أنهم شعب مظلوم .. و شعب مضطهد قد عذب وقتل و أهين، و كيف أنهم كافحوا وحاربوا من أجل البقاء.

و بالتالي لم يكن الأمر صعبًا عليهم في التغلغل في الحياة السياسية و التي هي في الحقيقة تسيطر على كل شيء، والتي تصدر الأوامر و تـتحكم في مصائر الشعوب وفقًا للمخطط الصهيوني الذي يريد أن يتحكم في العالم ، وفي النهاية يطلقون على ذلك التخطيط سياسة خارجية ... و أقول أنا أنها سياسة تدميرية فهم يتغذون على الشرور التي بالعالم محـاولين بـذلك أن يقضوا على بذور الخير، و أن يقضوا على الإنسانية فيحولوا العالم بأسـره إلى غابة كبيرة يكون فيها البقاء للأقوى.

ما توصلت إليه كان يعد شيئًا كبيرًا بالنسبة لي فبدأت أفهـم و أدرك الأمور الخفية، و أدركت أن المعركة بيننا ليس معركة قتال و لكنها أيضًا معركة حياة فإذا أردت أن أعيش يجب أن أحارب أفكارهم ، و أتخلص من غزوهم التجاري ، و الصناعي ، وقيودهم السياسة التي تقيد الجميع ، وإذا نجحت في تحقيق ذلك حينها فقط سأستطيع أن أمسك سلاح و أحـاربهم ... و حينها فقط أستطيع أن أنتصر ... سنستطيع أن ننتصر جميعًا.

- نعم سننتصر ... سننتصر ...

اعتراني شعور بالسعادة فأنا وجدت الحل، و أخيرًا وجدته... يا عالم أنا قد وجدته ، فلم يكن صعبًا كما توقعت أن يكون فهو كان أمامي طـوال الوقت، صحيح أني كنت أعلمه و لكني لم أشعر بقيمتـه إلا الآن فهـم يتحكمون فينا بسياستهم و نحن نستطيع أن نتحكم فيهم أيضًا من خـلال اقتصاديتهم لذلك بدون تردد صنعت قائمة طويلة بكل أسماء المنتجـات والماركات الأمريكية و اليهودية التي يتعامل معها العالم العربي فوجدتها إنها تحتل تقريبًا معظم المواد الغذائية التي يعتمد عليها العالم العـربي ، و هـذا بالإضافة إلى المواد الخام المستخدمة في باقي الصناعات، فقلت لنفـسي لا بأس سأبدأ خطوة .. خطوة ؛ لذلك قررت منذ الغد أن أبدأ المقاطعة و أن أتوقف عن شرب قهوة الصباح الامريكية ، واخترت ألا أشـرب هـذا الشاي بعد اليوم فأبحث عن نوع عربي و إن كان أقل جـودة ، غـير أني

سأتوقف عن تناول المشروبات الغازية فأستبدلها بالعصائر الطبيعـة فقد أطلب من شهد أن تصنع لي أي عصير أحبه ، و لن آكل الطعام السريع فهو ليس يضيع المال فقط و لكنه يضيع معه الصحة لذلك سآكل دائمًا في المنزل و أن أردت التغيير سأبحث وسط أطعمتنا العربية فهي ذات مذاق ونكهة طيبة ، و لن أشتري المنظفات الأوروبية ذات الحلول السريعة...
ولن ... و لن ... و لن ... ولن

كنت سعيدًا بهذه القرارات ، و عندما أخبرت شهد بها شجعتني وساندتني فقررنا أن نترل سويًا و نبتاع معًا المنتجات العربية و نجد البديل الذي يجعلنا أن نستغني عن تلك المنتجات الأجنبية فقلت لنفسي إذا نجحت أنا في العيش بدونهم سيكون إنجازًا في حد ذاته ، فإذا نجحت أنا يستطيع أن ينجح الآخرون أيضًا .

فعندما وصلنا إلى *هايبر* ماركت كانت نفسي مليئة بالحماسة و الإقبال و الإثارة إلا إني لم أجد ذلك في شهد فكانت هادئة ... ساكنة تبتسم ببساطة و هي تنظر بين الرفوف تراقب و على ملامحها خيبة أمل... وعندما توغلت بداخل الهايبر و بحثت و قارنت اكتشفت و عرفت و أدركت الحقيقة المرة ... فلم يكن بداخل هذا الهايبر الكبير الضخم شيئًا يعكس المنتج العربي الذي كان في يوم ما منتجًا يطلبه الداني و القاصي ، فاكتشفت أني إذا قررت مقاطعة تلك المنتجات التي لا أستطيع الاستغناء عنها فلن أجد لها البديل المناسب ، و إذا قررت التوقف عن بعضها ... فلن يتوقف أحد غيري ، و إن وجد سيكونون قليلين .

خرجت من الهايبر ولم أبتع شيئًا ، و كان إحساس الفشل مسيطرًا علي ، فاعتراني غضب و نقم كبيران فقلت لنفسي و أنا أنكر ما رأيته :

- كيف نكون في بلد عربي و إسلامي ويكون رداؤه و شكله وطعمه و رائحته أجنبيًا ؟ فأين ذهبت النكهة العربية و الطابع و الحلم العربي ؟ كيف أخفت الهوية و استبدلت و ضاعت ؟ و كيف سمحنا نحن بذلك ؟

أكل ذلك من أجل العالمية ، و من أجل أن يبدي الناس إعجابهم و يقولون « رااااائع ..!! » . فإن كان الثمن من وراء هذا الرائع أن نفقد هويتنـــا فالله يلعن تلك العالمية ، فعندي أن نكون متخلفين بمعاييرهم أفضل من أن نصل لتلك الحالة ، كنت أشعر أني أختنق فصرخت طالبًا النجدة: ياااااااا رب ... يا اااااا رب الصبر .

جاءت إلي شهد تجري وتوقعت أنها ستقول كلامًا يهدئني كما كانـــت تفعل دائمًا معي ، و لكنها أمسكتني بقوة ونظرت في عيني بحدة ثم قالت :

- لماذا تصرخ هكذا؟ هاااااااا ، ماذا سيفيدك الصراخ يا أقصى ؟ تستطيع أن تصرخ إلى الغد و تنادي و تقول و تحكي و ترصد، و لكن في النهاية لن يستمع إليك أحد ... فهم في الأصل لن يرغبوا بالاستماع إليك ، هل تعرف لماذا ؟ هاااااااااا هل تعرف السبب ؟

صرخاتها في صدمتني بل أفاقتني فهدأت فجأة ، و أجبتها بكل استسلام على سؤالها لي بأني لا أعرف .. لا أعرف السبب ، فقالت لي :

- لأنك متحمس أكثر من اللازم يا أقـــصى و نحـــن في الوقـــت العصيب نحتاج إلى الصبر وطول الأناة... فيجب أن تكون قويًا فإذا أردت التغيير يجب أن تكون قويًا لكي تجعل منه واقعًا ، و أن تتعلم كيف تواجه الفشل فتبحث دائمًا عن حلول بديلة فتجرب و تجرب و تجـــرب حـــتى تلمس الحل بيدك، نعم قد تكسب مرة، و قد تخسر مرة أخرى، و لكـــن كن متيقنًا أنك من سينتصر في النهاية... و تذكر دائمًا الجانب الأخر ... الجانب الجيد ، صحيح هنا كل شيء يبدو و يظهر أنه أوروبي و لكنك إذا بحثت جيدًا و نظرت إلى الصفوف الخلفية ستجد ما تبحث عنـــه ، فـــإذا ذهبت إلى كل إماراتي و عربي يعيش في هذا البلد ســـألته كيـــف تـــرى الإمارات ، سيخبرك بشيء واحد أنه هنا وجد العدل و الأمانة والحريـــة والأمان و الاستقرار و فرصة للإبداع ، تلك الأشياء هم السبب الحقيقي التي أقيمت الثروات العربية من أجلها .

- و لكني يا شهد أنا لا أتحدث عن الإمارات بالتحديد ، و لكني أتحدث عن فكرة العالمية ، و غزو الصناعات الأوروبية و اختفاء الصناعة العربية، وصحيح أن هنا نموذجًا عربيًا مشرفًا ، و أتمنى أن أجده في باقي الدول العربية ، و لكن سأرجع و أقول أن الصناعة الأوروبية نافست العربية حتى صارت الأخيرة مهددة .. بل شبه منقرضة.

- كلامك حقيقي ، و لكن ما السبب الحقيقي وراء انتشار المنتجات العالمية سواء كانت يهودية أو أمريكية أو أوروبية ، السبب بسيط يا أقصى فإما هي الجودة عالية ، أو الأسعار المنخفضة ، فالناس دائمًا تسعى وراء المنتج الجيد ذى السعر القليل و حتى ينهض الاقتصاد العربي لابد أن تنشط الصناعات و تتنوع فتنتج البديل و حينها نستطيع أن نتخلى عنهم و نعتمد على أنفسنا ، وحتى يأتي هذا اليوم يجب أن تصبر وتوعي الناس و تتكلم عن أفكارك بهدوء، و تترك عصبيتك جنبًا فهي في النهاية ستضرك و لن تفيدك بشيء .

كانت كلمات شهد مشجعة ، فهزتني و حركتني من داخلي فأمسكت يدها و قررت أن أعود مرة ثانية بداخل الهايبر أبحث مرة أخرى عن البديل العربي و لكن بعين مختلفة ، و عندما لم أجد ما أتمناه لم أيأس و قررت أن أبحث بداخل كل شبر في دبي و أن أتحدث مع الناس و أتناقش معهم وأحدثهم عن الهوية العربية فنحن قد عشنا قرونًا و قرونًا بدونهم و نستطيع أن نعيش الآن أيضًا بدونهم ..

لذلك بدأت أنا و شهد حملة البحث عن الهوية فكانت تنزل شهد مع والدها و تبحث في الأسواق بينما أنا أعمل في المستشفى عن كل شيء يعكس الثقافة العربية سواء إن كان خليجيًا أو مصريًا أو فلسطينيًا أو سوريًا أو عراقيًا أو أي بلد عربي آخر فنستخدمه و نترك بديله الأجنبي ، وعندما كانت شهد تجد شيئًا تهاتفني و تخبرني بفرحة عن اكتشافها الجديد فكنت أهنئها و أعتبره انتصارًا كبيرًا لنا جميعًا ، و في مرة من المرات بعد

أن أنهيت مكالمتي مع شهد و كانت الابتسامة على وجهي جاء ديفيد وعندما رآني هكذا انتابه الفضول فسألني :

- يبدو أن هناك أمرًا سارًا حدث معك.

فقلت له : نعم فأنا سعيد .

ابتسم لي و قال : يسعدني حقًّا أن أراك سعيدًا يا أقصى ، و ربما الخبر الذي أحمله سيعسدك أكثر فقد جئت لأخبرك أن روح تستطيع مغادرة المستشفى و العودة إلى منزلها خلال يومين على الأكثر فقد استقر وضعها وتحسن فلا داعي لمكوثها هنا .

تغير لون وجهي و أنا أسأله فلا أعلم لماذا شعرت بهذا الضيق فقد كنت أنتظر هذا اليوم منذ وقت طويل:

- هل هذا يعني أنك ستذهب ؟

قال لي :

- نعم فيجب أن أعود، فقد انتهت المهمة التي جئت من أجلها، وهذا لا يعني أن علاقتي بروح كطبيب قد انتهت فسأتابع حالتها من أمريكا ، مع العلم إنها قد تضطر للقدوم مرة أو مرتين إلى هناك لعمل بعض الفحوصات ، و حقًّا يا أقصى أود أن أشكرك على كلٍ شيء ، فقد مرت بنا أيام صعبة و لكنك كنت خير معين ، و أتمنى لك حقًّا حياة سعيدة .. وأرجو أن تعذرني فأعلم أني قلت كلامًا قد أزعجك و لكن اللوم على الظروف فهي تجبرنا على فعل ما لا نحب لذلك أتمنى أن أراك في ظروف مختلفة، أقصى...!!

- نعم يا ديفيد

- صحيح أنك في ذلك اليوم صافحت يدي كطبيب، و لكن اليوم أنا أمد يدي إليك وأود منك أن تصافحني كإنسان... إنسان مثلي مثلك، فهل تقبل أن تمد يدك و تصافحني على ذلك ؟

لم أتردد كما كنت أتوقع من نفسي فأخذتني حميمية الموقف وصافحت يده وكأني أصافح صديقًا لي، و تمنيت له رحلة سعيدة إلى وطنه، و لكنه بعد أن ذهب و تركني عاد إلي بعد دقائق قليلة فجاء يسألني:

- أيجب أن نكون أعداء...!! أيجب أن نحارب حربًا ليست حربنا...!! أيجب أن ندمر كل فرصة باقية لنا في الحياة...!!

- لا يا ديفيد لسنا أعداء . صحيح أني اعتبرتك هكذا، و لكن كان ذلك في البداية فقط، قد اختلف كل شيء الآن فبدأت أفهم، و لكني حتى يتضح لي كل شيء يجب أن أسألك سؤالًا و يجب أن تجيبني عليه بصدق.

قال لي : تفضل ... أنا أسمعك .

فسألته :

- ماذا لو خيرت ؟ ماذا لو تغيرت الأحداث سريعًا و أجبرتك على أن تختار ؟ ... فأنت قلت لي منذ قليل أن الظروف تجبرنا أحيانًا أن نفعل ما لا نحب، فماذا لو أجبرتك الظروف أن تقف في هذا المكان ، ذلك المكان المحير القاسي الذي هو بمعايير كل من يدعو إلى تحقيق العدل و محاربة الظلم مفترق طريق ... ذلك المكان الذي يقع في المنتصف بين جبهتين ، جبهتي التي أنتمي إليها ، و جبهتك التي تنفر منها و تعاديها ، فأين ستكون ؟

ومع العلم أنك يقينًا تدرك إن جبهتك هي الظالمة وهي التي بغت، ولكن في نفس الوقت هناك شيء بداخلك يتحرك و يناديك إليهم ، يناديك لتقف معهم رغم كل شيء ، و أعني أنا بذلك نداء الولاء لدينك وبلدك ، فهو نداء لا يستطيع أحد مهما كان أن يتخلى عنه أو يتجاهله ، فماذا لو غلبك و سمعته يدعوك للمحاربة معهم و الوقوف بجانبهم ؟ ...

فهل ستجيبه ؟!!أجبني يا ديفيد فإذا وقعت في هذا الاختيار فـأي جبهـة ستختار أن تحارب فيها ؟

نظر إلي، و ظل صامتًا ، حتى كانت ملامح وجهه صامتة معـه فلـم أستطع أن أقرأ ما فيها فلم أجد أي شيء قد يساعدني أن أستشف الجواب منه، و لما تحدث لم يعطني أي جواب أيضًا، بل ظل يتحدث، و يتحـدث ويتحدث... يحكي لي حكاية غريبة... يحكي لي قصة رجل قال أنه ظن أنه يعرفه و لكنه اتضح له بعد سنين أنه لا يعرفه ، ظننت في البداية و اعتقدت أنه يتهرب من الجواب و أنه ليس لديه ما يقوله وهو فقط يريد أن يحيرني ويدخلني في متاهته ، و لكن بعد أن استمعت له تغير كل شيء ، صحيح أني في البداية شعرت بالملل ولكن كلما كانت الدقائق تمر كنت أجد نفسي تستمع إليه أكثر وأكثر فأصغيت إليه إلى أن جاءت النهايـة ، وعنـدما جاءت عرفت و أدركت الإجابة التي بحثت عنها.

***

الفصل الرابع عشر
حياة واحدة

« هل تؤمنون بالنهايات السعيدة .... ؟

يقول البعض أنه لا وجود لها، فهي نهاية لا تكتب إلا في القصص حيث يوجد الخيال والسعادة الأبدية، فالواقع غير... فالواقع قاسٍ أكثر مما قد نتوقع ... أكثر ما قد يتوقع أحد، و أما إذا كنت تريد تلك النهاية التي يطلقون عليها سعيدة و تبحث عنها بشغف فيمكننك أن تجدها ، ولكن يجب عليك أولًا أن تذهب إلى أحد الأفلام المعروضة في صالة السينما فهناك قد تجدها حيث تجد البطل يتطلع إلى حبيبته بشوق فقد عاد أخيرًا بعد غياب و مشوار طويل قد امتلأ بالعذاب و الحرمان ، عاد ليجتمع من جديد مع من يحب ، و لكن حتى تلك النهاية السعيدة قد يحرمك منها الكاتب أحيانًا فيدخل في تلك اللحظة الرجل الشرير وفي يده سكين غادر ليقتل البطل فيطعنه هذا الشرير فيقع الأخير ويسقط قتيلًا أمامهم جميعًا ويموت فيقضي بذلك على نهايتك السعيدة .

تلك النهاية التي انتظرتها طويلًا فتقف عاجزًا و أنت تشاهده يترف ويموت فتظل تبكي، و قلبك الذي يحترق يدعو له أن يعيش و تقول... آه لو يعيش.

و قبل أن يسدل الستار تجد الحبيبة واقفة في المشهد الأخير أمام قبر من أحبت و على وجهها دمعة تتساقط فتدع الأولى تسقط، و عندما تبدأ الثانية بالترول تزيلها سريعًا وتمسحها، فتقوم وهي تودعه الوداع الأخير.

تلك هي النهاية التي يجدها من يبحث بين أساطير القصص، و روايات الأبطال، و سطور العشق...

تلك هي نهاية الحالم الذي لا يدرك الواقع الحقيقي و لا يعرفه...

تلك هي النهاية التي لم يعرف التاريخ و لم يقرأ سطوره و يشهد رواياته الحقيقية... فهناك بين سطور التاريخ ... هناك فقط توجد النهاية الحقيقة ..

النهاية السعيدة...

لذلك اسمحوا لي أن أقول لكم نهايتي السعيدة... صحيح أني اعتقدت في البداية أنها لن تكون سعيدة، وأن ما مررت به من ظلام سيقضي حتمًا على أي بقعة ضوء باقية لي، و لكني استطعت أن أنجو رغم كل شـــيء.. فاستطعت أن أعيش و أحلم من جديد، و أن أجد نهايتي السعيدة.

ربما قد انتابكم الفضول و صرتم تودون أن تعرفوا قصتي لتعرفوا كيف وصلت إلى تلك النهاية التي أعتقد أني فقدتها في لحظة من اللحظات.

لا تقلقوا سأخبركم بها، و لكن في البداية يجب أن تعرفوا من أنا ؟ و ما هي قصتي ؟

فأنا اسمي أقصى ولد كان اسمه أقصى حين ولدت لم أكن أعرف مـــاذا يعني اسمي ، فكان بالنسبة لي اسمًا كباقي الأسماء، أما عمري فلا أعرف كم صار فقد توقفت فمنذ زمن طويل عن عده فصار الآن لا يهم، و لكن ما يهم الآن أني كلما مر بي الوقت صرت أملك من اليقين و الـــسعادة مـــا يجعلني أقول لكم أني أرى النهاية أمامي ... أراها واضحة كالشمس رغم أنها لم تحدث بعد... فبعد كل تلـــك الـــسنوات أســـتطيع أن أقـــول أني أراها...!! ».

– أقصى ... الطعام جاهز .

– انتظرني دقيقة ... أنا قادم .

– هيا يا أقصى الطعام جهاز ، و الكل منتظرك ..هيا أسرع .

- هل جاء ديفيد ؟

- لا .. ليس بعد، و لكنه اتصل و قال إنه على الطريق سيكون هنا في أي دقيقة..

- تمام.. هذا جيد، سأضع تلك الأوراق جانبًا و سآتي حالًا.

- ما تلك الأوراق !! آه ...أرى أنك تكتب، هل بدأت؟

- قليلًا...!!

- و أخيرًا ... أنا سعيدة من أجلك، و لكن أخبرني كيف هي الكتابة معك ؟

- جيدة... أعتقد إنها جيدة، حتى الآن.

- كم كتبت ؟ أرني !

- ليس بالكثير، فمازالت في البداية يا شهد.

- و إن يكن فهذا أمر يستحق الاحتفال به، و لكني أريد منك أن تعدني أن أكون أنا أول من يقرأ، فلا أريد أن أغفل عن أي حرف... و أي سطر تكتبه .

- أرى أنك متحمسة أكثر مني.

- و لماذا لا أكون ؟ فأنا فخورة بك ... فليس هناك امرأة على الأرض لا تشعر بالفخر بزوجها أكثر مني.

- و أنا سعيد أنكِ تشعرين بذلك، و لكن أرجوكِ لا تتحمسي كثيرًا، فأنا ...!! أعني فأنا في النهاية لست بكاتب فأنا طبيب في المقام الأول يا شهد ، و تعلمين جيدًا أني لن أستطيع أن أكتب كثيرًا فوقتي مقسم بين المترل و العمل، و هذا بالإضافة أني قد لا أملك القدرة أن أعبر جيدًا و أصف ما حدث فمهما كتبت لن أستطيع أن أنقل حقيقة ما حدث

فبذلك سأظلم الجميع و أقلل من قدرهم الحقيقي ، و قد يؤلمني هــذا ... سيؤلمني أكثر مما تتخيلين ،فأنا أفكر و أعتقد أني ربما يجب علي أن أتوقــف عن هذا... فقد كانت فكرة .....

– فكرة جيدة، فهي كانت فكرة جيدة يا أقــصى... صــحيح أن ديفيد هو من اقترحها عليك ، و لكنها فكرة جيدة و فعالة فأنــت تريــد التأثير و تغيير الناس ، و لم تكن تملك الطريقة و لا الوسيلة لذلك ،وها قد أتت إليك الفرصة فأخيرًا تستطيع أن تعبر و تصف ما رأيته مــن خــلال كتابك فهنا تستطيع أن ترصد الحقيقة بدون قيود فتخبر الناس بما يجهلونه، أرجوك أن لا تترد في ذلك ... أرجوك .

– تمام، أعدك أني سأفكر في الموضوع، و لكن دعينا نذهب إلــيهم فقد تأخرنا عليهم كثيرًا.

– أقصى توقف .

– ماذا حدث يا شهد ؟

– قبل أن نذهب، عدني...!! قلها لي ... قلها لي فقط !!

– أعدك بماذا يا شهد .

– عدني بأنك ستظل تكتب إلى النهاية مهما حــدث... و مهمــا واجهت، وأعلم جيدًا أنك تعتقد أنها فكرة غير سديدة و لكنــها طريقــة جيدة لأن تدعو إلى أفكارك فتوحد الناس و تعيد إحياء العقول و القلوب من جديد، و أرجوك لا تخف.

– أخاف..!! أنا لست بخائف، فمن يجب أن أخاف منه ؟

– بل خائف، فأنت خائف من نفسك ... فأنا أعلم جيدًا أن مــن الصعب عليك أن تكتب ما حدث، و أن تتذكر ما مر من جديــد، و أن تعيد تلك الوقائع إلى ذهنك مرة ثانية فهي ستهيج في نفسك ما حاولت أن

تنساه.. فهذا صعب، و مؤلم..أعلم .. فأنت خائف أن تتألم من جديـــد.. ولكن لا بأس سأكون بجانبك هاهنا أمسح دموعك إذا سقطت ، و أضمك إلي إذا شعرت بالبرد و الخوف ، و أمسك يدك و أعيدك إذا شعرت أنك ضعت .. سأكون بجانبك لذلك لا تخف .

- شهد ... حبيبتي شهد ، أرجوكِ توقفي...

- صدقني لن أشكو، و لن أضجر.

- شهد لماذا تثقلين علي و على نفسك ؟ لماذا يجب أن أفعل ذلك ؟ لماذا أعرض نفسي و أعرضك معي لكل هذا الألم من جديد؟ و من أجـــل ماذا ...؟ من أجل ماذا ؟ و لا شيء، من أجل و لا شيء.. فقـــد مـــرت السنوات و أنا أناديهم و أمد يدي إليهم فلم يساندني ولم يسمعني أحـــد، فهم منذ البداية حاربوني بلامبالاهم و أنانيتهم... لم يستمعوا إلي، فلمـــاذا سيستمعون إلي الآن ؟ فما الذي تغير حتى يستمعوا إلي من جديد ؟

- كل شيء ، فقد تغير كل شيء الآن يا أقصى و صـــار الوضـــع مختلفًا ؛ فقد صار الناس يتكلمون و يعبرون عن أفكارهم بطريقة مختلفة ، وأصبحوا يحلمون بطريقة أيضًا مختلفة حتى أهم أصبح لهم طريقة ضـــحك مختلفة ، قد تغير كل شيء و يجب عليك أن تؤمن بهذا و تـــصدقه حـــتى تستطيع أن تراه و تلمسه بنفسك ... أرجوك يا أقصى كن متفائلًا.

- متفائلًا و في هذا العصر.. صعب، و لكني سأعدك سأحاول.

- بل كن متفائلًا... قل أنك ستكون .. قلها يا أقصى من أجلـــي، قل أنك ستعود كما كنت متفائلًا تمامًا كمثل أول يوم قابلتك فيـــه حـــين كنت تواجه كل شيء، و أي شيء، حين واجهت خوفك و أمسكت يدي و سألتني هل تتزوجينني ؟ هل تتذكر هذه الأيام ؟

- و كيف لي أن أنسى ،فهذا المشهد هنا في قلبي يا شهد لم أنـــسه يومًا و لم أحاول أن أنساه. ففي كل يوم عندما أستيقظ و أنظر إليك وأنني

نائمة بجواري أعود و أتذكر ما مر فأعيشه بخيالي وكأن كل شيء عاد حيًّا مرة أخرى من جديد.

– إذن تمسك بتلك الذكريات جيدًا و أحفظها بخيالك و اجعلها وسيلتك لإيجاد الأمل ، و النور الذي يضيء لك أكثر الطرقات ظلمة .

– سأفعل، ولكن أريد الآن أن أرى ابتسامتك أولًا.. فهل تبتسمين من أجلي ؟

اقتربت مني و طبعت على وجهي قبلة رقيقة ، ثم ابتسمت ابتسامة بريئة أضاءت وجهها كله فملأته بهجة و فرح ، و أمام هذا ما كنت أملك غير أن أصدق على ما أرادت ، فأومأت لها بعد أن نويت بداخلي أن أكمل كتابة قصتي ... قصة حياتي، فأرصد ما قد مر ، و أن أشارك الناس تلك الرحلة الطويلة التي بدأت مع اسم غير كل شيء، غير حياتي مع اسمي... مع أقصى !!

خرجنا إليهم ونحن متشابكِي الأيدي معًا ، و في كل خطوة كنا نخطوها نحوهم كان قلبنا يدق دقات تمتلئ بالسعادة فهذا اليوم لم يكن يومًا عاديًّا كمثل أي يوم من أيام العام ، بل كان يومًا مميزًا ننتظر قدومه بشوق كبير، فكان بمثابة عيد ميلاد لنا جميعًا، فهذا اليوم كنا موعد لقائنا السنوي فكنا نجتمع في صحبة كبيرة تجمعنا كلنا ، فكانت تأتي عائلة فهد ، و كانت عائلتي تأتي ، وأيضًا عائلة شهد ، و أخيرًا ديفيد .

فنجلس جميعًا على سفرة كبيرة ممتلئة بكل أصناف الطعام الشهي والمشروبات الطازجة المنزلية الصنع ، و الحلويات الشرقية المتنوعة ، فنجلس و نأكل دون أن نفكر في أي شيء ، فقط نتحدث و نسمر ونقذف بعضنا بالنكت و البسمات و الضحكات محطمين كل القيود التي يعرفها البشر من أحقاد و مؤامرات ، و بعد أن ننهي طعامنا نجلس بالقرب من المسبح و نشرب القهوة التي تقدمها لنا روح بنفسها .

نعم يبدو هذا اليوم كمثل أي يوم طبيعي تجتمع فيه أي عائلة ، و لكنه بالنسبة لنا لم يكن كذلك ففي هذا اليوم منذ ثلاث سنوات ولد الجميع مرة جديدة و عادوا إلى الحياة بعد أن أوشكوا على الموت ، فروح نجت من تلك العملية و استطاعت أن تتنفس و تعيش بعد أن استأصلنا منها هذا المرض الخبيث ، و مصطفى استطاع أن يبتسم بحرية و تلقائية دون أن يصطنع ذلك فاستطاع أن يجد فهد بداخله و يسامحه و يسامح نفسه فجعلني ذلك أرى و ألمس هذا الشبه الذي يجمعه بفهد فشعرت وكأن فهد قد عاد من الموت ، و حتى والد و والدة روح على الرغم من صمودهما الرهيب الذي لاحظته منذ اليوم الأول لدخولنا المستشفى إلا أن في ذلك اليوم الذي سمعوا فيه بنجاح عملية روح اختفى كل هذا الجلد و الثبات ، و ظهر بدلًا منه الخوف ، الخوف الذي كان يحتل قلوبهم فقهروه بالدموع مرة ، و الصراخ مرة ، و العناق مرة ، و الضحك مرة أخرى ، و أنا كان لي نصيب من ذلك فقد استطعت أن أنفض عن ظهري هذا الحمل الثقيل والذنب الكبير الذي حملت به رغمًا عني فعندما شعرت بأنفاس روح وسمعت قلبها ينبض لا أعلم ما حدث و لكن تغير بداخلي شيء فأعطاني تلك الثقة التي فقدتها فذهبت إلى مصطفى و أنا أشعر أني خفيف .. حر ، و نظرت في عينه بقوة بدون أن أحاول أن أهرب منه ، أو أطأطئ رأسي كما كنت أفعل من قبل ، فقد ذهب عني إحساس الذنب الذي كان يتملكني فبإنقاذي لروح أنقذت فهد .. و عمر ... و نفسي ...

فوقفت أمامه و قلت له و أنا صافي النفس مرتاح البال و الخاطر لقد عادت.. لقد عادت إلينا .

أما ديفيد فنال جزءًا من هذا النجاح فقد عرف طريق الحوار ؛ فتعلمنا معًا كيف نتحاور بدون أن نتقاتل أو نفكر أن نتقاتل فاستطاع هو أن يفصح لي عن هذا السر الذي اجتاحه كل تلك السنوات بدون أن يخشى

النقد أو اللوم فكان كلما قص لي منه جزءًا كلما كان يتخلص منه رويدًا ... رويدًا ، و عندما انتهى من الرصد كان قد انتهى منه إلى الأبد .

***

« لم يكن وهمًا بقدر ما كان حقيقة... !! »

هكذا بدأ يحكي...

ففي ذلك اليوم الذي سألته أين ستذهب ؟ و من ستختار ؟ حينها استغربت من جوابه هذا ، و كنت سأتسرع و أساله عن ماذا يتحدث ؟ و لكنه لم يحملني هذا و بدأ من نفسه يرصد لي قصة عرفت في النهاية أنه هو بطلها ، ووصلت منها إلى الجواب الذي أردت أن أعرفه ، فبدأ يحكي و قد تغير لونه و اتجهت عيناه نحو زاوية بعيدة وهي تحمل لمعة غريبة وكأنها ذهبت وراء تلك الذكريات ... ذكريات الماضي ، فمن هناك بدأ يحكي .

لم يكن وهمًا بقدر ما كان حقيقة، هذه هو ملخص حياتي يا أقصى فهي أشبه بلعبة تمامًا مثل أحد ألعاب الساحر، هل تعرف ماذا يفعل الساحر ؟

الساحر صنعته إبهار الناس رغم أنها تبدو مهنة صعبة إلا أنها في منتهى السهولة فهو عليه فقط إقناع الناس أن الوهم هذا الشيء الذي يتفق عليه الجميع أنه يصعب تحقيقه هو الحقيقة بعينها، و هذا الجزء يعتبر هو النقطة السهلة في صناعة الخدعة، و كيف لا ينجح...!! فالناس أصبحت تؤمن بما تراه لأن الإيمان عندهم صار مرتبطًا بالأشياء الملموسة و المادية على الرغم من أنها قد تكون كذبة ، أو شيئًا مفبركًا كما يصفون .

أما الجزء الصعب يأتي هنا في تلك المنطقة الخطرة فهو حتى يقنع الناس بتلك الخدعة و هذا الوهم يجب عليه أن يعيش فيه فيتغلغل بداخله ويعرف أسراره .. فهو فقط من له الحق أن يعرف أسراره لأنه هو فقط من يعرف الحقيقة ، و عندما يفعل و يصل إلى تلك المرحلة التي يستطيع أن يميز فيها

بين الوهم و الحقيقة يكون من السهل عليه أن يصدقه الآخرون ، ليس لأنه جعل من هذا الوهم حقيقة بل لأنهم أحبوا أن يصدقوا أن هذا الوهم أصبح حقيقة .

تلك هي حياتي فشطر منها كنت الساحر، و شطر منها كنت المشاهد، وفي كل الحالات لم أختر أن أكون كليهما فقد كنتهما بدون حتى أن أعرف، و عندما عرفت كيف كنت أصبحت طرفًا جديدًا للعبة، أصبحت أنا اللعبة نفسها.

فقد ولدت بين أب و أم لم أرَ مثيلهما فقد غمراني بحب و عاطفة فكانا بالنسبة لي كل شيء ، فقد تعلمت منهما كيف أتحدث ، و كيف أفكر ، وكيف أحلم ، و كيف أخطط ، وكيف أعبر ... قد تعلمت كل شيء فكانا بالنسبة لي حياتي التي أتنفسها و حاضري الذي أكافح له، ومستقبلي الذي أعيش لأجله.

لم أهتم أين أسكن؟

أو أين أعيش ؟

فطالما أنا معهما كان هذا يكفيني.فقد كنت ولدهما الوحيد كما كانا عائلتي الوحيدة، فعشت طفولتي معهما أنتقل بين بلاد العالم فذهبت إلى فرنسا و إيطاليا و إنجلترا و أسبانيا و ألمانيا ... فرأيت البدائع و سمعت الآراء و تعلمت العلوم فكان أبي مهندسًا امتلك شركة كبيرة للعمارة وكانت شركته المنفذة لمشروعات كبيرة في تلك البلاد فكان يسافر ويشرف على تنفيذ تلك المشاريع و كان يأخذني أنا ووالدتي معه ، و في بعض الأحيان كانت مدة إقامته تطول فنقيم هناك ، وكنت أذهب إلى المدرسة التي تختارها لي أمي لألتحق بها .

هكذا مرت أيام الطفولة بين الضحك و المغامرة و التعلم فكانت تلك الأيام أسعد لحظات حياتي، و عندما جاءت أيام الثانوية اختلف كل شيء

فقد قرر أبي الاستقرار في أمريكا فكان لا يسافر عادة و إذا لـــزم الأمـــر لسفره و كان يوجد مشاريع خارجية كان يرسل طاقم من عنـــده ومعـــه شخص يثق به ليدير له الأمور هناك، لذلك خلال تلك الفتـــرة نعمـــت باستقرار واستطعت أن أكون صداقات كثيرة ، و لكن في تلـــك الفتـــرة بدأت اللعبة أيضًا ، و في هذا الجزء كنت أنا المشاهد فبدأت أتلقى أفكار غريبة لم أعهدها من قبل فكان بعض من حولي يناديني " أيها اليهودي " لم أكن أفهم ماذا يعنون بقولهم هذا ؟ فاليهودية دياني و ليست اسمي فذهبت إليهم و أنا أقول لنفسي ربما لا يعرفون اسمي، فعندما كنت أقترب منـــهم وأمد يدي لمصافحتهم و أنطق باسمي لهم كانوا ينظرون لي نظرة العجرفـــة ويطلقون أعينهم علي تتفحصني من فوقي إلى تحتي ثم ينطلقون متجـــاهلين يدي و هم ينادونني " أيها اليهودي " .

كنت في البداية أتجاهلهم فلم أخبر أمي بما حدث فأنا أكبر من أنـــزل لمستوى هؤلاء الجهلة.. نعم اعتبرهم جهلة فكانت أمي دائمًا تبث في نفسي بعض الغرور بأني أعلم الناس و ذو نسل جاء من أنبل الـــسلالات الـــتي توجد على الأرض فنحن أسياد الأرض و سيأتي يوم ما سيكون الآخـــرون عبيدًا لنا ، فكنت هنا أقف و أسأل أمي ألم ينتهِ زمن العبيد ...!!

فكانت تضحك و هي تضم وجهي بين يديها و تقول:

– حبيبي ديفيد زمن العبيد لم و لن ينتهي أبدًا ، هل تعرف لماذا ؟

فأسألها و أنا في شوق لأعرف:

– لماذا ؟

و بعد أن تصمت صمتًا طويلًا ليس لسبب معين إلا لتثير فضولي أكثر، تقطع هذا الصمت بنبرة حادة قوية تخترقني كما يخترق صـــوت طلقـــات الرصاص الهواء فتقول و هي تثبت عينها علي وكأنها تريد أن تعلمني درسًا مهمًا لحياتي:

- طالما يوجد هناك من ينظر إلى ما في يد غيره ، و يرغب به بقـوة محطمًا كل القيود طالما سيستمر زمن العبيد ، فليس بالضرورة أن تكـون ملكي حتى تصير عبدي ، فالعبد قد يكون عبدًا للمال فيسعى وراءه و إن طُلب منه أن يقتل في سبيله، أو عبدًا للسلطة ليحكم عن طريقها فيتحايل و يتلاعب و يظلم ليصل إليها ، أو عبدًا للشهوة فيكون أشبه بالحيوانات التي ليس بها عقل فتساق حيث يريد صاحبها، و نحن يا ديفيـد نملـك في أيدنا السلطة و المال التي تسيطر على كل شيء ، و لكن بقى لنا شـيء واحد ... شيء واحد فقط صحيح أننا حصلنا عليه و لكنه لم يكتمل بعد.

- و ما هو ؟

- الوطن.. !! الوطن يا عزيزي ديفيد .

- و لكن يا أمي أليس هنا وطننا..!!

- لا يا حبيبي ، وطننا هناك في الشرق حيث ولدت أنا و أبـوك ، وأنت أيضًا ، و حيث عاش أجدادنا هناك ، ودفن نبينا .

- تقولين ولدت هناك ، أمي ألم أولد هنا ..!!

- لا ، لقد ولدت هناك في وطنك .. وطنك إسرائيل.

- إسرائيل.

- نعم يا عزيزي هذا هو وطنك.. فهي دائمًا كانت وطننا .

نعم يا عزيزي هذه هو وطنك.. !! نعم يا عزيزي هذه هو وطنك.. !!

ظلت تلك الكلمات تتردد في أذني مسيطرة على مخيلتي فلم أكن أعلم أيجب علي أن أفرح بذلك ، أو أغضب ، فأنا بعد كل تلك السنوات من الترحال و التنقل أكتشف أن صار لي وطن ... فأنا أصبح لي وطن فلـم أعد ضيف على أحد بعد الآن.. فأنا أنتمي لوطن.

جعلني هذا أشعر بالإثارة لبعض الوقت ، ولكن عندما كنت أهدأ أبدأ أفكر بهذا الوطن فأنا لا أعرف أي شيء عنه غير الخلفية التاريخية له ، فالمعرفة الواجب علي أن أعرفها لم يخبرني بها أحد ، لذلك قادتني رغبتي لأن أعرف إلى أن أعود إلى أمي و اطلب منها أن تحدثني عن وطني الجديد إسرائيل .

في الحقيقة لم أفكر أن أسألها لماذا لم تخبرني عن انتمائي لهذه البلد من قبل ؟ فأمي لا تحب التحدث عن الماضي كثيرًا هكذا كنت أشعر فلم تحدثني عن عائلتها إلا قليلًا فأنا لم أعرف أن لي جدة أو جدًّا و عندما كنت أسألها عنهما كانت تقول لي أنهما قد رحلا عنا ، فقد ماتا منذ سنوات طويلة حتى قبل أن أولد أنا ، و كذلك كان الحال بالنسبة لأبي أيضًا فحياته التي أعرفها كانت عبارة عن حكم قالها الأبطال في الروايات والقصص ، قصص جاءت من المئات و المئات من الكتب التي قرأها أبي طوال عمره فكنت في كل مرة أسمع قصة جديدة أكتسب حكمة جديدة و أعرف معها جانبًا جديدًا من شخصية أبي التي أحببتها كثيرًا .

و لذلك كانت هناك رغبة دائمة بداخلي لأعرف من هي عائلتي، جدودي، أصلي، من نحن على الحقيقة ؟ فمنذ أن ولدت كنت أعتبر نفسي يهوديًا أمريكيًا ، فأمريكا هي وطني الذي مهما غبت عنه كنت أعود إليه في النهاية ، و لكن كل شيء اختلف الآن و أستطيع أن أتقبل الوضع الجديد . لذلك كان لابد أن أخترق حاجز الماضي و أعرف كل شيء ، فجعلني هذا أن ألح على أمي لتكشف لي أغطية الماضي ، رغم معرفتي أن هذا قد يسبب لها بعض الألم، و لكن كنت أريد أن أعرف كل شيء، كل التفاصيل. فكيف ذهبنا إلى هناك ؟ و كيف التقت بأبي ؟ و كيف تزوجا ؟ و لماذا تركا إسرائيل وطنهما وجاءا إلى أمريكا ؟ كل تلك الأسئلة و غيرها لم تجبها أمي إلا بجواب واحد، جواب بارد لم يشفِ فضولي فقالت فقط:

- ستعرف كل شيء عندما نذهب هناك.. فكن صبورًا .

و هكذا كنت .. صبورًا ، أسمع ما تقوله لي أمي بدون أي اعتراض أو حتى سؤال فقد كنت أثق بها ، لذلك لم أتصور أنها تخطط لهـذا الـشيء فكنت أستمع لها بدون أي نقاش ذلك لأنها أمي.. فهي عائلتي التي أحبها .

و لكن ، و لكن ما كان يجب علي أن أثق بها ففي تلك المرحلة كانت هي الساحر الذي أتقن إعداد خدعته ، و كنت أنا المشاهد الذي ينتظـر ليرى شيئًا يبهره فيصدقه، وهذا ما حدث فجعلتني أمي أرى ما أحب مـا جعلني أنسى الشك و أصدق أن هذه هي الحقيقة، ولكنه في الحقيقة كان كل ذلك مجرد خدعة... خدعة يعرف أبي و أمي حقيقتـها، و لـيس أبي وأمي فقط بل كل من عاش هناك كان يعرف الحقيقة.

فبدأت أمي تهيئني خطوة ... خطوة لنجاح خطتها ففي البداية بـدأت تعلمني التحدث باللغة العبرية و أعطتني أساسيات العربية فكانت تجلـس معي كل يوم حتى في أيام العطلة لمدة ساعتين تدرس لي و تحـدثني بهمـا لتجعلني أمارس اللغة و أتحدثها بطلاقة وكأني لم أعش يومًـا بعيـدًا عـن إسرائيل ، و لم تكتفِ باللغة فقط بل كانت تقرأ لي بعض الكتـب الـتي تعكس الفكر الصهيوني و تناقش لي أحوال العرب هنـاك و تخـبرني أن وجودهم شيء مؤقت فعاجلًا أم أجلًا سيرحلون من هناك ، لذلك كانت تريني الخرائط التي تعكس المراحل المختلفة لتكوين دولة إسرائيل ، وفي كل خريطة كان تبتسم لي و تقبلني قبلة انتصار و تقول لي :

- ألم أقل لك عزيزي ديفيد ها قد أثبت لك التاريخ صدق قولي .

فكنت أفرح فرحًا شديدًا و يزداد بداخلي الإعجاب ، فعندما كنـت أرى هذا الانتصار و التوسع في دولة إسرائيل كانت تأخـذني الحماسـة وأحيانًا تدمع عيني و أكون بداخلي أتمنى أن أكون معهم و أشـاركهم في تحقيق هذا النصر، فأنا رغم كل شيء كنت مراهقًا متأثرًا بـالأفلام الـتي

صورت لتعكس صورة اليهود الذين ظلموا و اضطهدوا ، وكيف عانوا لأجل تكوين دولتهم ، لذلك كان شرفًا لي أن أشاركهم جهادهم لاستمرار دولتهم و توسيعها فهي في النهاية حق قد سلب منهم و يجب أن يعود إليهم في النهاية، قالت لي أمي ذلك تلك أرضنا و بلادنا.

و بعد أن ملأت أمي رأسي بتلك الأفكار حركت بداخلي نزعتي و انتمائي الوطني لدولتي ، لذلك كان من المتوقع أن أقف على باب حجرة أمي و أبي بعد يوم تخرجي من الثانوية ، و أخبرهما أني أريد الذهاب لدولة إسرائيل ، في البداية كنت خائفًا أن يرفضا فأبي أراد لي أن ألتحق بالجامعة و كذلك أمي ، ولكني كنت مهيئًا نفسي لإقناعهم و لكن عكس ما توقعت حدث فعندما أخبرهما ضحكت أمي و عانقتني و هي تقول لي أنا فخورة بك ، وربت أبي على كتفي وحضنني و قال لي قد صرت رجلًا .

لم أكن أصدق نفسي ، فكل هذا يحدث لأني أريد الذهاب هناك ، لم أفكر و خرجت من الغرفة و كلي سعادة و بدأت أجهز نفسي للسفر ، وعندما صرنا بداخل الطائرة جلست أمي بجواري و كلمتني عن أهمية خدمة الإنسان لوطنه و كيف هو شرف لا يعادله شرف ، و أخيرًا كشفت لي عن خدعتها فأخبرتني أننا فور وصولنا يجب أن أسلم نفسي لأبدأ أول أيام خدمتي العسكرية .

طبعًا صدمت وعندما رأتني أمي هكذا قالت و قد بدا عليها الاستغراب:

- أعتقد أنك تعرف لذلك طلبت منا الذهاب ، ألم تقل لي أنك كم تتمنى أن تخدم وطنك فالفرصة قد جاءتك أخيرًا و صار عمرك ثماني عشرة عامًا و تستطيع أن تلتحق بالجيش لتؤدي واجبك الوطني .

- و لكن يا أمي ... !!

- ماذا يا ديفيد ؟ أتريد أن تتهرب من واجبك .

- لا ، و لكن ...!!

- و لكن ماذا، لا تخف فأنت صرت جاهزًا، وهما سنتان فقط ستقضيهما هنا، و تستطيع بعد ذلك الالتحاق بالجامعة حتى ممكن أن نستقر هنا إذا أعجبك الوضع.. فلا تخف يا عزيزي سأكون أنا ووالدك بجوارك.

منعتني رجولتي أن أتذمر أو أشكو ، أو حتى أواجه أمي بخداعها لي فقد حدث ما حدث و صرت هنا ، فلن يتغير شيء الآن فما كان علي إلا أن أتقبل الوضع الجديد ، و أفعل كما طلبت مني أمي فأؤدي واجبي تجاه وطني .. وطني الذي اعتقدت أني أعرفه .

***

كانت الأيام الأولى سعيدة بالنسبة لي ، فالترحيب و التشجيع الذي تلقيته أزال بداخلي أي خوف أو تراجع فأحببت البلد كثيرًا ، و كان الجميع مذهولًا بلغتي العبرية و طلاقة لساني بالتحدث بها مما جعلني ذلك أن أفتخر بنفسي بينهم أكثر ، وكانت صدمتهم كبيرة بعد أن علموا أني أتحدث بعض العربية ، و هذا جعل العديد من الشباب و الفتيات يلتفون حولي فكنا نتحدث في العديد من الأمور ، و في كل المواضيع ، و كنت دائمًا أنا أكثر من يتحدث وذلك لغزارة المعلومات و الأفكار التي زرعتها أمي بداخلي خلال السنوات الماضية بالإضافة لسفري الطويل و احتكاكي بثقافات مختلفة . لذلك كنت متميزًا بينهم فأحبني الجميع و اهتموا بي، وأنا لا أخفيك فقد أحببتهم أيضًا فشعرت بإحساس الأخوة و الصحبة تجاههم و خصوصًا أنهم كانوا من قومي يحملون نفس قيمي، و نمط حياتي.

كان كل شيء جميلًا ورائعًا فالجو و الطبيعة التي يحيطها التاريخ الذي صنعته أحجار مضت عليها آلاف القرون تجعلك أسيرًا لهذا البلد الجميل فلا ترغب بأن تتركه أو تفترق عنه ، و لكن كل شيء دائمًا ما يتغير ، فقد اندلعت شرارة الانتفاضة في لحظة يا أقصى هناك عند الأقصى فاختفت

ألوان الزهور و بقي فقط لون واحد .. لون الدم . ففقدت كل رغبـــة في البقاء .. فقدهما رويدًا ... رويدًا .

فلم أكن أتصور في يوم من الأيام أني سأحمل هذا السلاح الذي حملتـــه وأوجهه هكذا نحو بشر تتنفس... نحو أرواح تتحرك، نحو أرواح حلمـــت يومًا أن أشكل جزءًا من إنقاذها فأمد إليها يدي و ألتقطها مـــن المـــوت، ولكن الآن صرت من يلقي بها إلى الموت.

فقد صدرت الأوامر بالهجوم فخرجنا في جماعات نمنع الحشود الهائجة التي تسير في الشوارع التي تطالب بما هو حق لها بالتقدم فوقفنا أمامهم فهم كانوا يحملون أحجارًا و نحن نحمل سلاحًا ، وهم كانوا يقفون بثبات و نحن نصطنع الثبات ، هم كانوا ينادون للحق و نحن ندعو لباطل ، هم كـــانوا يريدون الموت بشجاعة و نحن كنا مستعدين أن نقتل من أجل أن نعيش .

و عندما اشتدت الأجواء قسوة و ازداد الهتاف و الصيحات دب فينا الرعب فكانوا يتقدمون نحونا كالسيل الجارف الذي يأخذ كل ما هو أمامه فلا يُبقي على أي شيء يذكر ، فحاولنا أن نثبت أقدامنا ووقفنا في وضـــع المستعد الذي ينتظر الأوامر بالإطلاق ، ولكن صدرت الأوامر من قبـــل فأخبرونا بأن لنا كل الحق أن ندافع عن أنفسنا أمـــام هـــذه الجماعـــات الإرهابية فلنا الحق أن نقتلهم حتى لو لم يكونوا يملكون غير إيمانهم و قطعًا من الحجارة .

فبدأ إطلاق الرصاص، و كان صوت أزير الرصاص مخيفًا فنغمته كانت حادة قاسية فاستمرت في تتابع دون توقف ، و عندما بدأت تهدأ و اختفى الدخان الذي انبعث منها رأيت أمامي الجثث ملقاة في الطرقات بين أطفال و رجال منهم من لفظ أنفاسه و مات ، و منم من كان مصابًا يتألم ، و أمام هذا المشهد وقف من معي وهم يضحكون لأن النصر و الغلبة كانت مـــن نصيبهم فاستطاعوا و لو مؤقتًا أن يفضوا تلك المظاهرة .

أما أنا وفي تلك اللحظة شعرت أن بداخلي شيئًا يحترق فأنا رغم أني كنت واقفًا بينهم إلا أني لم أستطع أن أضغط على الزناد و أطلق طلقات الرصاص. فكنت أنظر بتعجب إلى ما يدور حولي فتحولت الصورة أمامي إلى لون الرماد بداخلها لمسة خضراء و أرضيتها كانت مغطاة بالدم والغبار الكل فيها يتحرك هنا و هناك باضطراب، و أنا واقف بينهم ثابت في مكاني مازلت متألمًا مصدومًا أتهم نفسي و ألومها لماذا لم أطلق الرصاص ؟ هل جبنت أن أقتل ؟ أم لم أستطع أن أقتل ؟

استمر اليوم في صدام حاولت مرات عديدة أن أضغط الرصاص، و في كل مرة أحاول كنت أفشل فأنا لم أقتل أحدًا من قبل ، و لم أتصور أني في يوم من الأيام سأوجه الرصاص أمام أطفال لا تملك سوى الحجارة لتدافع بها عن نفسها، و لكنهم لاموني و قالوا لي:

- اضغط... اضغط .. و لا تترد فهم يستحقون الموت.

و لكني لم أرَ أنهم فعلوا شيئًا ليستحقوا عليه الموت فهم يدافعون عن أرضهم.. بلادهم.. جذورهم، فنحن من كان يستحق الموت. فخلال الشهور التي عشتها هناك شهدت على الظلم الذي يصنعه الجيش الإسرائيلي بالشعب الفلسطيني من اضطهاد فهم يجردونهم من بيوتهم مدعين أية أسباب، ويفرضون عليهم الضرائب الباهظة و الرسوم العالية، ويحطمون كل حقوقهم كمواطنين فيعتقلون أي شخص يشكون به فيأخذونه و يجردونه من إنسانيته فيتعاملون معه كحيوان و يسومونه سوء العذاب ، و بعد سنوات يقضيها في السجن بدون وجه حق يخرجونه ليعود إليهم مرة ثانية ، حتى ... حتى لم يتركوا الفتيات فقد طالت أيديهم القذرة عفتهن فلوثوها بقذارتهم ليحرقوا قلوبهن و قلوب آبائهن .

قد شهدت هناك يا أقصى على قلوب صارت كالحجارة أو أشد قسوة، فلم أستطع أن أتحمل فانهارت نفسيتي و صارت وجوه الأطفال

الفلسطينيين القتلى الأبرياء تطاردني في يقظتي و في أحلامي تصرخ في وجهي و تقول لي:

« لماذا لم تدافع عني ؟ بأي ذنب قتلنا ؟ ».

فكنت أستيقظ مرعوبًا وسط الليل أصرخ في حالة هسترية مصاحبة معها رعشة سببتها إحساسي بالبرد القارس فأصرخ و أبكي حاضنًا وسادتي مستنجدًا بها ، و سريعًا ما انتكست حالتي و دخلت في حالة اكتئاب فلم أكن أرغب بالحياة فلم أعد أتذوق طعمًا لها فعزفت عن الطعام وكأني أريد أن أعاقب نفسي على صمتها ، طبيعي لاحظ الجميع التغير الذي أصابني ولمركز أبي كان الجميع يوليني اهتمامًا بالغًا لذلك نقلوني سريعًا إلى المستشفى ، و هناك قضيت باقي مدة جيشي . ستة أشهر، ستة أشهر و أنا أصرخ.

وبعد أن تحسنت عدت إلي أمريكا، ولكني لم أكن نفس الشخص الذي ذهب. فقد تغيرت بداخلي أشياء كثيرة، وصارت جنسيتي الإسرائيلية بالنسبة لي عبئًا أحمله بداخلي فهي تذكرني بما قد مر ... تذكرني بهذا الظلم الذي شهدت عليه و كنت فيه كالشيطان الأخرس الذي يعرف طريق الحق و لكنه فضل الصمت و الهروب، و بعد صمت طويل صارعت فيه نفسي كان لابد من الحديث لأتحرر من هذا العبء وكأني أردت أن أشارك أحدًا ما بداخلي لأتخلص من بعض ما أشعر فلم أجد خيرًا من أمي فهي من رسمت لي الطريق ، و أحكمت ضبط اللعبة فذهبت إليها تاركًا موقع المشاهد لها لأحتل دورًا جديدًا لأكون الساحر الذي وحده يعرف الخط الفاصل بين الخدعة و الحقيقة .

***

كانت الحجرة مغلقة تقدمت نحوها ببطء و أنا أشعر ببعض الخوف.. لا أعلم لماذا ؟ ربما هذا بسبب لون الباب البني القاتم فهو يخفي كل شيء

وراءه، أم ما سوف أجده وراء هذا الباب ما كان يخيفني حقًا ، و بدون أن أتقدم خطوة أخرى صحت عليها :

– أمي... هل لي أن أتحدث معكِ ؟

فتحت لي الباب و هي تنظر إلى عيني، تطلعت كثيرًا إلى... ثم قالت :

– طبعًا عزيزي ديفيد ، تقدم ..

و بعد أن جلسنا انتظرتني أمي لكي أبدأ و أقول لها ما أريد، و لكني كنت خائفًا.. متوترًا.. لا أعرف من أين يجب أن أبدأ، حاولت أن أنطق بعض الكلمات و أن أقول شيئًا ، ولكن كان لساني يتوقف كلما حاولت

– ديفيد .. ما بك ؟ هل من خطب ؟

– لا ، كل شيء على ما يرام ... و لكن أريد أن أتحدث معكِ قليلًا.

– أكيد تفضل ... عن أي شيء تريد أن تتحدث، أنا أسمعك.

كنت مازلت مترددًا، و لكن لساني فجأة نطق فقد تذكر عقلي الصور المتكررة لمشهد الموت و القتل فقلت بنبرة حادة واضحة كانت شبه صرخة:

– لماذا خدعتني ؟ لماذا أخبرتني أننا أبطال ؟ و ما نحن إلا بعض لصوص ..!! لماذا كسرتِ قلبي يا أمي ؟ لماذا جعلتني أمر بهذا ؟

– ديفيد .. عزيزي ديفيد أنا لم أرغب بيوم واحد أن أجرحك أو أؤذيك ، أنت ابني ... ابني وحدي ، هل تتذكر هذا يا ديفيد ؟ أم نسيت أني أمك .

– أتذكر ... نعم أتذكر جيدًا، ولكنك أنتِ من نسي أني ابنك... فأنتِ دمرتني يا أمي ، دمرتِ ابنك بيدك فأنتِ أخذتني إلى أكذوبة وجعلتني أصدقها ، لقد خنتِ ثقتي بكِ يا أمي .

- لا .. لا يا ديفيد أنا لم أفعل كل شيء قلته لك كان حقيقة.

- هذا يكفي ... هذا يكفي، توقفي عن إلقاء أكاذيبك علي، كيف تقولين أنكِ لم تخدعيني ؟ فما معني ما رأيت، لقد سلبتم أرضًا ليست لكم وادعيتم أنها كانت لكم، و لكنها لم تكن يومًا لكم فأنتم كنت ضيوفًا عليها كما أنتم عليها الآن، فتوقفي عن ادعائك هذا.. توقفوا ..!!

- ديفيد أنت لا تعلم ماذا دفعنا من أجلها ؟

- ماذا ستكونون دفعتم غير الغدر، و الحقد ... للأسف يا أمي أنا لم أعد أصدقك بعد اليوم.

- توقف ... توقف و لا تذهب ، و اسمعني إلى النهاية ... ألم تكن ترغب أن تعرف عن جدودك، و حياتنا قبل أن ننتقل للعيش هنا... سأخبرك بكل شيء، فقط اسمعني و تستطيع بعد ذلك أن تذهب.. و أعدك أن كل ما سأقول حقيقة، فهل تعدني أن تستمع إلي بدون أن تبدأ بالحكم علي.

و بعد أن وعدها بدأت تقص لي، فعادت إلى البداية حينما كانت مازالت طفلة صغيرة تلعب في ساحة المنزل مع باقي أطفال الحي في مدينة يافا... فقالت لي :

- كنت صغيرة ... كنت أبدو صغيرة، و لكن بداخلي لم أكن كذلك فما شهدت عليه جعلني أكبر قبل أواني.فموت و فناء عائلة أمي وأبي جعلني أتساءل عن طبيعة تلك الحياة التي عندما تخرج إليها تصرخ وعندما تخرج منها تتألم، فشهدت على آلامهم ، و تخيلتها وهم يحاولون أن يحتفظوا بأنفاسهم الأخيرة في غرف الغاز.. تخيلت يد جدي و جدتي و هي تتشابك لآخر مرة مودعة تلك الأيام التي قضوها في الألم.

ماتوا ...

ماتوا جميعًا و لم يتبقَّ لي من عائلتنا الكبيرة سوى أبي و أمي بآلامهما وأحزانهما و خوفهما ، فعشنا معًا أيامًا و نحن نخطط كيف نصل إلى تلك الباخرة التي ستبحر بنا إلى حلم الشرق إلى الأمان و الهناء، و لكن في تلك الأيام ضاع منا أبي و لم نعلم شيئًا عنه فبقيت مع أمي فكنا نهرب و نختبئ في أقذر الأماكن و أشدها ظلمة حتى لا يرانا أحد ، و عندما كنا نسمع صوت أقدام تتحرك كانت أمي تكتم أنفاسي بيدها فلم يكن يتبقى سوى صوت ضربات قلبها الخائفة ... هناك عشنا مع الجوع و الخوف والحرمان، و عندما قربنا أن ننجو و صار بيننا و بين الفرار خطوات أصابت أمي طلقة رصاص و ماتت و هي تمسك بي بين أحضانها.

هربت ... استطعت أن أنجو بنفسي من الموت فالتقطني أحدهم وساعدني أن أركب معه في الباخرة التي ستبحر نحو الحلم... نحو الأمان ... نحو حضن أبي، و عندما وصلت هناك بدأت أبحث عن أبي و بعد أيام قضيتها في خوف و اضطراب استطعت أن أعثر عليه، فرجعت إليه و أنا لا أعلم كيف أخبره عن أمي ؟ فعندما وقفت أمامه و نظرت إليه و دموعي تغطي وجهي علم كل شيء و سقط يبكي و يصرخ، كان الجميع حزينًا بعد أن عرفوا قصة المعاناة الطويلة التي عشناها فمدت الأيادي من كل اتجاه و ساعدتنا فوفروا لنا منزلًا و عملًا لأبي.

بدأت أتعايش مع الوضع الجديد محاولة أن أنسى كل شيء حزين قد مر فكنت أقضي وقتي في اللعب مع أولاد الحي الجديد فبنيت عالمًا جديدًا لي تاركة كل المخاوف و الأحزان خارجه ، و لكن صوت الصراخ والخلاف الدائم الذي كان يأتي من حجرة أبي ، تلك الحجرة التي كانت مقرًا يجتمع فيه المستوطنون اليهود الذين توافدوا إلى فلسطين سنة بعد الأخرى حتى صار عددهم كبيرًا كفاية لمواجهة الفلسطينيين و محاربتهم يخيفني و يهددني ، فلم أكن أدري ما يحدث بداخل تلك الغرفة ، و لكن كانت تلك الأصوات تفزعني ... ترعبني فكانت تلك الحجرة بالنسبة لي هي الغول الذي سيأكل كل أحلامي.

أخبرتني بما صنع والدها ... جدي، و باقي المستوطنين قبل حرب ٤٨ من قتل و تخريب و استيلاء على المدن و القرى الفلسطينية، و اعترفت لي بما جعلها تخفى تلك الحقيقة إلى الآن فقالت:

– لم أكن أصدق أن أبي و من معه يستطيعون أن يفعلوا ذلك. فكيف لمن تعرض للعذاب و الاضطهاد و الظلم يومًا ما يستطيع أن يفعل هذا تجاه مواطنين مثله أبرياء.. كنت ناقمة عليه ... كنت أكرهه.. كنت أشعر بالاشمئزاز منه ، و لكنه عندما قتل على أيديهم تغير بداخلي ذلك الإحساس و دفنت تلك الحقيقة التي عرفتها عنه بداخلي ، و تحول الاشمئزاز الذي حملته له إلى كره لهم ، و بعد أن مرت السنوات و قابلت أباك هناك قررنا أن نترك البلد و نهاجر إلى أمريكا و بدأ أبوك عمله و نجح هناك .. لم أكن أرغب أن أحملك كل هذا الحمل و أنت صغير لذلك هربت من أسئلتك بصمتي فلم أكن أرغب أن تتلوث... و أن يتحول قلبك هذا إلى... إلى وحل .

أخبرتها أنها لوثتني بالفعل ففي اليوم الذي سمحت لي بالذهاب هناك انتهى كل شيء وبدأ عهد جديد من حياتي، فكان علي أن أدفع ثمن تلك الدماء التي سقطت إلى بقية حياتي ... فكان يجب علي أن أنقذ الآلاف و الآلاف حتى أخلص نفسي من هذا الذنب الذي لصق بي و تلك المعاناة التي سببها أحد غيري لمن ليس لهم أي ذنب.

***

في هذا اليوم وقف أمامي عاجزًا يترنح من الخجل و قال :

– نعم يا أقصى أنا الآن أعترف لك أني أذنبت صحيح أنا لم أطلق أي رصاص، ولكني صمتُّ و شاهدهم يقذفون أبرياء و يقتلونهم بدون رحمة أو إنسانية، و يقضون على إنسانيتهم، وإذا سألتني عن الظروف و إن تغيرت

و أجبرتني أن أختار... فكن متأكدًا أني في هذه المرة سأختار أن أصـــرخ ، ولن أصرخ فقط بل سأحارب أي ظلم أشهد عليه و لو كلفني هذا حياتي.

و الآن و بعد أن مضت كل تلك السنوات صرت أنظر إلى ديفيد نظرة مختلفة فعندما نجلس معًا على طاولة واحدة لا أعتبره طرفًا ثالثًا ، و لا أراه أنه عدوي .. بل أشعر بأنه العدو الذي كسب صداقتي و مـــودتي لـــيس بحيلته الواسعة و لكن بشهامته المجردة من أي دفاع أو غرض .

فقد اكتشفت أنها حياة واحدة نعيشها ... نفس واحد نتنفسه... جسد واحد نملكه... روح واحدة لكل منا ... فما الشيء الذي يستحق أن ننفي تلك الحياة الواحدة لأجله، و نضيعها وسط أحقاد و مؤامرات...

أيجب أن تضيع وسط كم من البغض و الكراهية تحرق كل شيء و لا تبقي غير الرماد الأسود... أيجب أن نضيعها وسط الصراخ فـــلا يعـــود لصوت المنطق وجود.

أنا اسمي أقصى، عشت حياة واحدة و مازلت أعيـــشها ، وحـــتى إن عادت بي الأيام وولدت من جديد سأعود و أعيش تلك الحياة الواحـــدة سأعيشها لهدف واحد، و حلم واحد، و غاية واحدة... سأعيشها لأجـــل أن أعيد الحق لأصحابه... سأعيشها لأجلي و لأجلكم ...

سأعيشها للأقصى ...

فأي حياة تعيشونها أنتم ؟

***

الفصل الخامس عشر

أبي

إلي أبي ...

أعلم أني لم أرك يومًا في حياتي...

صحيح أني حلمت أن تحدث المعجزة و تظهر أمامي وتقول لي « ابني لقد عدت.. لقد عدت » .

فتفتح ذراعيك الكبيرة ، و تضمني إليك بقوة و تقربني من حضنك، وتقبل جبيني، و تمسح علي وجهي، وتهمس لي في أذني بألا أخاف فتخبرني أنك صرت معي ،أنك هنا و لن تتركني مرة ثانية .. لن تتركني أبدًا.

و لكن هل للقدر الذي فرقنا يومًا هل له أن يجمعنا معًا من جديد ؟

في الأغلب لا ...

ففي تلك الحياة لا يلتقي إلا الأحياء، فليس للأموات نصيب من ذلك، و لكن لا بأس... لا بأس فأنت أصلًا كنت بجواري فلم تفارقني طوال تلك السنوات الطويلة الماضية فكنت معي.. دائمًا معي .. تعيش معي .. تتنفس معي .. تغضب معي .. تحلم معي .. تبكي معي .. تضحك معي .. تخاف معي ..

فأنت ....

أنت ......

أنا ...

لا ..

لا ... توقف .

لا تصدقني ، فأنا أكذب ...

أنا أخدعك ..

أوهمك بهذا الكلام حتى لا تحزن ...

حتى تصدق أني لا أبكي من داخلي...

فأنا يا أبي انتظرت... آه لو تعلم كم انتظرت.. !!

كم انتظرتك و أنا أراقب الطرقات و أتأمل في الإسفلت، و أدقق على كل قدم تعبر عليه متفحصًا كل وجه يتحرك متخيلًا أنه أنت. فأنتفض مرة و يرتعش قلبي مرات بشوق و عنف إذا ما اقترب شخص غريب من مدخل منزلنا أو مر...

آه يا أبي ... هل تعلم كم أحببتك ؟

قد أحببتك لدرجة أني أحببت كل ما تحب، فبحثت عنك وسط أمواج البحر الذي كنت تعشق، و حدائق التفاح الذي كنت تفضل، و بين أجنحة الخيول التي كنت تطير معها ... فأنا يا أبي أحببت الموت لأنك صرت جزءًا منه ... نعم أحببته فذهبت هناك لألقاك.. لأقترب منه ولو خطوة بسيطة و ألاقيك، و لكنه مع الأسف خاصمني ...

عاداني و عاندني ...

وابتعد عني بأقسى الطرق فذهب في طريقه بعيداً عني، و أخذ معه باقي الأحبة و تركني وحيدًا أبكي عليهم..

يا أبي ... قد لا تصدق أني حاربت لأجلك... !!

فأنا حاربت ، حاربت العالم لأصل إليك ... لألمس خطواتك و أمشى على خطاك، لأكمل ما بدأت، و أنهيه في الصورة التي حلمت، فأنا لم أيأس يومًا أو أتراجع، فأنا هذا الولد الذي ولد ليجد أباه يحارب بحلمه و يحقق إرادته.

فأنا يا أبي أقصى ...

ابنك أقصى ...

ابنك الذي لم يعرف من هو ؟

ابنك الذي عندما حاول أن يعرف نفسه.. فشل ، و لم يعرفها إلا بعد أن عرفك أنت.

و لكن كيف عِرفتك ؟

كيف لي أن أعرفك ؟

تستطيع أن تسألني ... تستطيع ، فأنا سأقول لك كيف :

- قد عرفتك يا أبي ليس من صوتك الذي لم أسمع، و ليس من ضحكتك التي لم أشهد، و ليس من حضنك الذي لم أشعر به، فأنا لم أعرفك من كل هذا...

فأنا قد عرفتك من شيء واحد ..

شيء واحد ظل إلى الآن معي ... يلازمني أينما كنت ، و أين ذهبت ... فأنا يا أبي عرفتك... عرفت من تكون ... عرفت من أنا ...

من اسمي ...

فأنا اسمي أقصى ...

أبحث عن الأقصى ... كما بحثت أنت.

أحببت الأقصى ... كما أحببته أنت.

قاتلت من أجل الأقصى ... كما قاتلت أنت.

فأنا و أنت كنا دائمًا معًا، و لكن في عالمين مختلفين، فأنا في عالم الحياة، و أنت هناك وسط عالم الموت، و الآن بعد كل تلك السنوات صار لي أن أقول لك :

أبي أنا أحبك.....!

كتبت تلك السطور الأخيرة له هو ... لأبي الذي علمني كل شيء رغم أنه لم يقل لي أي شيء، فأنا ... أنا كتبت له هذا لأذكره و أخبره أن ابنه أقصى مازال في طريقه إلى الأقصى، و أني لم أنسَ و لن أنسى الأقصى... فأنا اسمي أقصى و سأذهب يومًا ما إلى الأقصى.

قد لا يصدق المرء نفسه بعد مرور كل تلك السنوات فيظن أنه في حلم...

نعم في حلم، حلم قد مر عليه دهر بأكمله سنين و شهور و أيام قضى بعضها في سعادة و فرح، و البعض الأخر في تفاؤل و أمل، و بعضًا منها في يأس و إحباط، و بعضًا آخر في انتظار، و لكنها أيام و انقضت، انتهت و لم يعد باقيًا منها سوى تلك الذكرى التي تحفظها بداخل دفاتر قديمة كتبت مرة بقلم يبتسم، و مرة بقلم يرتعش، و مرة بقلم يحفر بقسوة بين السطور...

و تجدها أيضًا بين اليومات الصور التي تعيش بداخلها ذكريات ملونة بالأبيض و الأسود ، و ذكريات أخرى فيها كل الألوان فمرة تنظر إليها بعين الحسرة ، و مرة تنظر إليها بعين الابتسامة.

و حتى الحجارة كان لها نصيب في حفظ تلك الذكريات فهي ينقش عليها أسماء كانت بيننا في يوم ما عاشت و ضحكت و بكت، و الآن... والآن صارت تحت التراب...

جزءًا من التراب...

صارت جزءًا من الماضي ....

قد مرت أعوام على نشر كتابي كتبت فيه تجربتي...

قصتي ...

حياتي...

كتبتها بصدق دون تزييف أو كذب، كنت راضيًا عن كل كلمة فيها فخورًا بكل حرف و كل حدث قد مر مهما كان مؤلمًا ، فخورًا بكل كلمة صرخت بها لأني لم أكن أصرخ بلساني فقط بل كنت أصرخ و أعبر بلسان الجميع راجيًا أن يسمعني الناس من جميع الأنحاء و يشاركوني في هذا الواقع .

و لكن هل ندمت علي شيء قلته ؟

في الحقيقة لا ... لا أعتقد ذلك .

فأنا لم أندم يومًا ...

لم أكن لأندم، و لكن بعد ذلك اليوم تغير كل شيء..

ففي هذا اليوم صار بالنسبة لي ذلك المستحيل حقيقة، و صار هذا الحلم واقعًا ، ففي هذا اليوم وقف أمامي... عيناه تواجهان عينيّ ، وروحه تتعرف على روحي ...

فهو كان هناك واقفًا يتطلع إليّ ...

إليّ أنا ...

كان اللقاء بيننا صادمًا...

بل قاتلًا ...

***

أيمكن أن تتشابه العينان إلى هذا الحد القريب ...

أيمكن أن تتفق رسمة الوجه كما تتفق الآن...

أيمكن أن تتقوس الأنف نفس التقوس الذي قوس من قبل ...

أيمكن أن تنقسم معالم الوجه الواحد إلى وجهين .....

أيمكن أن تكون في عمرين مختلفين ....

أيمكن أن تتطابق الكفان فيصيرا وجهين لعملة واحدة ....

أيمكن أن يتفق كل شيء إلى هذا الحد .....

صار كل شيء ممكنًا ...

فعندما وقف أمامي اعتقدت أني أشاهد صورة لي... تشبهني ولكنها كانت تكبرني بثلاثين عامًا . فقد كان له نفس العينين، و نفس الشفتين، حتى أن تقويسة أنفه كانت تشبه تقويسة أنفي، و شعره، شعره الرمادي المتطاير كان ناعمًا كشعري، و يده التي انكمش الجلد بها و برزت العرق فيها كانت مثل حجم يدي.

فهو كان أنا، و لكن بفارق زمني مقداره ثلاثون عامًا......

لم يتحدث ....

كان فقط هادئًا يبكي مرة و هو يداري دموعه وراء كف يده ، ويبتسم مرة....

يقترب خطوة ، و يبتعد عشرات الخطوات ....

ينطق بكلمة واحدة ، ثم يظل صامتًا لساعات ....

يشير بيده إلي أحيانًا، ويظل ساكنًا باقي الأوقات....

أما أنا فقد كنت منكمشًا بداخلي.....

فبداخلي كان يوجد الملايين و الملايين من المشاعر المختلفة فمرة كنت سعيدًا ، و مرة كنت في غاية السعادة، و مرة كنت خائفًا ، و مرة كنت مترددًا ، و مرة كنت حزينًا ، و مره كنت أحاول أن أكتم دموعي ، ومره كنت أضحك من داخلي ، و مره كنت أريد أن أجري إليه ، و مره كنت مترقبًا ، و لكن ....

و لكن ....

في كل مرة من تلك المرات كنت صامتًا....

لم أعبر عما يدور بداخلي ...

فقد كنت منتظرًا ....

كنت أنتظره ....

أنتظر أبي، أنتظره ليضمني إليه كما حلمت دائمًا، أنتظره ليفسر لي كيف مازال حيًا حتى الآن ؟ و لماذا انتظر كل هذه الوقت ليعود إلينا ؟

فأين كان ؟

و كيف قضى كل تلك المدة ؟

و لماذا عاد الآن بالتحديد ؟

هل كان معتقلًا كل تلك السنوات الماضية ؟

هل كان أسيرًا لا يملك وسيلة للعودة إلينا ؟

وهل ..؟

و هل ...؟

و هل ....؟

ظلت الأسئلة بداخلي ، في دائرة الصمت ، وسط احتمالات .... هل سيجيب ، أم سيظل صامتًا لا يتحدث ؟ و لكنه فجأة انفجر ...

و تحدث بكل شيء ...

و بدأ يجيب عما كنت أبحث ....

و عندما انتهي نظر في عيني و قال « ابني ... لقد عدت » .

***

بدأ يتحدث ، وكأنه يحكي رواية.. يحكي قصته و ما حدث له معبرًا بكلمات كانت بالنسبة لي جوفاء خالية من أي معني... خالية من الحقيقة التي كنت أبحث عنها ... خالية من كل شيء حلمت به يومًا، و لكن رغم ذلك ظل يتحدث وكنت أنا أنصت فقال لي :

كانت أيامًا صعبة...

معظمها بسيطة ... فارغة، و لكنها كانت صعبة...

فلم أكن أعرف من أنا ....

كنت تائهًا ...

صامتًا دائمًا ، أهرب من العيون التي تهيم حولي ، و أحارب الشفقة التي تهاجمني من الجميع ، فتارة كنت أصطنع بأني لا أشاهدهم ، و تارة أخرى كنت أشكرهم على مشاعرهم .

ساعدوني ....

حاولوا أن يساعدوني كثيرًا....

و لكني رفضت ذلك، قاومته بقوه كبيرة ... بكل قوة كنت أملكها، فكنت أشعر بأني لست في حاجة لمساعدة من أحد... شعرت بأني قوي

كفاية لأواجه هذا وحدي ، فكنت أؤمن بأني سأجد وسيلة و أعود إليكم في النهاية، و سنلتقي رغم هذا الشتات ، و هذا البعد .

انظر ...!!

انظر يا أقصى ،فأنا كنت على صواب ، فها نحن قد التقينا ...!!

فنحن ها هنا معًا نتحدث معًا، فأنت تجلس أمـــامي الآن .... و أنـــا أجلس أمامك...

معًا ..

جنبًا إلى جنب.

اقتربت منه، حاولت أن أقترب... حاولت أن أفتح قلبي و روحي له، حقيقةً حاولت، و لكن عندما اقتربت منه... عندما صارت بيننـــا تلـــك الخطوات القليلة بدأت أشعر بأنفاسه تنعكس على وجهي، فرغم إنها كانت خطوات قليلة إلا أنها كانت كفيلة أن تفصلنا عن بعض، فوقفـــت و أنـــا متصلب لا أشعر بشيء و لكن رغمًا عني... و رغم كل شيء نطق لساني تلك الكلمة و ناديته..

- أبي ...
- أبي .....

كان الذهول واضحًا عليه فاختلط بنكهة الفرحة التي فاحت رائحتها مع تساقط الدموع و نزولها كأنها نهر يجري من عينه.

حاول أن يقترب مني و أن يأخذني إليه و يقربني منه، ولكني بـــسرعة ابتعدت و أغلقت عيني سريعًا محاولًا أن أنسى منظره هكذا .. محاولًـــا أن أنسى أنه أبي. فرغم أني أغلقت عيني لكني لم أستطع أن أغلق أذني الـــتي كانت تتلهف لسماع صوته فكانت كلماته حزينة تهز المكان... هزني هزًّا ... فقال :

- يااااااااااا ، يا إلهي كم اشتقت لسماعها ... كـــم اشـــتقت لصوتك الذي لم أسمع و أنت تناديني بأبي، ناديني... ناديني يا أقصى بها مره ثانية، ناديني يا بني فأنا أريد أن أسمعك تناديني أبي، أقصى ابني هل تقولها لي مرة ثانية ؟ من أجلي !! أرجوك ...!

قلت له و كل شيء في يهتز :

- سأفعل، سأفعل و لكن هل تعتقد أن هذا سيعيد الماضي الـــذي انقضى ؟ هل هذا سيعوض بعدك عني ؟ هل هذا سيجعلك أبي من جديد ؟

تحولت ملامح الرجاء في وجهه فوثبت على خطوط غير واضحة فبدا وكأنه يريد أن يدافع عن نفسه فقال بصوت مبهم ضعيف:

- ابني ... أقصى ...!! أنا .....

و لكني كنت غاضبًا فلم أترك له المجال فهاجمته بدون أي رحمة فوجهت إليه لكمات في هيئة كلمات، كلمات قاسية لا تعكس سوى روح إنسان غاضب:

- أنت ماذا يا أبي ؟

تريد أن أناديك أبي، تفضل فأنا أناديك أبي، و لكن لا تظن أني بنطقي لتلك الكلمة سيتغير أي شيء، فأنا لي الحق أولًا أن أعرف أين كنت ؟ فأنا كل تلك السنوات أعتقدك ميتًا ...هل تعلم كيف كنت أشعر ؟ فأنا تألمت كثيرًا لأجلك، لو تعرف كم تألمت ؟ لو تعرف كم تألمت أمي ؟

فأين كنت ؟

أين كنت يا أبي ؟

حاول أن ينظر إلي عيني و أن يخاطبها بما لا يستطيع أن ينطق به لسانه، و عندما عجزت عينه أن تتواصل معي نطق لسانه بكلمات، و قال يسألني وكأنه لا يعرف الجواب:

- أغاضب أنت مني يا أقصى ؟ أغاضب أنت من أبيك ...!!

لم أجد سوى هذا الجواب و تلك النبرة فخرجت مني هكذا... بدون أي تصنع، وبدون أي صعوبة، خرجت لأنها أخيرًا استطاعت أن تظهر بعد أن كانت في الخفاء لأكثر من ثلاثين عامًا:

- وتسألني ...!!

نعم، أنا غاضب، غاضب جدًّا، و أكثر ما يغضبني هي نفسي التي لم أعد أعرفها بعد الآن ، فأنا لم أتوقع أن أكون هكذا، لم أتوقع أن أشعر بكل هذا. فأنت لا تشعر بما يدور في نفسي فطالما تمنيت أن تحدث تلك المعجزة و تعود إلينا ، كنت أسهر و أفكر بك أفكر بكل شيء فيك ، فرسمت في خيالي مشهدًا مختلفًا للقائنا، فكنت فيه الأب الحنون الذي يلتقي مع عائلته بعد طول غياب فيضمهم إليه و يستشعر رائحتهم التي كان مشتاقًا إليها كثيرًا، و لكن الآن لا أعلم ماذا حدث ؟ فعندما رأيتك أمامي...

واقفًا أمامي هكذا تتنفس وكأنك كنت دائمًا هنا، لا أعلم ماذا حدث ؟ لا أعلم لماذا اختلف إحساسي بتلك اللحظة ؟

فأنا الآن لا أتذكر سوى اللوم، لا أتذكر إلا أمي التي عاشت تذكر اسمك و ماتت وهي تعتقد أنها ذاهبة للقائك، أنا يا أبي لم يعد لي رغبة في أي شيء... إلا شيئا واحد ... فقط شيء واحد ...!!

- ما هو يا ولدي ؟

سألني بلهفة فكان يبحث عن طريق لنجاته فقلت له :

- أن أعرف...أريد أن أعرفَ أين كنت كل تلك السنوات ؟ فأنا لدي الحق أن أعرف أليس كذلك !!

- طبيعي، يجب أن تعرف، وستعرف كل شيء، ولكن في البداية أريد مساعدتك في شيء، فهل تساعدني ؟ هل تساعدني يا ابني ؟

كنت أريد بقوة أن أقول له سأفعل أي شيء، وكل شيء لأجلك... فأنا يا أبي ابنك الذي يحبك كثيرًا، ابنك المشتاق إليك كثيرًا... ابنك الذي انتظرك كثيرًا، و لكني لم أقل له أي شيء من ذلك بل صرخت فيه وأخبرته بأني لن أفعل أي شيء لأجله إلا بعد أن يقول لي لماذا تركني ؟ لماذا لم يعد إلينا ؟ بعد أن يقدم إلي الاعتذار الذي قد أقبله..

بالفعل تحدث، و قال لي أشياء لم أتصورها، فلم أتخيل أنه مر بتلك الظروف القاسية ، لم أتوقع أن أحدًا غيري تعرض لما تعرضت له ، و ذاق نفس الألم الذي مررت به منذ سنوات مضت ...

كان يتحدث و كلما كان يتحدث أكثر كلما كنت أشعر بالضيق أكثر من نفسي، فكيف لي أن أغضب منه هكذا ؟ لماذا لم أنصت إليه أولًا ؟ لماذا دائمًا أغضب على من أحب رغم أن الأولى لي أن أضمهم إلي و أقربهم مني؟

تحدث، فعاد إلي البداية، عاد إلي اليوم الذي تركني فيه و ذهب... عاد إلى تلك اللحظة التي التفت للوراء و أدار ظهره لنا ... عاد ، و من هناك بدأ يتحدث ...

تعلم يا أقصى عندما ذهبت كنت مازلت صغيرًا... طفلًا صغيرًا لا يملك من سنين الحياة سوى عامين، عامين فقط فعندما بدأت تتحدث كان أول شيء نطقت به هو كلمة أبي ، تعلم حينها كنت سعيدًا ، طائرًا من السعادة فابني العزيز قد كبر و صار يناديني أبي ، فعندما امتدت يدك الصغيرة إلي و كان كل شيء منك يناديني لأضمك حينها شعرت بشوق كبير لك فكنت أريد أن أجري إليك و أشم رائحتك و أقول لك ابني

أبوك فخور بك كثيرًا ، ولكن رن الهاتف فوقف بيني و بينك فذهبت لأجيبه و تركتك تنتظرني، و كانت تلك المرة الأولى التي أتركك فيها .

و من تلك اللحظة بدأ كل شيء فرغم أني لم أكن أريد أن أذهب ، ورغم أن ما كان يجب أن أتركك إلا أنه كان يجب علي الذهاب فالفرصة التي سعيت إليها و جريت وراءها سنين عمري منذ فكرت أن أكون صحفيًّا جاءتني في الوقت الذي لم أكن أريدها فيه .

فقد جاء الإذن أخيرًا، فبعد سنوات و سنوات من الانتظار أعطوا لي الإذن أن أذهب هناك... إلى الأقصى ، أذهب لأكون وسط قيمة عشت من أجلها سنوات و سنوات من عمري ، فأنا بعد كل تلك السنين سمح لي أن أذهب إلى القدس ، سمح لي أن أسجد على أحجاره و أملأ نفسي من رائحته التي مازالت موجودة من آلاف السنين ، و لكن كان الثمن غاليًا .. غاليًا للغاية فكان يجب علي أن أذهب و أن أتركك أنت و والدتك.. كان علي أن أدير ظهري لكما و أشاهد دموعكما التي كانت غالية علي كثيرًا...

و لكني ذهبت، فكان علي الذهاب، فرغم كل شيء كنت يجب أن أكون هناك، ليست بطولة مني و لكني شعرت أنه واجبي فكان لابد أن أفي بالعهد الذي قطعته على نفسي... العهد الذي عاهدت فيه الله سرًا بأني سأفعل أي شيء، وكل شيء من أجل القدس و المسجد الأقصى... من أجل القضية الفلسطينية التي كانت تتعقد يومًا بعد الآخر، و تشهد علينا وكم نحن أصبحنا أمة ضعيفة مفككة لا تحرك ساكنًا ، و لم تعد تحفل بدماء إخوانها .

و لكن كان الثمن يا أقصى أن أتخلى عنكما ، و لكن صدقني لم أكن أريد ذلك فقد كنت أريد أن أؤدي واجبي و أعود إليكما في النهاية مرفوع الرأس منتصرًا و لو حتى بإنجاز بسيط ...

فكنت أريد أن أفعل أي شيء و لو حتى بسيطًا ، ولكنهم لم يتركوا لي الفرصة فكانت نيرانهم أسرع مني فانطلقت في وجوه الأبرياء بدون أي ذنب أو إثم ، فلم أستطع أن أتمالك نفسي فنسيت أني صحفي لا أملك سوى سلاح القلم ، فتركت موقعي فوقفت أمامهم كمحارب يحمل في يده سلاحًا ، سلاحًا التقطه من الأرض ... سلاحًا من صنع الله ، سلاحًا بسيطًا و لكنه عظيم قد يكون في بعض الأحيان فتاكًا.

فأنا قد وقفت بينهم ذلك اليوم يا أقصى تاركًا الكلمات و ممسكًا الحجارة أقذفها قذفًا في وجوهم، أرميهم بها مدمرًا كل القيود و كل الظلم الذي جلبوه علينا ...

و لكن ....

و لكن كان يجب أن أدفع ثمن هذا...

فعندما تخليت عن القلم و تركت يدي تلتقط سيف المحارب كان علي أن أستعد لأن أتألم... لأن أنزف للموت ... لأن أكون أي شيء غير إنسان بالنسبة لهم .

فعندما نزلت علي طلقات الرصاص كان صوت أمك يناديني عبر الهاتف الذي انقطع وسط ضجيج وصرخات و بكاء الأطفال الخائفة ، حينها شعرت بإحساس مختلف ...

شعرت أن هؤلاء الأطفال هم أنت ...

أنت يا أقصى ابني الذي أحبه كثيرًا، ابني الذي قد أتخلى عن حياتي لأجله ، فعندما تملكني ذلك الشعور و تلك المخاوف تركت كل شيء أمامي و جريت إليهم فلم أكن أريد إلا أن أحميهم من أي خطر ...

كنت خائفًا عليهم من أي حزن ...

من أي ألم قد يتعرضون له ..

فوقفت أمامهم، تاركًا كل خوف شعرت به، فلم يبقَ بداخلي إلا خوف واحد، واحد فقط فكان خوفي عليهم هو كل ما بقي .. ففي تلك اللحظة لم أخشَ الموت...

لم أخشَ أني قد لا أكون موجودًا مرة ثانية في تلك الحياة ...

فأنا كنت هناك واقفًا خائفًا ليس على نفسي، و لكن خائف من أن يتأذى هؤلاء الأطفال لأني عندما كنت أنظر إليهم يا أقصى كنت أنظر إليك أنت ، فأنا كنت أراك فيهم ، لذلك كنت سعيدًا و أنا أدافع عنهم...

بل كنت فخورًا..

فواجهت الرصاص و الموت بكل سرور ..

بعدها ....

بعدها، لا أتذكر إلا تلك الطلقة التي أصابتني بقوة في رأسي فجاءت هكذا فجأة ، فصدمتني.. فلم أتوقع قدومها فعندما أصابتني اهتز بدني كله، و فقدت السيطرة على نفسي فوقعت رغمًا عني على الأرض ...

احتضر ...

كنت أشعر أني احتضر فأنا كنت بين الحياة و الموت، فعندما وصلت إلى تلك النقطة هناك لم أرَ سوى تلك الغمامة...

غمامة بيضاء...

ظلت بيضاء ، و لكنها كانت رويدًا ... رويدًا ... تختفي، و ظلت تظلم أكثر و أكثر، حتى تحولت في النهاية إلى لون الرماد حتى جاءت لحظة و أصبحت فيها سوادًا تامًا..

كلها سوداء فلم أعد أرى أي شيء ...

فلم أعد أشعر بشيء ...

ففي تلك اللحظة اعتقدت...

اعتقدت يا أقصى أني مت...

بالفعل اعتقدت أنه قد مات، فشعرت فإنه يموت أمامي الآن فتحـــول لون وجهه واقترب للون الاصفرار، و كانت يده ترتعش... ترتعش بقوة فيحاول أن يسيطر عليها فيمسكها لكي تثبت و لا تتحـــرك ، و لكنـــها كانت تعانده فترتعش بقوة أكبر ، فشعرت أنه قد فقد السيطرة على نفسه ، شعرت وكأنه عاده مرة أخرى إلى تلك اللحظة ...

و كأنه للمرة الثانية تم الاعتداء عليه ...

وكأنه لمرة ثانية أطلق عليه الرصاص ...

وكأنه لمرة ثانية كان يحتضر...

و فجأة وجدت نفسي أقف و أسير إليه، و عندما وقفت أمامه نظرت إليه محاولًا أن أتعرف عليه، أتعرف على هذا الرجل الضعيف...

بل هذا الطفل الوحيد الضعيف ..

فنزلت على الأرض، و عندما التقت أعيننا كشف الحجاب عن كـــل شيء، فذابت كل تلك السنوات في لحظة و لم يبقَ غير الحب، فوجـــدت مشاعرنا طريقها بسهولة فرغم أنها كانت ضائعة.. تائهة لأكثر من ثلاثين عامًا إلا أنها رغم كل هذا الوقت استطاعت أن تجد الطريق مرة ثانية، وكل هذا حدث في لحظة ، لحظة واحدة...

فمددت يدي إليه و عانقته...

عانقته بقوة ...

عانقته بقوة أكبر ...

و لكنه كان خائفًا ....

ربما لم يكن خائفًا فقط، بل كان مصدومًا غير مصدق أني ابنه و أعانقه...

فعندما بدأ يصدق ...

بدأ يقترب مني ...

بدأ يضمني ...

بدأ يحبني ...

بدأ يكون أبي ...

ربما إذا وقف أحد من بعيد سوف يرى الصورة بشكل غير حقيقي ، سوف يراها ببساطة على أنها أب يحتضن ابنه، و لكن كل شيء سيختلف إذا سمح لنفسه بالاقتراب..

فإذا اقترب قليلًا سوف يراها بشكلها الحقيقي ، صحيح ستبدو مختلفة ... مختلفة تمامًا لأنه من المفترض أن يضم الأب الابن بعد طول هذا الغياب، و لكن في حقيقة الأمر كنت أنا الابن من يضم أباه بعد طول هذا الغياب، و هذا لماذا ؟

لماذا ؟

لا أعلم لماذا ؟

أيجب أن أسأل لماذا ؟

لا بأس سأقول ....

فربما يكون السبب هو إحساسي الذي شعرت به عندما وضعت نفسي مكانه فشعرت بالخوف مرة...

و بالضعف مرة...

و بالبعد مرة...

و بالغربة مرة ...

فربما يكون أي سبب من هذا ...

ربما ....

لا .. لا ليس الأمر كذلك ....

فهناك سبب آخر ...

لا بل هناك سبب واحد ...

سبب واحد حقيقي ...

سبب واحد جعل من الطفل الخائف الحزين رجلًا قويًا صابرًا...

سبب واحد أفقد الجميع أدوارهم الحقيقة... وأبقى على دور واحـــد ...

سبب واحد جعلني أنسى كل شيء، و أتذكر شيئًا واحدًا...

هذا السبب هو ....

هذا السبب هو أن هذا الرجل مهما يكن أبي ...

فهذا الرجل هو أبي ....

أبي ...

الفصل السادس عشر
والأخير
الصورة الأخيرة

بعد مرور أكثر من عشرين عامًا شعرت بالفخر الشديد... فقد جرت تلك الأيام سريعًا دون أن أشعر بها فبين ليلة و ضحاها وجدت ابني الذي كان صغيرًا يلعب مع أصدقائه وسط الحشائش، و يجري وراء كرة لا معنى لها..

كبر، قد كبر وصار هذا الرجل.. صار هذا الفارس الـــذي يغـــوص بأجنحة قوية من الفولاذ وسط ريح السماء العاتية مخترقها بثبات لا مثيـــل له، فيرتفع معها عاليًا وكأنهما صارا شيئًا واحدًا معًا..

يرتفع معها نحو الأجواء الشاهقة التي لم يـــصل إليهـــا إلا القليـــل .. القليل...

يرتفع عاليًا ثم ينزل عائدًا بكل فخر و قوة إلى الأرض ...

عائدًا و كله ثقة بنفسه...

عائدًا و هو يعلم تمامًا قيمته الحقيقة...

عائدًا إلي...

عائدًا إلى عائلته.

فعندما يستقر على الأرض يجدني أمامه أنتظره و بجواري شهد تقـــف بسعادة متكئة علي بجسدها الذي صار ضعيفًا ، و تكون يارا قد ســـبقتنا ببعض خطوات واقفة هناك تحاول أن تمنع قبعتها أن تطير من شدة الهـــواء فتلتفت إلينا و هي تبتسم بكل سعادة بينما تعود بنظرها إلى إبراهيم و هو يهبط بطائرته النفاثة .

نعم ..!! قد مر الزمن بنا دون أن نشعر، مر و هو مليء بتلك الذكريات التي صنعناها معًا كعائلة واحدة رغم أن في أحيان كثيرة لم نكن حقًا معًا.. فأبي و أمي و شهد و ابني إبراهيم و ابنتي يارا و أنا ... كان يجمعنا حضن واحد كبير.. حضن واسع صنعه الحب،فكان كفيلًا بأن يبقينا دائمًا معًا .

فهذا الحب قد انطلق من العمق من الجذور التي نبتت منذ أن وجدت الأرض فظلت تكبر و تكبر حتى وصلت إلينا .. فقد عاش هذا الحب آلاف السنوات يهيم ينتقل عبر كل شيء حي فأحيانًا مع نسمات الهواء وأحيانًا مع شعاع شمس الصباح و مرة مع لمسة حنان لمسة مثل تلك اللمسة التي انتظرها في يوم ما بشوق و أنا مازالت طفلًا صغيرًا فكنت أراقب الثواني و الدقائق حتى أعود إلى المترل فألتقي مع أمي فاجعل من لمستها ملاذًا لي ..

و هذا يذكرني باليوم الذي ضممت فيه أبي ... ففي ذلك اليوم كنت أنا الملاذ له فأخذته بين أحضاني وأوجدت بكلماتي طريقًا ليخطو عليه فصرت أكرر له و أنا أضمه بكل قوة حتى أني أوشكت أن أهشمه بين يدي « يا أبي لا تخف... قد انتهى كل شيء ... قد صرت بأمان ...لا تخف »

فأبي هذا الرجل الكبير قد كان خائفًا ..

خائفًا للغاية..

خائفًا خوف طفل يعتقد أن هناك شبحًا ما يطارده و بالفعل كان هناك شبح يطارده فشرارة الماضي كانت دائمًا تلاحقه رغم أنه حاول كثيرًا أن يتخلص منها.

فقصة أبي كانت حزينة، مخيفة بعض الشيء.. فكيف لإنسان أيًا كان رجل أو امرأة أن يستيقظ و يجد نفسه مستلقيًا على سرير ظل مستلقيًا عليه لأكثر من عشر سنوات ، و بعد أن يفيق يجد نفسه كلوحة فارغة فلا يتذكر من كان قبل تلك العشر سنوات الماضية ؟

و هذا ما حدث لأبي ففي ذلك اليوم حين سألته أين كنت قال لي :

– لا تعلم يا أقصى حقيقة الأمور مهما حاولت أن تبحث عنها فالسنوات قد تبدو للجميع لحظات طويلة متتابعة، و لكنها أيضًا قد تبدو لآخرين لحظة واحدة تنتهي حين تستيقظ، و هذا ما حدث معي فلحظتي الطويلة انتهت بعد عشر سنوات كنت فيها جسدًا نائمًا ، أما روحي فلا أعلم أين كانت ربما كانت هناك ...

معكم ...

تهيم معكم ...

فسألته و أنا أحاول أن أخفي قلقي عليه فقد بدأ إحساسي تجاه أبي يزيد:

– ماذا حدث لك ؟

فقال :

– قد لحق بجسدي أضرار بالغة فكان النوم هو الوسيلة الوحيدة للعلاج .

و عندما قال لي تلك الكلمات الجوفاء التي لا تعبر عن شيء ساورني القلق أكثر ، و لعبت في عقلي الظنون فتردد في ذهني أشكال و أشكال من الإصابات المختلفة التي كلما تصورت أن أبي أصيب بأحد منها كان جسدي و روحي تنتفض خوفًا و فزعًا عليه ، و لذلك أراد كل شيء بداخلي أن يكشف عن ملابسه التي يرتديها و أن يفحصه بدقة لكي أطمئن

عليه ، و لكني لم أفعل ذلك و اكتفيت بان أخبره ببرود بأني طبيب وأنه يستطيع أن يشرح لي تفاصيل أكثر عما أصابه ...

فقال :

– ماذا تريد أن تسمع يا أقصى فلن تستطيع علاجي الآن فقد مر وقت طويل على ذلك ، و لكن مادمت تريد أن تعرف كافة التفاصيل سأخبرك فأنا في ذلك اليوم حين تعرضت لطلقات الرصاص فقدت إحدى كليتي وأصابتني رصاصة في الكتف و أخرى في القدم

... نعم كنت سأعيش ، و ربما كنت سأعود لوعيي في وقت طبيعي ومع الراحة و العلاج كنت ربما عدت إليكم ؛ إلا أني في ذلك اليوم تركت أنزف للموت كباقي المصابين هناك ، وفي لحظة فرقت بين موتي و حياتي تم إسعافي فحملوني إلى مكان آمن إلا أن فقدي لكل هذه الدماء أعاق وصول الأكسجين إلى مخي فدخلت في غيبوبة طويلة و عندما استيقظت وجدت نفسي قابعًا في مستشفى في الأردن لا أتذكر أي شيء مما حدث و لا أي شيء عن نفسي ، و من أكون ؟ و ماذا أفعل هنا ؟ فشعرت وكأني مازلت في الظلام، حاول الجميع أن يساعدوني و تم عرضي على أطباء نفسيين و خضعت لمختلف أنواع الفحوصات والأشعة فبعد ظهور النتائج أكد الجميع أن المشكلة ليست بدنية فخلال السنوات الماضية تعافى بدني بصورة جيدة ، و لكن المشكلة الحقيقة تكمن هنا ... بداخلي فقالوا لي أني مررت بصدمة كبيرة لم يتحملها عقلي فصنع عقلي الباطن حاجزًا يفصلني عن الواقع فبطريقة ما استطاع أن ينجح في تحقيق ذلك.

.... لذلك يا أقصى كان أمامي طريق طويل للشفاء فقضيت عشر سنوات أخرى أحاول أن اكتشف نفسي و من أكون ؟ كنت أتذكر بعض الأشياء و لكنها لم تكن كافية، و لكن بطريقة ما عاد كل شيء إلي... تصور قد عاد كل شيء في لحظة و أول شيء تذكرته كان أنت فتساءلت

كيف أصبحت ؟ تخيلتك رجلًا كبيرًا ناضجًا.. لم أتوقع أن يحدث كل ذلك، و لكنه حدث فعجبًا مما قد تصنعه اللحظات.

لم يتحدث أبي أكثر من ذلك، فكان هذا كل شيء قاله فلم يخض في شرح تفاصيل أكثر فاكتفت نظرة عينه و تشنجات جسده و رعشة يده في إيصال لي ما حدث، فجعلتني أتخيل كيف كان وحيدًا يخاف الظلام رغم أنه كان يعيش بداخله منعزلًا عن الجميع لا يرغب في الحديث و إن تحدث يتمتم بكلمات قليلة قد لا يكون لها أي معنى، و إن حلم فيحلم بشيء واحد فقط... يحلم فقط أن يتذكر وأن تعود السنوات الماضية ويتذكر...وعندما تذكر رجع يتمنى من جديد أن يظل في العتمة وسط أمنيات قد تتحقق أو لا تتحقق...

فهذا هو أبي فجزء مني كان يعرفه، و جزء آخر قضى باقي الأوقات يحاول أن يعرف من كان ؟ و لكن الشيء الذي كنت واثقًا منه أن هذا الرجل الذي عاد لم يكن أبي الذي انتظرته طوال تلك السنوات. فأبي الذي كنت منتظره مازال هناك في الأقصى ينتظرني لأذهب إليه... ينتظرني لتتوحد يدي مع يده حتى نبدأ معًا ... نبدأ من حيث توقف الآخرون .

– أبي.. أمي ، لقد عدت..!!

مدت شهد يدها لإبراهيم و كانت السعادة لا تسعها و قالت:

– مرحبًا بابني البطل...

تناول إبراهيم يديها بخفة :

– مرحبًا بكِ يا أمي، هل رأيتني و أنا في السماء ؟

ضحكت له شهد و هي تمسح على صدره :

– رأيتك ..! رأيتك، و لم أصدق عيني فرغم أني كنت خائفة كثيرًا عليك إلا أني شعرت بالفخر الشديد فهذا الشخص الذي يحلق عاليًا،

وعيون الجميع تراقبه في ذهول و تعجب هو ابني أنا.. آه يا إبراهيم لقد جعلت والدتك فخورة بك كثيرًا.. جعلتنا جميعًا فخورين بك.

ضحك إبراهيم بصدق و هو ينظر إلي السعادة التي ملأت عين شهد ، فكان مستمتعًا بها ، و فخورًا بأنه كان السبب وراءها فكان كل شيء فيه يعبر عن شعوره بذلك ، فحدقة عينه المتسعة ... و فمه المفتوح بلطف .. والغمازات التي برزت على جانبي خدوده كان كل ذلك شاهدًا..

كنت أتأملهما ...

كنت أتأمل عائلتي السعيدة و هي تقف جنبًا إلي جنب بينما أنا أقف من قريب و أضغط علي زر الكاميرا لألتقط لهم تلك الصورة التي سوف توضع في ألبوم صور احتوى على أجمل و أحلى الذكريات .. قد مرت عشرون عامًا و أنا أملأ صفحات ذلك الألبوم ففي كل صفحة كانت توجد مناسبة، كانت توجد حكاية جديدة..

ففي يوم حكاية كانت بطلتها روح التي استطاعت في النهاية أن تهزم المرض فعادت إلينا .. عادت مرة ثانية للحياة و وجها تملؤه البسمة والأمل فقررت أن تهب حياتها لمساعدة المحتاجين و المنكوبين فقضت باقي سنوات عمرها تنتقل من مكان إلى آخر فمرة ذهبت إلى الصومال و مرة إلى الشيشان و مرة إلى سوريا و العديد و العديد من البلاد فكان غرضها من كل زيارة أن تعطي بسمة أمل لمن يحتاجها و أن تمد يد العون لمن يطلبها، و عندما اقتربت النهاية استطاعت أن تحقق هذا الحلم الذي طالما حلمت به فاستطاعت أن تعود إلى فلسطين ... استطاعت أن تلمس قدمها ترابها و تشم رائحتها و عند اللحظة الأخيرة سمعت نداء فهد فكان هناك ينتظرها في السماء بالفستان الأبيض.

و يوم آخر كانت توجد حكاية بطلها مصطفى الذي صار يطارد كل شيء متعلق بفهد، فحاول أن يكون هو في شكله في طريقة كلامه في

تفكيره ، و لكن بعد سنين و سنين من المحاولة... فشل، فقد اكتشف أنه لا يستطيع أن يكون أي أحد سوى نفسه و عند تلك النقطة بدأ مصطفى حياة جديدة فاستطاع أن يسامح فهد... استطاع أن يسامح نفسه فتحول كل شيء بداخله فوجد الحب و الراحة و استطاع أن يكون له عائلة جديدة فتزوج و رزق بولد وهب له اسم فهد.

لم تتوقف الصور و الذكريات هناك بل تزايدت مع كل لحظة فجاء اليوم الذي استطاع أن يعبر ديفيد فيه عن نفسه فخرج من جدار الصمت فوقف بينهم في القدس وقف هناك وهتف صارخًا ينطق بكلمات يملؤها الغضب محتجًّا على هذا الظلم وهذا الاستبداد الذي يصنعونه و لم يتوقف هناك فانتقل مع غيره في البلاد الأخرى مسمعين أصواتهم للعالم مشهرين بهذا العدوان و الطغيان الظالم على هذا الشعب الأبي

و حتى إياد رغم أني لم أسمع منه لمدة طويلة إلا أننا التقينا معًا مرة ثانية في غزة هناك عند قبر عمر و فهد فبعد سنوات و سنوات من البعد قرر إياد أن يعود مرة ثانية إلى غزة و لكن في تلك المرة لم يأتِ وحده فجاء مع عائلته و رغم أنه يعلم ثمن مخاطرته هذه ، و لكنه أخبرني أنه اكتشف أن ليس هناك جدوى من الهروب فيجب أن نتعلم أن نواجه مهما كلفنا هذا فأراد أن يعلم أولاده هذا الدرس .

جرت السنوات سريعًا و مع كل صورة عشنا أحلام و أفراح و آلام فكنا نكذب على أنفسنا و نقول أنها الصورة الأخيرة، و لكن دائما ما كان الزمان كريم معنا فيفسح لنا المجال بأن نعيش لحظات جديدة حتى جعلنا نشهد تلك اللحظة التي اعتقد البعض انها مستحيلة وقال آخرون أنها ستكون نهاية العالم وادعى آخرون أنه من المستحيل اتفاق العرب واجتماعهم لكن في هذا اليوم الذي لم يكن ببعيد كسرت كل هذه الأقاويل وتجمعت أرواح العرب والمسلمين كلهم واسترجعوا ماضيهم

العريق وأعادوا لأنفسهم الهيبة والقوة واتفق العرب أخيراً وحُققت أمانيهم القديمة .

فجاءت اللحظة التي انطلقت فيها الجيوش العربية نحو فلسطين رافعة لواء التحرير و العودة .

***